الجامعة الأردنية
كلية الدراسات العليا

المقابلة في القرآن الكريم

عميد كلية الدراسات العليا

إعداد :
بن عيسى عبدالقادر بطاهر

إشراف :
الأستاذ الدكتور محمد بركات أبوعلي

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات نيل درجة الدكتوراة في تخصص اللغة العربية وآدابها من كلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية.

أيار ١٩٩٤ م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ٢٩ / ٥ / ١٩٩٤م وأجيزت.

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
١- الأستاذ الدكتور محمد بركات أبوعلي رئيساً	.....
٢- الأستاذ الدكتور عبدالكريم خليفة. ، عضواً	.....
٣- الأستاذ الدكتور محمود السمرة. ، عضواً	.....
٤- الدكتور محمد حسن عواد. ، عضواً	.....

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكر وتقدير

امتثالاً لقول الرسول صلّى الله عليه وسلم: «من لم يشكر النّاس لم يشكر الله» أتقدم بالشكر والاحترام إلى أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور "**محمد بركات أبوعلي**" الذي اغترفت من فيض علمه، والذي تولاني بعنايته وكرمه منذ إشرافه على رسالتي فجزاه الله خير الجزاء، وله منّي كل الحبّ والوفاء.

وأتقدم بالشكر والاحترام إلى أساتذتي الأفاضل :-

الأستاذ الدكتور **محمود السمرة**.

والأستاذ الدكتور **عبدالكريم خليفة**.

والأستاذ الدكتور **محمد حسن عواد**.

الذين تفضلوا بالموافقة على مناقشة هذه الرسالة،والذين تجشّموا عناء قراءتها، وإثرائها بملاحظاتهم المفيدة وتوجيهاتهم السديدة، فلهم منّي كل الشكر والتقدير.

وأقدم شكري وامتناني إلى أساتذتي في قسم اللغة العربية وآدابها، فقد كان لتشجيعهم الأثر الكبير في إثراء تجربتي العلمية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
* قرار لجنة المناقشة	ب
* شكر وتقدير	جـ
* فهرس المحتويات	د
* ملخص باللغة العربية	و
* الفصل الأول :١- المقدمة	٢
٢- المقابلة في الدراسات القديمة والحديثة	٦
أ - المقابلة عند أهل اللغة	٦
ب- المقابلة في الاصطلاح	٧
١- المقابلة عند البلاغيين والنقاد العرب	٧
٢- المقابلة عند الحكماء وعلماء الكلام	١٣
٣- المقابلة عند المحدثين	١٨
جـ- أنواع المقابلة	٢٠
* الفصل الثاني : المقابلة والقضية الكبرى في القرآن: الوحدانية وتعدد الآلهة	٢٤
أ - الوحدانية وطريقة عرضها في القرآن الكريم	٢٥
ب- المقابلة الكبرى: الله والطاغوت	٤٧
جـ- ظاهرة التقابل في سورة التوبة	٥٥
* الفصل الثالث : المقابلة وقضايا الدين والأخلاق	٦٨
أ - المقابلة بين الخير والشر	٧١
ب- المقابلة بين الحلال والحرام	٨٦
جـ- المقابلة بين الولاء والبراء	٩٧
د - المقابلة بين الجنة والنار	١٠٨
* الفصل الرابع : المقابلة وقضايا السياسة والاقتصاد	١١٧
أ - المقابلة بين الجهاد والقعود عنه	١١٨
ب- المقابلة بين الفقر والغنى	١٣٠
جـ- المقابلة بين العدل والظلم	١٤١
د - المقابلة بين الاجتماع والفرقة	١٥٤
* الفصل الخامس : المقابلة وقضايا العلم والفكر	١٦٤
أ - المقابلة بين العلم والجهل	١٦٥
ب- المقابلة بين الاجتهاد والتقليد	١٨٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

* الفصل السادس : المقابلة وخصائص التعبير القرآني ١٨٦
أ - المقابلة إحدى طرق العرض في القرآن ١٨٧
ب- المقابلة وأسلوب التصوير ١٩٥
جـ- المقابلة طريقة في الإقناع ٢٠١
د - المقابلة وغاياتها الفنية ٢٠٧
* **الخاتمة** ٢١١
* **فهرس المصادر والمراجع** ٢١٣
* **ملخص باللغة الانجليزية** ٢٢٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الملخص

المقابلة في القرآن الكريم

اعداد : بن عيسى عبد القادر بطاهر

اشراف : الاستاذ الدكتور محمد بركات أبو علي

يتناول هذا البحث موضوع "المقابلة في القرآن الكريم"، والمقابلة هي أحد الأساليب البارزة في القرآن الكريم، وهي إحدى طرق العرض فيه. وقد كان اختيار هذا الموضوع مبنياً على عدة أسباب لعلّ أهمّها ما يتعلق بالدراسات القديمة والحديثة حول الموضوع، فقد لوحظ أن الدراسات القديمة لم تعط هذا الموضوع حقّه من الدراسة، بل تناولته ضمن زاوية ضيقة في علم من علوم البلاغة هو "البديع"، أمّا الدراسات الحديثة فلم يُكتَب حول هذا الموضوع دراسة جادة ومتخصصة، وأغلب ما يوجد لدينا هو إشارات في بعض الكتب العامة، وفي بعض التفاسير القرآنية، أما الأسباب الأخرى فترجع إلى أهمية الموضوع، وعلاقته بالأسلوب القرآني المعجز والفريد.

ويعدُّ هذا البحث جديداً في موضوعه، وقد اعتمد الباحث فيه على منهج ينطلق من النصوص القرآنية ويعدّها المفتاح الحقيقي للوصول إلى الحقائق. كما أنّه اعتمد على الاحصاء والتحليل لتلك النصوص للوصول إلى النتائج السليمة.

وخلص هذا البحث إلى نتائج مهمة منها: أنّ المقابلة ظاهرة بارزة في القرآن الكريم، وهي من جملة الطرق التي يعتمد عليها القرآن في عرض حقائقه، وليست محسناً معنوياً فحسب كما هو الحال في مذاهب الدارسين القدماء.

والمقابلة كذلك هي إحدى طرق الإقناع في القرآن الكريم وقد اعتُمِد عليها كثيراً في الاستدلال والبرهنة، وفي مواطن الجدل والحجاج، كما أنّ المقابلة بانسجامها وتكاملها مع بقية الأساليب، وبخاصة أسلوب التصوير، تضفي جمالاً فنياً على التعبير، ومنشأ هذا الجمال وجود الصور المتقابلة المتناسقة، والألوان المتباينة، والنماذج البشرية المختلفة، وغير ذلك من الأشياء المتضادة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد تناول البحث مجموعة من المقابلات الكبرى في القرآن وعرض لها ولأهميتها في الوجود الإنساني، وأبرز هذه المقابلات ترتبط بقضايا الدين والأخلاق مثل: الوحدانية والتعدد، والخير والشر، وقضايا السياسة والاقتصاد مثل: العدل والظلم، والغنى والفقر، وقضايا العلم والفكر مثل: العلم والجهل، والاجتهاد والتقليد، وغير ذلك من المقابلات.

وأوصى الباحث بضرورة تصنيف المقابلة تصنيفاً جديداً، واعطائها موقعاً جديداً ضمن أساليب القرآن البليغة، وطرق عرضه الرائعة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول :

١ - المقدمة

٢- المقابلة في الدراسات القديمة والحديثة:

أ - المقابلة عند أهل اللغة

ب- المقابلة في الاصطلاح

١ - المقابلة عند النقاد والبلاغيين العرب

٢ - المقابلة عند الحكماء وعلماء الكلام

٣ - المقابلة عند المحدثين

جـ- أنواع المقابلة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

• بسم الله الرحمن الرحيم •

مقدمة :

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، والصلاة والسلام على سيّد الأولين والآخرين وعلى آله وصحبه الطيّبين الطاهرين، وبعد ،

فإن القرآن الكريم هو كتاب الله العظيم، وحبله المتين، وهو كتاب الإنسانية الخالد الذي اجتمعت فيه عناصر الإعجاز في جوانبه المختلفة، واكتملت فيه وسائل الدعوة والإقناع في مواضعه كلّها، فكان نوراً وبرهاناً للعالمين، قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ نزّلَ أحْسَنَ الحديثِ كتاباً مُتَشَابِهاً مَثاني تَقْشَعِرُّ منه جلودُ الذينَ يخشَوْنَ رَبَّهُم ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهم وقُلُوبُهم إلى ذِكْرِ الله** ﴾[1].

والقرآن الكريم هو الكتاب الذي حرّك همم الدارسين، ونشّط عزائم الباحثين منذ نزوله وإلى الآن، فقاموا يبحثون عن سرّ إعجازه، وقوّة بلاغته، ومتانة نظمه، وجمال تعبيره، وتوصلوا بعد عناء البحث، وكثرة الجهد، إلى معرفة الكثير من حقائقه، ولكن مع هذا الإصرار على كثرة الدرس، ومشقّة البحث مازلت ترى في هذا القرآن عجباً، فمازالت أسراره باقية لا تنفد، ومازالت عجائبه ظاهرة لا تنقضي، ومازالت الهمم إليه متوجهة، والعزائم نحوه متوهجة رغبة منها في إدراك حقائقه، وفهم مقاصده.

وهذه دراسة من جملة هذه الدراسات القرآنية التي تبحث في بلاغة التعبير، وجمال التصوير، وبراعة النظم، وقد قصدت بها إلى البحث في أسلوب من الأساليب البلاغية التي يعتمد عليها القرآن كثيراً في عرض الحقائق، وبسط الأدلة، لمخاطبة النفوس البشرية على اختلاف مشاربها، وتنوّع طبائعها.

فكان الاختيار موجهاً إلى أسلوب "المقابلة" أو "التقابل" المعروف عند الدارسين القدماء والمحدثين بهذا المصطلح وبغيره من المصطلحات، لكنّي فضلت مصطلح "المقابلة" عن غيره من

---

(١) سورة الزمر / الآية ٢٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصطلحات لدلالته التامّة على فكرة التضاد، ولكونه من المصطلحات القديمة المنسجمة مع المفاهيم النقدية الحديثة، وقد قصدت "بالمقابلة" طريقة التعبير التي تقوم على مبدأ إقامة تضاد بين الألفاظ والمعاني والأفكار والصور تحقيقاً لغايات بلاغية، وقِيَم فكرية، وقد كانت الغاية من البحث في هذا الأسلوب القرآني عرض مفهومه القديم في قالب جديد، وإبراز خصائصه وأهدافه وقِيَمه وغاياته الفكرية والمعنوية.

وسبب اختياري لهذا الموضوع مبني على دافعين، أولاً: إنّ أسلوب "المقابلة" هو من الأساليب التي استوقفتني كثيراً خلال تعاملي مع القرآن الكريم قراءة وتدبراً، فأثناء إعدادي لرسالة الماجستير حول أساليب الإقناع في القرآن الكريم، لفت هذا الأسلوب انتباهي كثيراً لكونه من الأساليب البارزة في المنهج القرآني، التي لا يأتي الاعتماد عليها عرضاً وعن قلّة أو ندرة بل إنّه من الأساليب التي يجيء الاعتماد عليها عن قصد وفي مواضع كثيرة من القرآن، وقد بدا واضحاً لي أنّ هذا الأسلوب القرآني البارز لابدّ أن يُدرس دراسة علمية تبيّن خصائصه وأهدافه. ثانياً: إنّ الدافع الثاني يتعلق بالدراسات التي كُتِبَت حول هذا الموضوع، فبعد البحث تراءى لي أنّ هذا الموضوع لم يدرس دراسة علمية متخصصة، وبخاصة في القرآن الكريم، وأغلب الدراسات التي لها علاقة بالموضوع تمسّ الموضوع مسّاً ومن زوايا ضيّقة، ولا تعطيه حقّه من الدراسة والتحليل، فالدراسات القديمة تناولت "المقابلة" ضمن علم البديع، ونظرت إليها باعتبارها محسناً بديعياً يساهم في تحسين المعنى وتنميقه فحسب، أما الدراسات الحديثة ففيها إشارات لابأس بها عن أهمية المقابلة وغاياتها وقِيَمها لكنّها تفتقد إلى النظرة العامة المتكاملة التي تنظر إلى الموضوع من جوانبه كلّها.

وأقرب الدراسات إلى منهجي هذا دراسة الدكتور سعد أبوالرضا "في البنية والدلالة" والتي حاول فيها دراسة الطباق والمقابلة وفق نظرة جديدة تخالف منهج القدماء في النظر، ولكن دراسته على أهميتها افتقرت إلى النظرة المتكاملة على غرار افتقارها إلى التفصيل والبيان لجوانب هامة في هذا الموضوع، وللشيخ "محمد أبوزهرة" في كتابه "المعجزة الكبرى القرآن" نظرات هامة حول "المقابلة" وبخاصة في الغاية الإقناعية لهذا الأسلوب.

وأبرز الصعوبات التي واجهتني في هذا البحث هي اتساع موضوع "المقابلة" في القرآن

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكريم لارتباطه بالوجود الإنساني كلّه القائم على علاقة التقابل والتضاد بين الأشياء، ولذلك تعذّر عليّ دراسة صور "المقابلة" على اختلاف أنواعها لكثرتها وتنوّعها واقتضى مني منهج البحث أن أركّز على المقابلات الكبرى البارزة في القرآن الكريم، كما أنّه تحتّم عليّ التركيز كذلك على سورة واحدة هي سورة "التوبة" التي انبنى عليها الجانب التطبيقي من الدراسة.

ولم يكن مقياس الاختيار هذا تعسفياً، بل هو مبني على اختيار أكثر المقابلات بروزاً في القرآن، والتي تندرج تحتها مقابلات صغرى كثيرة، وليس لأحد أن يدّعي استيعاب جميع المقابلات في القرآن، فذلك أمر لا يستطيعه أحد من البشر لارتباط الموضوع بالوجود الإنساني كلّه.

وقد اعتمدت في البحث على منهج متكامل مستفيداً من المنهج الأدبي التحليلي، مع مراعاة القِيَم الفكرية والأهداف والخصائص الأسلوبية وكانت النصوص القرآنية هي المفتاح الحقيقي للوصول إلى الحقيقة.

وبهذا المنهج قسمت البحث إلى ستة فصول، خصصت الفصل الأول بدراسة "المقابلة في الدراسات القديمة والحديثة"، وتناولت فيه "المقابلة" لغة واصطلاحاً، ثم أنواع المقابلة.

وخصصت الفصل الثاني بدراسة "المقابلة والقضية الكبرى في القرآن: الوحدانية وتعدد الآلهة"، وتناولت العناصر التالية: الوحدانية وطريقة عرضها في القرآن، والمقابلة الكبرى: الله والطاغوت، وسورة "التوبة" أنموذج تطبيقي للتقابل.

وخصصت الفصل الثالث بدراسة "المقابلة وقضايا الدين والأخلاق" وتناولت فيه: المقابلة بين الخير والشر، والمقابلة بين الحلال والحرام، والمقابلة بين الولاء والبراء، والمقابلة بين الجنّة والنّار.

٤٤٠١٥١

وتناولت في الفصل الرابع "المقابلة وقضايا السياسة والاقتصاد" ودرست فيه "المقابلة بين الجهاد والقعود عنه"، والمقابلة بين الفقر والغنى، والمقابلة بين العدل والظلم، والمقابلة بين الاجتماع والفرقة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وخصّصت الفصل الخامس بدراسة "المقابلة وقضايا العلم والفكر" وتناولت فيه المقابلة بين العلم والجهل، والمقابلة بين الاجتهاد والتقليد.

وخصصت الفصل السادس بدراسة "المقابلة وخصائص التعبير القرآني" وتناولت فيه: "المقابلة هي إحدى طرق العرض في القرآن"، و"المقابلة وأسلوب التصوير"، و"المقابلة طريقة في الإقناع"، و"المقابلة وغاياتها الفنية"، وختمت البحث بخلاصة لأهم النتائج التي توصلت إليها.

أمّا مصادر البحث ومراجعه فقد تنوعّت بين القديم والحديث، فاستفدت من الدراسات البلاغية والأدبية والنقدية، وكان لكتب علوم القرآن النصيب الأوفر في البحث، كما استفدت كثيراً من كتب التفسير وبخاصة تلك التي تعنى بالمادة البلاغية، والقِيَم الفكرية والمعنوية وأخصّ منها "تفسير الكشاف" لمحمود بن عمر الزمخشري (- ٥٣٨ هـ) و"تفسير مفاتيح الغيب" للفخر الرازي (- ٦٠٦ هـ) في القديم، و"تفسير المنار" لمحمد رشيد رضا، وتفسير "في ظلال القرآن" لسيد قطب، وتفسير "التحرير والتنوير" لمحمد الطاهر بن عاشور في العصر الحديث.

وبعد : فهذا البحث الذي قمت بإعداده لا أدّعي أنّه جاء بكلمة الفصل في هذا الموضوع، بل هو محاولة جادّة لإعادة النظر في مصطلحنا البلاغي القديم، وبيان الخصائص العامة للأسلوب القرآني، فإن وفّقت في هذا فمن الله وحده، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان.

وختاماً : أسأل الله العظيم أن يكون عملي المتواضع هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يرزقنا السداد في القول والإخلاص في العمل، والحمد لله ربّ العالمين.

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ - المقابلة عند أهل اللغة :

أصل المقابلة عند اللغويين من قابل الشيء بالشيء مقابلة وقِبالاً إذا عارضه، فإذا ضممت شيئاً إلى شيء قلت: قابلته به.

والمقابلة المواجهة، والتقابل مثله[١] وهو نقيض التدابر[٢] وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى في وصف أهل الجنة: ﴿ **وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِنْ غِلٍ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ** ﴾[٣]

قال أهل التفسير : إنّ التقابل في هذه الآية هو التواجه بحيث لا ينظر أحدهم في قفا صاحبه، لأنّ الأسِرّة تدور بهم حيث داروا فهم في جميع أحوالهم متقابلون[٤].

وجاء في الحديث النبوي الشريف أنّ الله تعالى كلّم آدم قِبَلاً أي عياناً ومقابلة لا من وراء حجاب، ومن غير أن يولّي أمره أو كلامه أحداً من ملائكته[٥].

---

(١) ابن منظور - لسان العرب - مادة (قبل) - ط دار صادر بيروت.

(٢) الألوسي - تفسير روح المعاني - دار إحياء التراث العربي - ج ١٤ - ص ٥٩.
وأحمد محمود الشنقيطي - الترجمان والدليل لآيات التنزيل - ط ١ - دار السلام - القاهرة ١٩٩٣ - ج ٢ - ص ٥٩٢.

(٣) سورة الحجر - الآية ٤٧.

(٤) الطبري أبوجعفر (- ٣١٠ هـ) - تفسير الطبري - ط دار الفكر: بيروت - ج ١٤ - ص ٣٨.
والزمخشري (- ٥٣٨ هـ) - تفسير الكشاف - ط دار الريان للتراث: ج ٣ - ص ٥٨٠.
والفخر الرازي (- ٦٠٦ هـ) - تفسير الفخر الرازي - ط دار إحياء التراث العربي - بيروت: ج ١٩ - ص ١٩٣.

(٥) ابن منظور - لسان العرب - مادة "قبل".

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب - المقابلة في الاصطلاح :

١ - المقابلة عند النقاد والبلاغيين العرب :

تعد المقابلة عند أغلب النقاد والبلاغيين العرب جزءاً من علم البديع، وهي تساهم في بلاغة الكلام من حيث تحسين المعنى وتنميقه، ومفاهيمها عندهم متنوعة، وإن كانت تتشابه أحياناً لما قد يوجد من تأثر وتأثير بين مختلف الأفكار والآراء[١] وسنورد بعضاً من هذه المفاهيم ونعقبها بالمناقشة والتحليل.

إن قدامة بن جعفر (- ٣٣٧ هـ) يعد من أوائل من تناول المقابلة بالبحث، حيث ذكرها في أنواع المعاني، قال: «ومن أنواع المعاني وأجناسها أيضاً صحة المقابلات، وهي أن يصنع الشاعر معاني يريد التوفيق بين بعضها وبعض أو المخالفة، فيأتي بالموافق بما يوافق، وفي المخالف بما يخالف على الصحة، أو يشترط شروطاً، ويعدد أحوالاً في أحد المعنيين، فيجب أن يأتي فيما يوافقه بمثل الذي شرطه وعدّده، وفيما يخالف بأضداد ذلك. »[٢]

وظل هذا المفهوم أصلاً لكثير من الدارسين بعد "قدامة"، بما فيه من توفيق في تصنيف المقابلة وتأصيل مفهومها، وللأمثلة التي ساقها من القرآن والشعر للاستشهاد على فكرة التقابل بين المعاني.

وقال أبوهلال العسكري (- ٣٩٥ هـ) في بيان مفهوم المقابلة: « المقابلة إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة. »[٣]

ويلاحظ في هذا التعريف أنّ العسكري على غرار "قدامة" يشترط في المقابلة الموافقة والمخالفة.

ويوجز الباقلاني (- ٤٠٣ هـ) تعريف المقابلة فيقول: «هي أن يوفق بين معانٍ ونظائرها،

---

(١) محمد بركات أبوعلي - في الأدب والبيان - ط ١ دار الفكر: عمان ١٩٨٤ - ص ٨٣ - ٩٦.

(٢) نقد الشعر - تحقيق كمال مصطفى - ط ٣ - مكتبة الخانجي: القاهرة - ص ١٣٣.

(٣) كتاب الصناعتين - تحقيق مفيد قميحة - ط دار الكتب العلمية - بيروت - ص ٣٧١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمضاد بضده. »[١]

وهذا تعريف وجيز لمعنى المقابلة، وهو يحدد معنى التقابل الذي يقتضي التوفيق بين المعاني ونظائرها وأضدادها.

أما التعريف المتداول لمفهوم المقابلة فنجده عند ابن رشيق القيرواني (- ٤٥٦ هـ) الذي فرّق بين الطباق والمقابلة، وعقد فصلاً واسعاً للمقابلة ومثّل لها بأمثلة متنوعة، يقول في التعريف: «المقابلة أصلها ترتيب الكلام على ما يجب، فيعطي أول الكلام ما يليق به أولاً، وآخره ما يليق به آخراً، ويأتي في الموافق بما يوافقه، وفي المخالف بما يخالفه، وأكثر ما تجيء المقابلة في الأضداد، فإذا جاوز الطباق ضدين كان مقابلة»[٢].

يلاحَظ في هذا التعريف أنّ ابن رشيق يفرّق بين الطباق والمقابلة من حيث عدد الأضداد في الكلام، فالطباق عنده هو الجمع بين الضدين فحسب[٣]، أمّا المقابلة فتختص بالجمع بين أكثر من متضادين، ويُعَد ابن رشيق ببصره الناقد أول من تفطّن إلى الخلط والالتباس بين الطباق والمقابلة[٤]، كما أنه يشير إشارة واضحة إلى التلازم بين التضاد والمقابلة، وأنّ أكثر ما يجيء التقابل في الأضداد.

ونجد البغدادي (- ٥١٧ هـ) يكرّر ما قاله "قدامة" في مفهوم المقابلة فيقول: «المقابلة هي أن يضع الشاعر معاني يريد التوفيق بينها، فيأتي في الموافق بما يوافق، وفي المخالف بما يخالف على الصحة، أو يشترط شروطاً في أحد المعنيين فيأتي بما يوافقه بمثل الذي شرطه، وفيما يخالفه بأضداد ذلك»[٥].

وعنصر التضاد في المقابلة نجده واضحاً في تعريف الفخر الرازي (- ٦٠٦ هـ) حيث يقول: «المقابلة أن تجمع بين شيئين متوافقين وبين ضديهما، ثمّ إذا شرطتها بشرط وجب أن

---

(١) إعجاز القرآن - تعليق محمد عبدالمنعم خفاجي - ط ١ دار الجيل: بيروت - ١٩٩١م - ص ١٤٠.

(٢) العمدة - تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد - ط ٣ دار السعادة: مصر - ١٩٦٤م - ج ٢ - ص ١٥.

(٣) المصدر نفسه - ج ٢ - ص ٥.

(٤) عبدالله الطيب - المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها - ط دار الفكر: بيروت - ج ٢ - ص ٦٧٠.

(٥) قانون البلاغة - تحقيق محسن عياض عجيل - ط مؤسسة الرسالة - بيروت - ص ٩٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تشرط ضديهما بضد ذلك الشرط.[١]»

ونقل السكاكي (- ٦٢٦ هـ) تعريف الرازي[٢]، كما نقل الصنعاني (- القرن ٦ هـ) تعريف ابن رشيق بحذافيره، ولم يضف إليه شيئاً جديداً[٣].

ويتحدث ابن سنان الخفاجي (- ٤٦٦ هـ) عن المقابلة في باب المعاني، غير أن مفهومها عنده لا يختلف عن المفاهيم التي سبقته، يقول: «المقابلة في المعاني، هو أن يضع مؤلف الكلام معاني يريد التوفيق بين بعضها وبعض والمخالفة، فيأتي في الموافق بما يوافق، وفي المخالف بما يخالف على الصحة»[٤].

ومن المفاهيم القديمة للمقابلة ما ذكره حازم القرطاجنّي (- ٦٨٤ هـ) في كتابه منهاج البلغاء حيث قال: «إنّما تكون المقابلة في الكلام بالتوفيق بين المعاني التي يطابق بعضها بعضاً، والجمع بين المعنيين اللذين تكون بينهما نسبة تقتضي لأحدهما أن يذكر مع الآخر من جهة ما بينهما من تباين أو تقارب، على صفة من الوضع تلائم بها عبارة أحد المعنيين عبارة الآخر كما لاءم كلا المعنيين في ذلك صاحبه»[٥].

ولم تفرّق جماعة من الدارسين بين المقابلة والطباق، وأبرزهم العلوي (- ٧٤٩ هـ)، وابن الأثير (- ٦٣٨ هـ)، والسيوطي (- ٩١١ هـ).

أما العلوي في كتابه الطراز فيعقد باباً سمّاه "التضاد" وهو للطباق والمقابلة، وقال في تعريفه: «هو أن يؤتى بالشيء وضده»[٦] وهذا هو مفهوم الطباق عند البلاغيين، غير أنّ العلوي يرفض مصطلح الطباق لما فيه من معنى "التماثل"، ويقترح صراحة أن يسمى مقابلة ولا يلقّب بالطباق[٧].

(١) نهاية الايجاز - ط القاهرة ١٣١٧ هـ - ص ١١١.

(٢) مفتاح العلوم - ط القاهرة ١٩٣٧ م، ص ٢٠٠.

(٣) الرسالة العسجدية في المعاني المؤيدية - تحقيق عبدالمجيد الشرفي - ط الدار العربية للكتاب - ليبيا، تونس ١٩٧٦م - ص ١٤٣.

(٤) سر الفصاحة - ط ١ دار الكتب العلمية: بيروت - ص ٢٦٧.

(٥) منهاج البلغاء وسراج الأدباء - تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة - ط تونس ١٩٦٦ - ص ٥٢.

(٦) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة - ط بمطبعة المقتطف بمصر ١٩١٤م - ج ٢ - ص ٣٧٧.

(٧) المصدر نفسه - ص ٣٧٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتحدّث ابن أبي الاصبع المصري (- ٦٥٤ هـ) عن صحة المقابلة في الكلام فقال: «صحة المقابلات عبارة عن توخي المتكلم ترتيب الكلام على ما ينبغي، فإذا أتى في صدره بأشياء قابلها في عجزه بأضدادها، أو بأغيارها من المخالف والموافق على الترتيب، بحيث يقابل الأول بالأول، والثاني بالثاني، لا يخرم من ذلك شيئاً في المخالف والموافق، ومن أخلّ بالترتيب كان الكلام فاسد المقابلة»[١].

والمقابلة عند القزويني (- ٧٣٩ هـ) مرتبطة بالطباق داخلة فيه، قال في تعريفها: «ودخل في المطابقة ما يُخصُّ باسم المقابلة، وهو أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة بما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب»[٢].

ويلاحَظ أن هذه المعاني والمفاهيم قد تكرّرت كثيراً عند من سبق من النقاد والبلاغيين.

ومن البلاغيين الذين لم يفرّقوا بين المقابلة والطباق ضياء الدين بن الأثير (- ٦٣٨ هـ)، فقد تناول المقابلة ببحث واسع مستفيض، وقال صراحة: «الأليَق من حيث المعنى أن يسمّى هذا النوع المقابلة» ونجده يعرّف الطباق «بأنه الجمع بين الشيء وضده كالسواد والبياض، والليل والنهار»[٣]. وأما المقابلة فهي بنفس معنى الطباق وحدّها أن تكون اللفظة مقابلة لأختها ومعناها مختلف[٤].

وحقيقة المقابلة عند بدرالدين الزركشي (- ٧٩٤ هـ) «ذكر الشيء مع ما يوازيه في بعض صفاته، ويخالفه في بعضها... وهي قريبة من الطباق[٥].

ويوضح بدر الدين ابن مالك الأندلسي (- ٦٨٦ هـ) معنى التضاد في مفهوم المقابلة فيقول: «المقابلة أن تأتي في الكلام بجزأين فصاعداً ثم تعطف عليه متضمن أضدادها، أو

---

(١) بديع القرآن - تحقيق حفني شرف - ط ٢ دار نهضة مصر: القاهرة - ص ٧٣.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة - شرح وتعليق محمد عبدالمنعم خفاجي - ط دار الكتاب اللبناني - ص ٤٨٥.

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - تحقيق أحمد الوفي وبدوي طبانه - ط ١ مكتبة نهضة مصر: ١٩٦٢ - ج ٣ - ص ١٤٤.

(٤) المصدر نفسه - ص ١٤٣.

(٥) البرهان في علوم القرآن - تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم - ط ٢ - دار المعرفة: بيروت - ج ٣ - ص ٤٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شبه أضدادها على الترتيب، فإذا اختل كانت مقابلة فاسدة»[١].

ويورد ابن قيم الجوزية (- ٧٥١ هـ) أقوال السابقين في المقابلة[٢] أما جلال الدين السيوطي (- ٩١١ هـ) فيدخل المقابلة في الطباق ويعرّفها بقوله: «هي أن تذكر لفظتين أو أكثر ثم أضدادها على الترتيب»[٣].

ولا يشترط "السيوطي" في تعريفه الموافقة بين المعاني المتقابلة بل نجده يعرّف المقابلة بأنّها تضاد بين المعاني في الكلام، وهذا من أنسب تعاريف المقابلة التي تتلاءم مع المفهوم الحديث للتقابل.

ومن التعاريف المتأخرة للمقابلة "الجمع بين متنافيين أو أكثر، والمتنافيان المتقابلان في الجملة"[٤].

هذه هي أغلب آراء النقاد والبلاغيين العرب في مفهوم المقابلة، وهي آراء متشابهة متقاربة في أغلبها، غير أنّ هناك خلطاً والتباساً بين معنى المقابلة والطباق عندهم، وهو خلط قد يعود إلى حرص أغلبهم على كثرة التقسيم والتفريع في الأنواع البلاغية، وإذا كان بعضهم قد فرّق بين الطباق والمقابلة فإنّ البعض الآخر جعلهما نوعاً واحداً، بل إنّ بعضهم "كالعلوي" و "ابن الأثير" لا يحبّذان اسم الطباق ويقترحان أن يسمّى هذا النوع البلاغي مقابلة، وهذا رأي مناسب نظراً لتقارب معنى المصطلحين، ولدلالة لفظ المقابلة على فكرة التقابل والتضاد في الجملة والمناسب في الاصطلاح أن نسمي هذا النوع مقابلة أو تضاد.

ومما يزين مفاهيم المقابلة في هذه الآراء هو ربطها بفكرة التضاد، أي أنّ المقابلة عندهم هي أن تتقابل الأضداد لغرض بلاغي في الجملة، وهذا المفهوم يلتقي مع المفهوم الحديث

---

(١) كتاب المصباح في علم المعاني والبيان والبديع - ط ١ المكتبة الخيرية - إدارة السيد محمد عمر الخشاب - ص ٨٨.

(٢) الفوائد المشرقة إلى علوم القرآن - تحقيق لجنة تحقيق التراث - دار مكتبة الهلال - بيروت - ص ٢٠٦.

(٣) الإتقان في علوم القرآن - ط دار المعرفة بيروت، ج ٢ - ص ١٢٢.

وينظر شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان - ط مطبعة مصطفى البياني الحلبي - سنة ١٩٣٩م - ص ١٠٧.

(٤) طاش كبرى زادة - شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان - ص ٢٧٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للمقابلة الذي يركّز على قضية الضدية[١] ولعلّ ممّا يشين هذه الآراء هو اشتراط الموافقة في المقابلة، وهي ضد المخالفة أو التضاد، أي تقابل المعاني ونظائرها[٢] ولم يذكر بعضهم شرط الموافقة، في حين تفطّن البعض الآخر إلى أنّ المقابلة أكثر ما تجيء في الأضداد[٣] وشرط الموافقة هذا قد يدخل المقابلة في باب بلاغي آخر هو "الموازنة".

ولعلّ مما يشين هذه الآراء أيضاً هو دراسة المقابلة ضمن نطاق ضيق هو علم البديع، وإن كان بعضهم قد درسها ضمن علم المعاني، وهو الأليق بها لوجود العلاقة الكبيرة بين المقابلة أو التضاد والقيَم المعنوية والفكرية للنّص، ولذلك تسعى المقابلة إلى أغراض أخرى كثيرة أبعد من الغرض الذي وضع لها وهو تحسين المعنى، فالقدماء بصفة عامة لم يربطوا بين التضاد في الدلالة والحركة التي يموج بها التركيب أو النّص نتيجة لاحتكاك هذه المتضادات[٤].

والمقابلة محسن بديعي في مذهب أغلب القدماء، وتدخل في المحسنات المعنوية للكلام، وتناولها دارسو الاعجاز في بدائع القرآن الكريم، غير أنّ المتأمل في دلالاتها واستخداماتها الكثيرة يرى أنّ لها أغراضاً أبعد من ذلك، فهي فن بلاغي، وطريقة في أداء المعنى لها آثارها وقيَمها البعيدة، كما أنها تساهم في إبراز المعنى بما فيها من ثنائية وتضاد .

هذا من حيث الدلالة أمّا من حيث الاستخدام فقد لوحظ أن الأدب العربي بشِعره ونثره قد تميّز بها، وبخاصة الشعر الجاهلي الذي أجريت حوله دراسة إحصائية قام بها الدكتور عبدالله الطيّب وتبيّن من خلالها أنّ وجود الطباق والمقابلة كثير في هذا الشعر[٥]، أما قول أولئك الذين يزعمون القلّة والانحصار فمردود، أمّا وجود المقابلة في القرآن الكريم فيكاد يشكل ظاهرة واسعة كظاهرة التصوير، وقد لا نحتاج أبداً إلى الإحصاء كي نثبت ذلك، بل إن مجرد قراءة عادية في النصوص القرآنية تجعلنا نقف أمام هذا الأسلوب الواضح والفريد، وهذا ما سيتبيّن في الفصول القادمة.

---

(١) إ. ج : كراتشكوفسكي - علم البديع والبلاغة عند العرب - ط ١ - دار الحكمة للنشر: بيروت ١٩٨١م - ص ٤٣.

(٢) عبدالله الطيّب - المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها - ج ٢ - ص ٦٧٠.

(٣) ابن رشيق القيرواني - العمدة - ج ٢ - ص ١٥.

(٤) سعد أبوالرضا - في البنية والدلالة - ط نشأة المعارف بالاسكندرية - ص ٣٧.

(٥) عبدالله الطيّب - المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها - ج ٢ - ص ٦٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢ - المقابلة عند الحكماء وعلماء الكلام :

درس الحكماء والفلاسفة، وعلماء الكلام والجدل المقابلة وتناولوها بالبحث لارتباطها الوثيق بالوجود الإنساني، فعلاقة الخالق مع الأضداد التي خلقها، وعلاقة هذه الأضداد مع بعضها ومع غيرها هي قضايا كثيراً ما وقف عندها العقل الإنساني محاولاً النظر والتفسير.

ويعد أرسطو من أوائل الفلاسفة الذين خصّوا المقابلة بالبحث والتفسير، وقد تناولها في كتاب "المقولات"، وأشار إليها في كتابه "فن الشعر"، وهي عنده أربعة أصناف(١).

المضافان، والمتضادان، والعدم والملكة، والموجبة والسالبة. فمثال المضاف الضعف والنصف، ومثال المتضادين الخير والشر، ومثال العدم والملكة العمى والبصر، ومثال الموجبة والسالبة قولك زيد جالس، زيد ليس بجالس.

وفرّق أرسطو بين هذه المتقابلات تفريقاً فلسفياً حدّد فيه خصائص كل نوع، فالمضافان يتميّزان بأن تقال ماهية أحدهما بالقياس إلى صاحبه إمّا بذاته، وإمّا بأي حرف اتفق من حروف النسب - مثل الضعف الذي يقال بالقياس إلى النصف، وأما المتضادان فليس تقال ماهية أحدهما بالقياس إلى الثاني بل إنّما يقال إن ماهية أحدهما تضاد ماهية الثاني، فإنّه ليس يقال إنّ الخير خير للشر بل مضاد له؛ وأمّا العدم والملكة فإنّما يوجدان في شيء واحد بعينه مثال ذلك البصر والعمى إنّما يوجدان في العين، وأما الموجبة والسالبة فتختصان من بين سائرها أنّه يجب ضرورة أن يكون أحدهما صادقاً والآخر كاذباً(٢).

والفن الشعري عند أرسطو هو محاكاة الضدية التي تظهر في الفضيلة والرذيلة(٣) والشعر في تقسيمه هو محاكاة للأفاضل ومحاكاة للأشرار، وهو مما عُبّر عنه عند العرب بالمديح والهجاء(٤).

---

(١) ابن رشد - تلخيص كتاب المقولات - تحقيق محمود قاسم - ط دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد، ١٩٩١ - ص ١٣٦.

(٢) المصدر نفسه - ص ١٣٦ - ١٤٣.

(٣) أرسطو - فن الشعر - تحقيق شكري عياد - ط دار الكتاب العربي للطباعة والنشر سنة ١٩٦٧م - ص ٥٢.

(٤) المصدر نفسه - ص ٢٣٣، ٢٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعند هذا التقابل في الحياة يقول أرسطو: «الشرّ ضرورة مضاد للخير، وذلك باستقراء جزئيات الشرّ والخير، فإنّ الصحة تضاد المرض، والجود يضاد البخل، والجبن يضاد الشجاعة، وكذلك في سائرها»(١).

وتحدّث أرسطو عن خصائص التضاد فقال: «أولاً كل متضادين من شأنهما أن يكونا في موضوع واحد مثل الصحة والمرض الموجودين في جسم الحي، والبياض والسواد الموجودين في الجسم على الإطلاق، والعدل والجود الموجودين في نفس الإنسان، وثانياً كل متضادين فإمّا أن يكونا في جنس واحد بعينه - مثل الأبيض والأسود اللّذين جنسهما القريب اللون، وإما أن يكونا في جنسين متضادين، مثل العدل والجور، فإنّ جنس العدل الفضيلة، وجنس الجور الرذيلة، وهما متضادان، وإمّا أن يكونا هما بأنفسهما جنسين متضادين ليس فوقهما جنس - مثل الخير والشر - أي إذا كان أحدهما في مقولة والآخر في مقولة أخرى، لأنها متى كانا في مقولة واحدة كانت المقولة جنساً لهما»(٢).

والمقابلة عند الحكماء هي : امتناع اجتماع شيئين في موضوع واحد من جهة واحدة، ويسمى بالتقابل أيضاً(٣)، والشيئان يسميان بالمتقابلين كالجهل والعلم، والمحاسن والمعايب(٤).

وقالت المعتزلة: «الضدان معنيان يستحيل اجتماعهما لذاتيهما في الجملة سواء كانا في محل واحد أو في محلين»(٥). وقالوا العلم بالشيء كالسواد مثلاً إذا قام بجزء في القلب فإنّه يضاد الجهل بذلك الشيء بجزء آخر من القلب(٦).

وهذا بحث فلسفي صرف وإن تعلّق بالله تعالى وصفاته وبالتضاد الناشيء عن المتقابلات الكثيرة في هذا الوجود الإنساني، ولا نريد أن نفصل في هذه المفاهيم التي قد

---

(١) ابن رشد - تلخيص كتاب المقولات - ص ١٤٣.

(٢) المصدر نفسه - ص ١٤٤، ١٤٥.

(٣) محمد أعلى التهانوي - كشاف اصطلاحات الفنون - ط خياط: بيروت - ج ٥ - ص ١٢٠٦.

(٤) لويس شيخو - علم الأدب - ط مطبعة الآباء اليسوعيين: بيروت، ١٨٩٠ - ج ١ - ص ٢٧، ٢٨.

(٥) كشاف اصطلاحات الفنون - ج ٤ - ص ٨٧٥.

(٦) نفسه - ج ٤ - ص ٨٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تخرجنا عن جادة الموضوع.

ويعرّف ابن حزم الظاهري (- ٤٥٦ هـ) التضاد قائلاً: «هو اقتسام الشيئين طرفي البعد تحت جنس واحد، فإذا وقع أحد الضدين ارتفع الآخر»[١].

وجاء هذا القول في معرض الردّ على الفلاسفة الذين وصفوا الله تعالى بأنّه ضد لخلقه، فرد عليهم بأنّ هذا الوصف بعيد عن الباري تعالى، وإنّما التضاد كالخضرة والبياض اللذين يجمعهما اللون، أو الفضيلة والرذيلة اللتين تجمعهما الكيفية والخُلُق[٢].

وابن حزم هنا ينبّه إلى شرط الاشتراك في الجنس لتحقيق التضاد، والله سبحانه مختلف عن خلقه في الجنس والكيفية، فكيف يكون ضداً لهم.

وبهذا المعنى ردّ ابن تيمية (- ٧٢٨ هـ) على المتفلسفة فقال: «الفصل الثاني في وحدانية واجب الوجود وأنّه لا ضد له ولا ند، وأنّه قديم أزلي»[٣].

وفي معرض ردّ ابن تيمية على الفلاسفة تحدّث عن المقابلة فقال: «المتقابلان إمّا أن يختلفا بالسلب والايجاب، وإمّا أن لا يختلفا بذلك، بل يكونان إيجابيين أو سلبيين، فالأول هو النقيضان، والثاني: إمّا أن يمكن خلو المحل عنهما، وإما أن لا يمكن، والأول هما الضدان كالسواد والبياض، والثاني في معنى النقيضين وإن كانا ثبوتيين، كالوجوب والامكان، والحدوث والقدم، والقيام بالنفس والقيام بالغير، والمباينة والمجانبة ونحو ذلك، ومعلوم أنّ الحياة والموت، والصمّ والبكم والسمع، ليس ممّا إذا خلا الموصوف عنهما وصف بوصف ثالث بينهما كالحمرة بين السواد والبياض، فعلم أنّ الموصوف لا يخلو عن أحدهما، فإذا انتفى أحدهما تعيّن الآخر»[٤]. والفلاسفة في حديثهم عن العدم والملكة وصفوا الله تعالى بالنقص، وسلبوا من صفات الكمال فردّ عليهم بقوله: «إنّ المتفلسفة اصطلحوا على تقسيم "المتقابلين

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل - تحقيق محمد ابراهيم نصر، وعبدالرحمن عميرة - ط دار الجليل: بيروت، ١٩٨٥م - ج ١ - ص ٥٢.

(٢) المصدر نفسه - ج ١ - ص ٥٢.

(٣) درء تعارض العقل والنقل - تحقيق محمد رشاد سالم - ط دار الكنوز الأدبية - ج ٥ - ص ١٠٩.

(٤) الفتاوى - ج ٣ - ص ٨٨، ٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالنفي والإثبات" إلى النقيضين، وإلى ما يسمونه "العدم والملكة"، فالعدم عندهم سلب الشيء عما من شأنه أن يكون متصفاً به كالعمى والخرس، فإنّه عدم البصر والكلام عمّا من شأنه أن يكون بصيراً متكلماً، فأما الجماد فلا يسمونه لا بهذا ولا بهذا.

وشبهتهم لبست على طائفة من أهل النظر، فظنوا أنّه إذا لم يوصف بصفات الكمال من الحياة والعلم والسمع والبصر والكلام لم يلزم أن يتصف بصفات النقص لأنّهما متقابلان تقابل "العدم" و"الملكة" لا تقابل النقيضين»[١].

وخَلُص ابن تيمية إلى القول بأنّ الطرق التي يسلكها الأئمة ومن اتبعهم من نظار السنة في هذا الباب: أنّه لو لم يكن موصوفاً بإحدى الصفتين المتقابلتين للزم اتصافه بالأخرى، فلو لم يوصف بالحياة لوصف بالموت، ولو لم يوصف بالقدرة لوصف بالعجز، ولو لم يوصف بالسمع والبصر والكلام لوصف بالصمم والخرس والبكم. وطرد ذلك أنّه لو لم يوصف بأنّه مباين للعالم لكان داخلاً فيه، فسلب إحدى الصفتين المتقابلتين عنه يستلزم ثبوت الأخرى، وتلك صفة نقص ينزّه عنها الكامل من المخلوقات، فتنزيه الخالق منها أولى[٢].

وانتهى إلى وصف الفلاسفة بأنهم مخالفون لصريح المعقول كما أنّهم مخالفون لصحيح المنقول[٣].

وبعد الحديث عن بعض مفاهيم المقابلة عند عدد من الفلاسفة وعلماء الإسلام، وهو بحث قد يطول لعمق الموضوع وسعته، لابدّ لنا أن نقف عند آية من القرآن الكريم فيها حديث عن التضاد، ثم نعرج على أقوال بعض المفسّرين فيها، وقد لجأنا إلى هذا المنهج لاقتناعنا بأنّ القرآن الكريم جاء في أصول الدين وفروعه - في الدلائل والمسائل - بأكمل المناهج كما قال ابن تيمية (- ٧٢٨ هـ) رحمه الله[٤].

---

(١) المصدر نفسه - ج ١٢ - ص ٣٥٦، ٣٥٧.

(٢) الفتاوى - ج ٣ - ص ٨٨، ٨٩.

(٣) منهاج السنة النبوية - تحقيق محمد رشاد سالم - ط ٢ مكتبة ابن تيمية: القاهرة، ١٩٨٩ - ج ١ - ص ٣٦٤، ٣٦٥.

(٤) الفتاوى - ج ٢ - ص ٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال تعالى: ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُوْنَ ﴾[١].

ففي الآية حديث عن خلق الأشياء وفق قانون الزوجية ثم ذكر الغاية من هذا الخلق وهي التذكّر، والمقصود بالزوجية التقابل بين الضدين كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين، ومنهم الفخر الرازي (- ٦٠٦ هـ) الذي يقول في تفسيره: «الزوجان إمّا الضدان، فإن الذكر والأنثى كالضدين، والزوجان منهما كذلك، وإمّا المتشاكلان، فإنّ كلّ شيء له شبيه ونظير، وضد وند، قال المنطقيون المراد بالشيء الجنس، وأقل ما يكون تحت الجنس نوعان، فمن كل جنس خلق نوعين من الجوهر مثلاً: المادي والمجرد، ومن المادي النامي والجامد، ومن النامي المُدرك والنبات، ومن المدرك الناطق والصامت، وكل ذلك يدلّ على أنّه فرد لا كثرة فيه، وقوله "لعلكم تذكرون" أي لعلّكم تذكرون أنّ خالق الأزواج لا يكون له زوج، وإلاّ لكان ممكناً فيكون مخلوقاً ولا يكون خالقاً»[٢].

وذكر الزمخشري أنّ المراد بالزوجين السماء والأرض والليل والنهار والشمس والقمر، والبر والبحر، والموت والحياة، وعدّد أشياء وقال: كل اثنين منها زوج والله تعالى فرد لا مثل له[٣].

وجاء في تفسير أبي السعود (- ٩٥١ هـ) أنّ المراد بالشيء في الآية الجنس والزوجين النوعين الذكر والأنثى، وقيل المتقابلين السماء والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والبر والبحر ونحو ذلك[٤].

فالآية إذن تقرر قاعدة الزوجية في الخلق، وهو ما يُعبّر عنه التقابل والتضاد، وهذا ظاهر في الأحياء، لكن كلمة شيء تشمل غير الأحياء أيضاً[٥] وهذا ما تفسره الآية الأخرى وهي قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾[٦].

(١) سورة الذاريات / الآية ٤٩.
(٢) تفسير الفخر الرازي - ج ٢٨ - ص ٢٢٧.
(٣) الكشاف - ج ٤ - ص ٤٠٤.
(٤) تفسير أبي السعود - ط دار احياء التراث العربي: بيروت - ج ٧ - ص ١٤٣.
(٥) في ظلال القرآن - سيد قطب - ج ٦ - ص ٣٣٨٥.
(٦) سورة النجم / الآية ٤٢ - ٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣ - المقابلة عند المحدثين :

تركز المفهومات الحديثة للمقابلة على قضية التضاد القائم بين المعاني، ولذلك ينتفي الفرق بين الطباق والمقابلة من حيث الدلالة والغاية والأسلوب.

فالمقابلة (Antithesis) في الاصطلاح الحديث هي أسلوب أو طريقة في التعبير تقوم على مبدأ إقامة ضدية بين فكرتين أو تعبيرين أو كلمتين بمعنيين متقابلين أو متضادين[١]. فهي إذن تضاد أو تقابل بين الأفكار[٢].

فالملاحَظ أنّ هذا المفهوم الحديث يلتقي مع المفهومات القديمة للطباق والمقابلة التي تشترط فكرة تقابل الأضداد، وتشترط شروطاً أخرى كشرط الموافقة، والتقابل التام بين صدر الجملة وعجزها، أمّا الاصطلاح الحديث فيركز على فكرة التضاد في الجملة دون إقامة شروط.

ويرى المستشرق الروسي "كراتشكوفسكي" أنّ مفهوم الطباق قديماً قد اكتسب مفهوماً جديداً في العصر الحديث هو "المقابلة" أو تقارب الأضداد[٣].

وهذا الرأي يحتاج إلى إعادة نظر لأنّ فكرة التضاد، وعلاقة الطباق بالمقابلة هي من مذاهب القدماء، وليس هناك تطور قد حصل بالفعل على مصطلح "الطباق" ليصبح "مقابلة" بل الأمر راجع إلى أنّ المحدثين لا يفرقون بين الطباق والمقابلة كما هو الحال عند بعض القدماء.

وذهب الشيخ "محمد أبوزهرة" إلى أنّ المقابلة طريقة في الاستدلال بخاصة في القرآن الكريم، بل عدّها من ينابيع الاستدلال في القرآن، لأنّ المقابلة - في رأيه - بين شيئين أو أمرين أو شخصين تكون ليعرف أيّهما المؤثر في عمل معين، وإذا ثبت أنّ التأثير لواحد منهما كان له فضل التقدم على غيره، وكانت المقابلة في القرآن بين الذات العلية وبين ما ابتدعوا من عبادة الأوثان ينبوعاً للاستدلال على بطلان ما زعموا[٤].

---

(١) ينظر : Grand Larousse encyclopedique - Tome 1 - Libraire Larousse - Paris 1960

(٢) وينظر : The Oxford English Dictionary. V1 (A.B)
Pr. in Great Britain at the University Press - Oxford 1961.

(٣) ينظر : إ. ج. كراتشوفسكي - علم البديع والبلاغة عند العرب - ص ٤٣.

(٤) محمد أبوزهرة - المعجزة الكبرى القرآن - ط دار الفكر العربي - ص ٣٥٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

و "أبوزهرة" يتحدث هنا عن المقابلة في إطارها العام، وعمّا تساهم به من قيم فكرية، وأهداف تربوية في النصّ القرآني، وهو حديث يبرز مبدأ القيمة المعنوية التي يسعى إليها الأسلوب التقابلي، وأهميتها في توصيل المعنى بأبعاده المختلفة.

ويرى "لويس شيخو" أنّ المقابلة هي أن يؤتى بمتعدد من المتوافقات ثم يؤتى بما يطابقه على الترتيب(١) وفرّق بين الطباق والمقابلة(٢).

ولويس شيخو كما هو ملاحظ متأثر بمذاهب القدماء تأثراً واضحاً، غير أنّه يضيف إلى هذا أنّ للمقابلة دوراً هاماً في عملية الإقناع، فعملها رحب الفناء، لأنّ الشيء إذا عرض على نقيضه يزيده جلاءً وبياناً، قال الشاعر :

ضدان لما استجمعا حسنا والضد يظهر حسنه الضد(٣)

والمقابلة عند المحدثين طباق متعدد، فما يقصد من الطباق يقصد من المقابلة(٤) وتسمى أيضاً "التضاد" كما يرى المستشرق الروسي "كراتشكوفسكي" وهي اللفظة الأكثر قبولاً وواقعية في رأيه(٥).

ولفظة "التضاد" هذه لفظة معروفة في القديم، فقد رأينا أنّ بعضاً من قدماء الدارسين للبلاغة العربية قد سمّى المقابلة والطباق "تضاد". ولذلك فإنّه من الأنسب أن نسمي هذا النوع البلاغي "مقابلة" أو "تضاد" ونجنّب أنفسنا كثرة التقسيم في موضوعات البلاغة العربية.

وأخيراً يستنتج من هذه الآراء أنّ المقابلة هي إقامة تضاد بين الألفاظ والمعاني والأفكار لغايات بلاغية، وقِيَم معنوية.

---

(١) علم الأدب - ج ١ - ص ١٧٢.

(٢) نفسه - ج ١ - ص ١٧٣.

(٣) نفسه - ج ١ - ص ٢٧، ٢٨.

(٤) ينظر محمد بركات أبوعلي - البلاغة العربية في ضوء منهج متكامل - ط ١ دار البشير: عمان، ١٩٩٢ - ص ٦٨.
وينظر محمد علي سلطاني - البلاغة في فنونها - ط مطبعة زيد بن ثابت ١٩٨٠ - ص ٢٥٠.

(٥) علم البديع والبلاغة عند العرب - ص ٤٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جـ - أنواع المقابلة :

للمقابلة تقسيمات عديدة عند النقاد والبلاغيين قديماً لعلّ أشهرها تقسيمها على أساس عدد الأضداد في صدر الجملة وعجزها، وتقسيمها على أساس اللفظ والمعنى.

فمن حيث العدد قُسمت إلى[١] أولاً: مقابلة اثنين باثنين، كقوله تعالى: **﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وليَبْكُوا كَثِيراً﴾**[٢] وقول النبي - صلّى الله عليه وسلم -: «إِنَّ الرفْقَ لاَ يَكُون في شيء إلاّ زانه ولا ينزعُ من شيء إلاّ شانه»[٣].

ثانياً : مقابلة ثلاثة بثلاثة، كقوله تعالى: **﴿ ويُحِلُّ لَهُم الطيِّبَاتِ ويُحَرِّمُ عَلَيْهِم الخَبَائث ﴾**[٤] وقول الشاعر :

ما أحسنَ الدينَ والدنيا إذا اجْتَمَعَا وأَقْبَح الكُفْرَ والأفْلاسِ بالرَّجُلِ

وقول المتنبي :

فلا الجودُ يُفني المالَ والجدُّ مُقْبلٌ ولا البخلُ يُبْقي المالَ والجَدُّ مُدْبِرٌ

ثالثاً : مقابلة أربعة بأربعة، كقوله تعالى : **﴿ فَأَمَّا مَن أعْطَى واتَّقَى وصَدَّقَ بِالحُسْنَى فَسَنُيَسِرُه لِليُسْرَى وأَمَّا مَنْ بَخِلَ واسْتَغْنَى وكَذَّبَ بِالحُسْنَى فَسَنُيَسِرُهُ للعُسْرَى ﴾**[٥].

رابعاً : مقابلة خمسة بخمسة : كقول المتنبي :

أَزُورُهم وسواد الليل يشفعُ لي وأنثني وبَيَاضُ الصُبْح يُغْرِي بِي

وقال ابن سنان الخفاجي (- ٤٦٦ هـ) : «هذا البيت مع بعده عن التكلّف كل لفظة من ألفاظه مقابلة بلفظة هي لها من طريق المعنى بمنزلة الضد، فأزورهم وأنثني، وسواد وبياض،

(١) ينظر الايضاح للقزويني - ص ٤٨٥ - ٤٨٧.

(٢) سورة التوبة / الآية ٨٢.

(٣) رواه مسلم في باب البر - ج ٤ - ص ٢٠٠٤ - تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي - ط دار الحديث: القاهرة.

(٤) سورة الأعراف / الآية ١٥٧.

(٥) سورة الليل / الآية ٥ - ١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والليل والصبح، ويشفع ويغري، ولي وبي»[١].

خامساً : مقابلة ستة بستة، مثل قول الشاعر :

على رأس عبد تاجُ عزّ يَزينه وفي رجل حُرّ قيدُ ذُلّ يَشِينُه

قال الصفدي: «هذا أبلغ ما يمكن أن ينظم في هذا المعنى، فإن أكثر مما عدّ الناس في باب المقابلة بيت أبي الطيّب لأنّه قابل فيه بين خمسة وهذا قابل فيه بين ستة»[٢].

هذه أقسام المقابلة المعروفة، وقسّمها ابن قيم الجوزية (- ٧٥١ هـ) إلى قسمين: مقابلة لفظية ومقابلة معنوية[٣] وقسّمها بدرالدين الزركشي (- ٧٩٤ هـ) إلى ثلاثة: نظيري، ونقيظي، وخلافي[٤].

ومن أحسن التقسيمات ما نجده عند العلوي (٧٤٩ - هـ) في كتابه "الطراز" حيث قسّمها إلى أربعة أضرب[٥].

الضرب الأول في مقابلة الشيء بضده من جهة لفظه ومعناه، ومثاله قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللّه يَأْمُرُ بالعَدْلِ وَالاحْسَانِ وإِيتَاءِ ذِي القُرْبَى وَيَنْهَى عن الفَحْشَاءِ والْمُنْكَرِ والبَغْيِ** ﴾[٦] فانظر إلى هذا التقابل العجيب في هذه الآية ما أحسن تأليفه وأعجب تصريفه، فلقد جُمِع فيه بين مقابلات ثلاث، الأولى منها مأمور بها والثلاث التوابع منهي عنها، ثم هي فيما بينها متقابلة أيضاً.

الضرب الثاني في مقابلة الشيء بضده من جهة معناه دون لفظه ومثاله قوله تعالى : ﴿ **فَمَنْ يُرِدِ اللّه أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ ومن يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ**

---

(١) سرّ الفصاحة - ص ٢٠١.

(٢) علي بن معصوم المدني (- ١١٤٠ هـ) - أنوار الربيع - تحقيق شاكر هادي شاكر - ط ١ - مطبعة النعمان، ١٩٦٨م - ج ١ - ص ٣٠٤.

(٣) الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن - ص ٢٠٧.

(٤) البرهان في علوم القرآن - ج ٣ - ص ٤٥٨ - ٤٦٠.

(٥) الطراز - ج ٢ - ص ٣٧٨ - ٣٨٨.

(٦) سورة النحل / الآية ٩٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً ﴾[١] فقوله يهدي ويضل من باب الطباق اللفظي، وقوله يشرح صدره مع قوله يجعل صدره ضيّقاً حَرَجاً من الطباق المعنوي، لأنّ المعنى بقوله يشرح يوسعه بالإيمان، ويفسحه بالنور حتى يطابق قوله ضيّقاً حرجاً.

الضرب الثالث في مقابلة الشيء بما يخالفه من غير مضادة، وذلك يأتي على وجهين، الوجه الأول منهما أن يكون أحدهما مخالفاً للآخر، خلا أن بينهما مناسبة، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿ إِنْ تُصِبْك حَسَنَة تَسُؤْهُم وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَة يَفْرَحُوا بِهَا ﴾[٢]، فالمصيبة مخالفة للحسنة من غير مضادة، إلاّ أنّ المصيبة لا تقارب الحسنة، وإنّما تقارب السيئة، لأنّ كلّ مصيبة سيئة، وليس كل سيئة مصيبة، فالتقارب بينهما من جهة العموم والخصوص، وهكذا قوله تعالى: ﴿ أَشِدَّاءُ على الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُم ﴾[٣] فالرحمة ليست ضداً للشدة، وإنّما ضد الشدّةِ اللّين، خلا أنّه لمّا كانت الرحمة من مسببات اللّين، حسنت المطابقة بينهما، وكانت المقابلة لائقة.

الضرب الرابع المقابلة للشيء بما يماثله، وذلك يكون على وجهين: الوجه الأول منهما مقابلة المفرد بالمفرد، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وجَزَاءُ سيئةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿ والّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَات جَزَاءُ سَيِئةٍ بِمِثْلِهَا ﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الاحْسَانِ إلاّ الاحسانُ ﴾[٦] وقوله تعالى: ﴿ من كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُه ﴾[٧] وغير ذلك من الأمور المفردة، فضابط المماثلة أنّ كل كلام كان مفتقراً إلى الجواب، فإنّ جوابه يكون مماثلاً كما قررناه.

الوجه الثاني مقابلة الجملة بالجملة، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا ومَكَرَ اللّه واللّه

---

(١) سورة الأنعام / الآية ١٢٥.

(٢) سورة التوبة / الآية ٥٠.

(٣) سورة الفتح / الآية ٢٩.

(٤) سورة الشورى / الآية ٤٠.

(٥) سورة يونس / الآية ٢٧.

(٦) سورة الرحمن / الآية ٦٠.

(٧) سورة الروم / الآية ٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

﴿ خَيْرُ الماكِرِينَ ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فإنّما أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي ﴾[٢]. والجمل الشرطية مترددة بين عدّها في باب المفرد والجملة، فإن عدت في المفردات فلأنّها وإن كانت جملاً لكنّها قد نقصت عن الاستقلال بعقد حرف الشرط لها عقداً واحداً، وإن عدّت في الجملة فلأنّ الظاهر من الشرط والجزاء جملتان فلمّا كان الأمر كما قلناه جاز فيها الوجهان.

ولعلّ هذا التقسيم أقرب شيء إلى التقسيمات الحديثة التي تجعل المقابلة قسمين، قسم فيه تضاد حقيقي بين الكلمات أو الجمل، وقسم آخر ليس فيه تضاد حقيقي وإنّما تقابل بين الكلمات أو الجمل المتماثلة أو شبه تضاد[٣].

وأخيراً تحدث ابن وهب الكاتب (من علماء القرن الرابع الهجري) عن خصائص الشعر الجيّد فعدّ منها صحة المقابلة فقال: «والذي يسمّى به الشعر فائقاً، ويكون إذا اجتمع فيه مستحسناً رائعاً صحة المقابلة، وحسن النظم، وجزالة اللفظ، واعتدال الوزن، وإصابة التشبيه، وجودة التفصيل وقلة التكلّف، والمشاكلة في المطابقة، وأضداد هذه كلّها معيبة تَمُجّها الآذان»[٤].

---

(١) سورة آل عمران / الآية ٥٤.

(٢) سورة سبأ / الآية ٥٠.

(٣) ينظر فصولٌ من البلاغة والنقد الأدبي - تأليف جماعة من الكتّاب - فصل خاص بعنوان "ألوان من البديع ومحايير جودتها" - د. عزالدين الجودي - ص ١٧٩ - ١٨٢ - ط ١ - مطبعة الفلاح: الكويت، ١٩٨٣م.

(٤) البرهان في وجوه البيان - تحقيق حفني محمد شرف - ط مكتبة الشباب: القاهرة - ص ١٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني :

المقابلة والقضية الكبرى في القرآن : الوحدانية وتعدد الآلهة :

أ – الوحدانية وطريقة عرضها في القرآن الكريم.

ب- المقابلة الكبرى : الله والطاغوت.

جـ- ظاهرة التقابل في سورة " التوبة ".

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ - الوحدانية وطريقة عرضها في القرآن الكريم :

١ - التوحيد قضية القرآن المركزية :

إنّ القرآن الكريم هو مصدر الإسلام الأول، وهو البلاغ المبين الذي أوصله الرسول -صلّى الله عليه وسلم- إلى النّاس أجمعين، وهو الكتاب الذي يُعزى إليه الدور الكبير والضخم في بناء أعظم الحضارات الإنسانية، وهي الحضارة الإسلامية التي تميّزت على المستويين الديني والدنيوي، وتركت بصماتها المضيئة في التاريخ الإنساني، وقدّ قررت الدراسات والأبحاث قديماً وحديثاً أنّ دور القرآن هذا يعود إلى عوامل وخصائص كثيرة من بينها أنّ القرآن الكريم ربانيّ المصدر، وهي خاصية تدرك بالفطرة السليمة، وتدرك بالنظر والتأمل، وهي من البديهيات عند ذوي العقول السليمة.

والاطمئنان إلى هذا المصدر الإلهي له عدّة خصائص أهمّها: المعرفة التامة بالنفس البشرية وطبائعها وحاجاتها، وما ينفعها وما يضرها، وما يحقّق لها السعادة أو ما يجرها إلى الشقاء، ومثل هذه المعرفة لا يملكها إلاّ خالق هذه النفس، ومصوّرها ومعلمها {**الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**}(١).

والخاصية الثانية للقرآن تتعلّق بالحقيقة الكبرى التي يقوم عليها الكون والوجود الإنساني كلّه، وهي الحقيقة التي يسعى القرآن إلى بثّها وتثبيتها في النفوس، حقيقة أنّه لا إله إلاّ الله، وأنّه لا معبود بحقّ سواه، وهي الحقيقة التي تشكل التصور الإسلامي عن الله والكون والإنسان.

يقول جوستاف لوبون: «تشتق سهولة الإسلام العظيمة من التوحيد المحض، وفي هذه السهولة سرّ قوّة الإسلام، والإسلام وإدراكه سهل، خال مما نراه في الأديان الأخرى، ويأباه الذوق السليم، غالباً من التناقضات والغوامض، ولا شيء أكثر وضوحاً وأقلّ غموضاً من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد، وبمساواة جميع الناس أمام الله»(٢).

---

(١) سورة الرحمن / الآية ١ - ٤.

(٢) حضارة العرب - ص ١٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالوحدانية بخصائصها ومقوماتها هي المحور الأساسي في القرآن، وهي القضية الكبرى التي عُني بها عناية كبيرة حتّى إنّها أخذت الحيّز الأكبر في آي القرآن، فقد طال في سوره إثبات الوحدانية، ودمغ كل شائبة تنسب الشرك إلى الألوهية، واطّرد حجاج القرآن في هذه القضية حتى عدّها قضيته المصيرية(١).

والوحدانية التي يدعو إليها القرآن الكريم لها مقوماتها الخاصة التي لا نجدها في الأديان السماوية التي تسرّب إليها التحريف، ولابسها الشرك، ولا في الأديان البشرية الوضعية التي طغى عليها الضلال، وكثرت فيها الأهواء، إنّها مقومات تُجرّد التوحيد، وتجعله خالصاً لله وحده، وتنفي عنه الشرك بأنواعه كلّها، ولذلك استبحرت الآيات القرآنية في سرد هذا المعنى، وركّز «المنهج القرآني تركيزاً شديداً على هذه الحقيقة لتعميقها في الضمير البشري، وسلك بها إلى هذا الضمير كل مسالك الكينونة البشرية، واتّبع شتى أساليب الاستجاشة والتأثير، والإبانة والتقرير ليقرّ في النفس البشرية حقيقة العبودية لله وحده بلا شريك، والدينونة لله وحده بلا منازع باعتبار أنّ هذه العبودية، وهذه الدينونة شاملتان للوجود كلّه، غير مقصورتين على الكائن الإنساني»(٢).

إنّ الوحدانية التي حمل لواءها القرآن هي الاعتراف لله وحده بالخلق والأمر، { **ألا لهُ الخلقُ والأمر** }(٣)، والاعتراف له بحق العبادة التي تعني الخضوع التام له فيما أمر ونهى، والعبادة «هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»(٤)، وهذه العبادة هي إحدى المعاني التي ركّز عليها القرآن تركيزاً شديداً حيث إنّها مرتبطة بالألوهية التي لا يملكها إلاّ من له سلطة على كل شيء، قال تعالى {**اللّهُ خالقُ كُلّ شيءٍ وهُوَ عَلَى كُلّ شيءٍ وكيلٌ له مقاليدُ السَّمَواتِ والأرضِ والذينَ كَفَرُوا بآياتِ اللهِ أولئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ قُل أفَغَيرَ اللهِ تَأمُرُونِي أعبدُ أيُّها الجَاهِلُون**}(٥).

---

(١) محمد الغزالي - نظرات في القرآن - ط دار البعث: الجزائر - ص ٧٤.

(٢) سيد قطب - مقومات التصور الإسلامي - ص ٨٢.

(٣) سورة الأعراف / الآية ٥٤.

(٤) ابن تيمية - العبودية - ط دار الكتب العلمية: بغداد - ص ٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال تعالى: { يا أيُّها النّاسُ اعبُدُوا ربّكم الذي خَلَقَكُمْ والذينَ مِنْ قَبْلِكُم لعَلّكُم تَتّقُونَ }[١]، وحقّ العبادة هو غاية الخلق والتكوين { وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلاّ لِيَعْبُدُونِ }[٢].

والوحدانية تعني كذلك الاعتراف لله بحق الحاكمية، قال تعالى: { ألاَ لَهُ الحُكْمُ وَهُوَ أسْرَعُ الحَاسِبِينَ }[٣]، وقال أيضاً: { أفَحُكْمَ الجَاهِلِيةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ }[٤].

وحقُّ الحاكمية هو من أهمّ خصائص الوحدانية[٥] وهو الحقّ الذي يملكه الله تعالى وحده، لأنّ بيده الأمر والسلطة على كلّ شيء، وقد نازعه البشر في هذا الحق جهلاً وظلماً وطغياناً فطالبهم برده إلى الله، قال تعالى: { إن الحُكْمُ إلاّ لِلهِ }[٦].

إنّ قارىء القرآن والمتتبع لآياته يدرك أنّ موضوع هذا الكتاب، وفكرته الأساسية هي أنّ الله هو الرب والإله، وأنّه لا ربّ ولا إله إلاّ هو، فإياه ينبغي أن يعبد الإنسان، وله وحده ينبغي أن يخلص الدين[٧].

إنّ الوحدانية في القرآن الكريم هي تعريف البشر بإلههم الحق تعريفاً عميقاً موحياً يشبع العقل والقلب، فهي حقيقة قائمة على أساس من الحجج الواضحة، والبراهين القاطعة التي يتجلى فيها الحضّ على التفكير والتدبّر، والدعوة إلى النظر والتأمل في ملكوت السماوات والأرض من أجل الاستدلال على ربوبية الله وتأكيد وحدانيته[٨].

---

(٥) سورة الزمر / الآية ٦٢ - ٦٤.

(١) سورة البقرة / الآية ٢١.

(٢) سورة الذاريات / الآية ٥٦.

(٣) سورة الأنعام / الآية ٦٢.

(٤) سورة المائدة / الآية ٥٠.

(٥) سيد قطب - خصائص التصور الإسلامي - ط ٣ الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية: الكويت - ص ٣٢٠.

(٦) سورة الأنعام / الآية ٥٧.

(٧) أبوالأعلى المودودي - المصطلحات الأربعة في القرآن - ص ٧.

(٨) صلاح الدين رسلان - القرآن الحكيم رؤية منهجية جديدة - ط مكتبة نهضة الشرق: القاهرة، ١٩٨٥ - ص ٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واللافت للنظر في عرض القرآن لهذه القضية مسألتان، أولهما: إنّ القرآن الكريم لا يهتم بقضية وجود الله، ولا يجعلها محل نزاع وجدل مع المنكرين والمخالفين، وذلك راجع إلى أنّ المخاطبين لا ينكرون أصلاً وجود الله، وأنّ وجود الله مسألة مغروسة في النفس البشرية «فالواقع أنّه حتى العرب المشركين كانوا يعترفون بوجود إله أعظم، خالق للكون، ومدبّر لشؤونه، ولا يرجع هذا الاعتراف فقط إلى بعض الآثار المحفوظة عندهم من ديانة إبراهيم وإسماعيل، وإنّما توجد نواته في أعماق النفس الإنسانية، ولكن هذا التوحيد الأولي، أو هذه الديانة الفطرية كما يسميها القرآن لم تكن إلاّ فكرة نظرية محجوبة ومغمورة في الواقع تحت معتقدات وعبادات كانت تؤدي إلى عدد لا يحصى من الآلهة»(١).

يقول سيد قطب: «لن نعجب إذا رأينا القرآن الكريم لم يكن يقف أمام قضية الاعتقاد بوجود الله بينما الحديث كلّه عن توحيد الله سبحانه، والتعريف بصفاته الحقّة، ذلك أنّ قضية وجود الله لم تكن ولن تكون قضية جدلية من قضايا العقيدة، فالفطرة حتى في انحرافها وجاهليتها لا تكاد تلم بهذا الخاطر العارض الشاذ الذي انتهى إليه بعض الشاردين من الكنيسة في أوروبا(٢).

فالتركيز في المنهج القرآني ابتداء على "التوحيد" لا على "الوجود"، توحيد الذات الإلهية، فالله سبحانه ذات واحدة لا تتعدد، ولا تتبعض ولا تندمج معها ذوات أخرى، ولا تتلبس بها في صورة من صور الاندماج أو التلبس، هذه الذات متصفة بصفات تتفرد بها كذلك، فلا يشاركها فيها أحد، ومن وحدانية الذات وتفردها بهذه الصفات تتضح وحدانية الفاعلية والتأثير في الكون وما فيه ومن فيه»(٣).

ثانيهما: إنّ فكرة الوحدانية عرضت في التاريخ البشري كلّه منذ أن وجد الإنسان على ظهر هذه الأرض، وأنّها لم تعرض في القرآن الكريم لأول مرة بل هي دعوة متكررة كلّما كثر الانحراف والفساد والتعدي على منهج الرسل والأنبياء. فالقرآن الكريم يؤسس دعوته إلى التوحيد على تاريخ الأنبياء في كلّ الأزمنة السابقة، ومن هنا يتجلى لنا بوضوح أنّ العقل

(١) محمد عبدالله دراز - مدخل إلى القرآن الكريم - ط دار القلم: الكويت - ص ٧٤، ٧٥.
(٢) مقومات التصور الإسلامي - ص ١٠٩.
(٣) نفسه - ص ٢٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والنقل يشاركان القرآن في إثبات الوحدانية لله، ورفض الوثنية والشرك على اختلاف أنواعهما[١].

يقول ابن تيمية (- ٧٢٨ هـ) - رحمه الله - [٢] : التوحيد هو أصل الدين الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين ديناً غيره، وبه أرسل الرسل وأنزل الكتب كما قال تعالى: {واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون}[٣] وقال تعالى: { ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة }[٤].

فالوحدانية التي هي أصل الشرائع الإلهية، وهي التعريف بالله ومنهجه، وبحقوقه على العباد، قد أخذت الحيّز الأكبر من اهتمام القرآن، أما مسألة وجود الله فلا تأخذ الاهتمام نفسه لكونها من البداهات التي يدركها الإنسان بفطرته، ويهتدي إليها بطبيعته، وليست من المسائل المعقدة، ولا من حقائق الفكر العويصة[٥].

٢ - لماذا التركيز على الوحدانية في القرآن ؟

لقد كان لشيخ الإسلام ابن تيمية (- ٧٢٨ هـ) نظرات قيّمة حول هذا الموضوع، فقد ذكر أولاً أنّ الوحدانية هي أصل الدين الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين ديناً غيره[٦]، وذكر ثانياً أنّ الإنسان خُلق محتاجاً إلى جلب ما ينفعه، ودفع ما يضره، ونفسه مريدة دائماً، ولابدّ لها من مراد يكون غاية مطلوبها لتسكن إليه وتطمئن به، وليس ذلك إلاّ لله وحده، فلا تطمئن القلوب إلاّ به، ولا تسكن إلاّ إليه، و {لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا}[٧]

---

(١) ينظر - محمد عبدالله دراز - مدخل إلى القرآن الكريم - ص ٧٧.
(٢) الفتاوى - ج ١ - ص ٣٧.
(٣) سورة الزخرف / الآية ٤٥.
(٤) سورة النحل / الآية ٣٦.
(٥) محمد الغزالي - عقيدة المسلم - ص ١٢.
(٦) الفتاوى - ج ١ - ص ٣٧.
(٧) سورة الأنبياء / الآية ٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فكل مألوه سواه يحصل به الفساد ، ولا يحصل صلاح القلوب إلاّ بعبادة الله وحده لا شريك له[١] .

وهذا المعنى مستفاد من قوله تعالى: { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ التِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ }[٢] ففطرة الله تعالى هي الوحدانية المترسخة في نفوس البشر، وهي الدين القيّم الذي لا عوج فيه[٣] .

وهذا التوحيد المغروس في نفوس البشر ليس كافياً عند الله، بل يجب العمل بمقتضى ما تنبني عليه فكرة الوحدانية.

ويأتي التركيز على قضية الوحدانية في القرآن الكريم لإقامة الحدود الفاصلة بين الحق والباطل في الأرض، إذ تتعارض كل الموازين البشرية، والمقاييس الأرضية في وضع الحدود الفاصلة بين ما هو حق وما هو باطل، والله وحده الذي لا ضد له ولا ند هو الذي سيفصل بين الأضداد والأنداد ، فالوحدانية على هذا الأساس هي المقياس الوحيدَ في معرفة الخطأ والصواب، والخير والشرّ، والفضيلة والرذيلة.

ويسأل سيد قطب السؤال نفسه: «لماذا نالت هذه القضية (الوحدانية) كلّ هذه العناية في كتاب الله الكريم، ولماذا أنفق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كلّ هذا الجهد في تثبيت هذه الحقيقة وتعميقها في ضمائر المسلمين، وفي حياتهم كذلك، لماذا شغلت هذه الحقيقة كلّ هذا الحيّز في القرآن كلّه، ولماذا وردت في معرض "الاعتقاد"، وفي معرض "العبادة"، وفي معرض "الحكم"، في القرآن المكي والمدني سواء؟ ... لقد علم الله -سبحانه- وعلّم رسوله الكريم - صلى الله عليه وسلم - أنّ هذا هو مفرق الطريق بين الصلاح والفساد في الأرض، في ضمائر النّاس، وفي حياتهم، وأنّه لابدّ من وضوح كامل، وبيان حاسم لمفرق الطريق»[٤] .

---

(١) الفتاوى - ج ١ - ص ٥٥.
(٢) سورة الروم / الآية ٣٠.
(٣) الفخر الرازي - تفسير الفخر الرازي - ج ٢٥ - ص ١٢٠.
(٤) مقومات التصور الإسلامي - ص ١٧٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكذلك يأتي التركيز على وحدانية الله في القرآن، وعلى المعاني الحقيقية لكلمة "لا إله إلاّ الله" ومقوماتها وخصائصها لأمر يتعلق بالوجود الإنساني كلّه، وليس مرده إلى إنكار العرب في الجاهلية كما يظنّ البعض، فالأمر يعود إلى أنّ الله اللطيف الخبير يعلم النفس البشرية وطبيعتها، ويعلم كذلك أنّ الوحدانية هي محور ارتكاز الإنسان كلّه، وموجه ألوان نشاطه، وأنّ نوع الحياة التي يحياها الإنسان تتعلّق بتصوره عن الإله والكون والإنسان[١].

فالوحدانية في حقيقتها، وكما يريدها الله تعالى هي التصور الإسلامي الصحيح عن الله والكون والإنسان، وهذا التصوّر يجب أن يترسّخ في ضمير الإنسان لينبثق منه سلوكه ونشاطه وحركته في هذه الحياة، ومن هنا تأتي أهمية هذا الموضوع الذي تنوّع عرضه في القرآن لغايات الإقناع والإمتاع، ولغايات الاستجاشة والتأثير.

وسيبقى عرض القرآن لقضية الوحدانية هو التصحيح السليم للعقائد المنحرفة، والتصورات الباطلة التي عرفتها الإنسانية، ليميز الله الخبيث من الطيّب، والحقّ من الباطل **{هذا بلاغٌ للنّاسِ ولِيُنْذَرُوا بِهِ ولِيَعْلَمُوا أنّما هُوَ إلهٌ واحِدٌ ولِيذّكّرَ أولُوا الألبَابِ}**[٢].

٣ - الوحدانية والفطرة :

إنّ التدين غريزة فطرية في النفس البشرية، وهو حاجة من حاجاتها الضرورية[٣]، فالنفس بحكم تكوينها - وبوعي منها أو بغير وعي - لابدّ أن تكون لها عقيدة، وهذه العقيدة هي التصور الشامل للكون والإنسان وعلاقتهما بالإله، وهي الأساس الذي تنبني عليه حركة الإنسان، ووجوده في الأرض[٤]، فالدين إذن حاجة فطرية كحاجة النفس إلى الطعام والشراب لحفظ الذات، وكحاجتها إلى النسل لحفظ النوع[٥].

---

(١) محمد قطب - دراسات قرآنية - ص ٢٥.
(٢) سورة إبراهيم / الآية ٥٢.
(٣) جعفر السبحاني - معالم التوحيد في القرآن الكريم - ط ٢ دار الأضواء: بيروت، ١٩٨٤ - ص ٤.
(٤) محمد قطب - دراسات قرآنية - ص ٢٥، ٢٦.
(٥) سيد قطب - مقومات التصور الإسلامي - ص ١٠٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والاعتقاد بوجود إله واحد مسيطر على الكون بما فيه هو أصل الفطرة، وهو ما يدعو إليه المنهج القرآني، أما ما يُرى من تعدد في الآراء والمعتقدات فيتعلق بانحراف الفطرة عن جادتها، يقول أحد علماء الغرب: «إنّني إذا سئلت لماذا أنا مؤمن بوجود الله، لا أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال إلاّ بالجواب الذي أجيبه إذا سئلت: لماذا تأكل، ولماذا تشرب؟ ولماذا تنام؟ ذلك لأنّ الجواب عن هذا أنّ الأكل قانون من قوانين وجودي المادي، فلا يمكنني أن أتخلى عن الأكل، ولا عن التنفس.. وهكذا، فشعوري بوجود الله قانون من قوانين وجودي الروحي، وضرورة من ضروراته.. فلا أستطيع أن أتخلى عنه إلاّ إذا تخليت عن مشاعري وإحساساتي الروحية، بل وعن حياتي، فأقوى هذه الإحساسات التي هي أصل الحياة هي أن لي رباً وأنّ لي إلهاً، وأنّي مرتبط بهذا الإله»(١).

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه الفطرة الموحدة في بعض الآيات منها قوله تعالى:

{وإذْ أخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدمَ مِنْ ظُهُورِهِم ذُرِّيَتَهُم وأشْهَدَهُم عَلَى أنْفُسِهِم ألَسْتُ بِرَبِّكُم قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أنْ تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ}(٢).

ومعنى هذه الآية «أن الله سبحانه قد أخذ على البشر عامة ميثاق الفطرة والعقل، إذ استخرج من بني آدم ذريتهم بطناً بعد بطن، فخلقهم على فطرة الإسلام، وأودع في أنفسهم غريزة الإيمان، وجعل من مدارك عقولهم الضرورية أنّ كلّ فعل لابدّ له من فاعل، وكلّ حادث لابدّ له من محدث، وأنّ لكلّ العوالم الممكنة القائمة على سنّة الأسباب والمسببات، والعلل والمعلولات سلطاناً أعلى على جميع الكائنات، هو الأول والآخر، هو المستحق للعبادة»(٣).

وقال ابن قيم الجوزية (- ٧٥١ هـ): «مذهب أهل الحديث وكبراء أهل العلم في هذه الآية أنّ الله أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلاب أولاده، وهم في صور الذر، فأخذ عليهم الميثاق أنّه خالقهم، وأنّهم مصنوعون فاعترفوا بذلك وقبلوا، وذلك بعد أن ركّب فيهم عقولاً عرفوا بها ما عرض عليهم»(٤).

---

(١) حسن البنا - نظرات في القرآن - ط دار الاعتصام : القاهرة - ص ٣٨.

(٢) سورة الأعراف / الآية ١٧٢.

(٣) محمد رشيد رضا - تفسير المنار - ج ٩ - ص ٣٨٧.

(٤) الروح - ط دار الكتب العلمية - بيروت: ١٩٧٩م - ص ١٦٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأضاف ابن القيم أنّ الله سبحانه أخبر أنّ حكمة الإشهاد إقامة الحجّة عليهم لئلا يقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين، والحجّة إنّما قامت عليهم بالرسل والفطرة التي فطروا عليها(١).

فمذهب جمهور علماء السلف هو أنّ أصل الفطرة المترسّبة في أعماق النفس البشرية هو التوحيد والاعتراف بالله رباً وخالقاً، وهذا ما تريد الآيات القرآنية تقريره(٢)، لكنّ بعضاً من علماء الإسلام خالف هذا الرأي، وذهب إلى أن الفطرة الإنسانية قابلة للخير والشرّ في أصل جبلتها، وهذا رأي ابن حزم الظاهري (- ٤٥٦ هـ) حيث قال: «من خلق الله تعالى الإيمان في قلبه ولسانه فهو مؤمن صحيح الإيمان... وكذلك الكفر أيضاً من خلق الله تعالى الكفر في قلبه، أو خلقه على لسانه فهو كافر محض»(٣).

ويرى ابن خلدون (- ٨٠٨ هـ) أنّ الفطرة البشرية قابلة للخير والشرّ، لكنّها إلى الخير أقرب، قال في المقدمة: «لما كان الملك طبيعياً للإنسان، لما فيه من طبيعة الاجتماع كما قلنا، وكان الإنسان أقرب إلى خلال الخير من خلال الشرّ، بأصل فطرته، وقوته الناطقة العاقلة، لأنّ الشرّ إنّما جاء من قبل القوى الحيوانية فيه، وأمّا من حيث هو فهو إلى الخير وخلاله أقرب»(٤).

أما الإمام الغزالي (- ٥٠٥ هـ) فآراؤه متضاربة في تحديد طبيعة الفطرة البشرية، فتارة يرى أنّها صالحة لقبول الخير والشر، قال -رحمه الله- «والقلب بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملك، ولقبول آثار الشيطان صلاحاً متساوياً ليس يترجح أحدهما على الآخر، وإنّما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى والإكباب على الشهوات أو الإعراض عنها ومخالفتها»(٥). وتارة أخرى يرى أنّها مفطورة على الشرّ، وتارة يرى أنّها خيّرة بطبعها، والظاهر أنّ منشأ هذا التضارب عنده هو اختلاف ما يعتري الإنسان من الحالات النفسية التي صوّرتها ظواهر

(١) الروح - ط دار الكتب العلمية: بيروت، ١٩٧٩م - ص ١٦٧.
(٢) ابن الوزير (- ٨٤٠ هـ) - ايثار الحق على الخلق - ط ١ دار الكتب العلمية: بيروت، ١٩٨٣ - ص ٢١.
(٣) رسائل ابن حزم - تحقيق إحسان عباس - ط ١ المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١م - ج ٣ - ص ٢٠١.
(٤) المقدمة - ط دار إحياء التراث العربي: بيروت - ص ١٠٦.
(٥) إحياء علوم الدين - تحقيق سيد إبراهيم - ط ١ دار الحديث: القاهرة، ١٩٩٢م - ج ٣ - ص ٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الآيات[١].

ويرى بعض المفكرين الغربيين أنّ الفطرة البشرية مجبولة على الشرّ، وأنّ من طبيعتها التناقض[٢] وهو رأي لا سند له إلاّ ما قد يرى في الواقع من ظلم وفساد، وهو رأي يخالف النصوص الشرعية في مصدري الإسلام القرآن الكريم، والسنّة النّبوية الشريفة، فقد أكّد القرآن الكريم على أنّ الدين هو الفطرة، وهو الوحدانية، قال تعالى: { **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِينِ حَنِيفاً فطرةَ اللهِ التِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِينُ القَيِّمُ ولكنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ** }[٣].

فقد لازم الله في هذه الآية بين الدين والفطرة على «أنّه عينها - أصلاً وجوهراً ومقتضيات - وقرّر صراحة أيضاً أنّه لا تناقض بينهما، وأنّه "الدين القيم"، فالفطرة قيّمة، وأنّه "لا تبديل لخلق الله" فلا تبديل لشرع الله، مما يوحي أيضاً بأنّه لا يجوز الخروج عن مقتضياتها، فالقرآن الكريم إذ يعقد هذه المقابلة، ويؤكد تلك القضايا، ولوازمها المنطقية فإنّما يقصد إلى تبيين "وجه الحقّ" في جوهر الفطرة الإنسانية، وأنّها مفطورة أصلاً على الخير المحض»[٤].

فالوحدانية هي الفطرة نفسها التي فطر الله النّاس عليها في أصل نشأتهم، وأمّا ما يحدث لهذه الفطرة من انحراف عن هذا الأصل - وهو سبب الإشراك بالله - فهو بسبب ما يعتريها من حالات نفسية، وعوامل خارجية مؤثرة، ولاسيّما في المراحل المبكرة للنشأة الأولى، وما يسود فيها من أعراف، وتقاليد موروثة متحكمة، أو ما يجري فيها من تيارات جارفة، وفلسفات اجتماعية وسياسية وافدة ومتخالفة وغيرها من المؤثرات[٥].

وبيان أنّ أصل الفطرة هو التوحيد قد جاء في بعض الأحاديث النبوية التي صحّت عن

---

(١) فتحي الدريني - دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر - ط ١ دار قتيبة: بيروت، ١٩٨٨م - ج ٢ - ص ٤٨٦.

(٢) نفسه - ج ٢ - ص ٤٨٧.

(٣) سورة الروم / الآية ٣٠.

(٤) فتحي الدريني - دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر - ج ٢ - ص ٤٩٢.

(٥) نفسه - ج ٢ - ص ٤٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النبي صلّى الله عليه وسلم - نذكر منها ما جاء في الحديث القدسي الذي رواه مسلم[١] : «إنّي خلقت عبادي حنفاء كلّهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بيْ ما لم أنزل به سلطاناً». وجاء في الحديث الصحيح أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلم قال: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، ثم يقول: واقرؤا إن شئتم: { **فطرةَ اللّهِ التي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّه** }[٢].

إنّ الفطرة التي تتحدث عنها آيات القرآن الكريم، وتفسرها أحاديث الرسول صلّى الله عليه وسلم - هي الطبيعة المُوحدة التي خُلق عليها الإنسان، وهي طبيعة خيّرة تجعل لهذا الكون خالقاً واحداً، وتعترف له بحقّه في العبادة والخضوع، هذا هو الأصل في المنهج القرآني، أمّا ما يطرأ على هذه الفطرة من انحراف عن هذا الأصل ينتج عنه الشرك والتعدد فهو الضلال الذي جاء القرآن ليصححه ويعيده إلى الصواب.

٤ - محاور الوحدانية في القرآن الكريم :

إنّ الوحدانية التي يسعى إليها القرآن الكريم قد أجملت في قوله تعالى: { **قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَد** }[٣]، وهي تعني العلم والاعتراف بتفرد الرب بجميع صفات الكمال مع إخلاص العبادة له، وإجمالها في صيغة "لا إله إلاّ الله" الجامعة بين النفي والإثبات للدلالة على حصر الألوهية لله وحده، لأنّ الجمع بين النفي والإثبات أبلغ صيغ الحصر، وقد ثبت العلم الضروري بالاكتفاء بهذه الكلمة الشريفة في إثبات التوحيد لله تعالى[٤].

لقد ركّز القرآن الكريم في عرض قضية الوحدانية على محورين رئيسيين يقوم عليهما التفسير الكامل والمفصّل لكلمة "لا إله إلاّ الله"، وهما يشكلان تقابلاً بين النفي والإثبات الذي تحدده كلمة التوحيد هذه، فقد جاء نفي التعدد أولاً بقوله (لا إله) ثم أتبع بالإثبات (إلاّ

(١) صحيح مسليم - ج٤ - ص٢١٩٧

(٢) أحمد بن حنبل (- ٢٤١ هـ) - المسند - تحقيق أحمد محمد شاكر - ط ٤ - ج ١٤ - ص ٧٦٩٩.

(٣) سورة الإخلاص / الآية ١.

(٤) بدر الدين الزركشي - معنى "لا إله إلاّ الله" - تحقيق علي محي الدين علي القره داغي - ط ٣ دار البشائر الإسلامية: بيروت، ١٩٨٦ - ص ٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الله) لتقرير حقيقة الوحدانية والتفرد لله تعالى وحده دون ندّ أو شريك، وهذا النفي والإثبات هما في حقيقتهما المقابلة الكبرى (الله والطاغوت) التي يقوم عليها القرآن الكريم كله، بل إنّ الوجود الإنساني بكامله قائم على هذه المقابلة.

قال ابن قيم الجوزية (- ٧٥١ هـ): «طريقة القرآن في مثل هذا أن يقرن النفي بالإثبات، فينفي عبادة ما سوى الله، ويثبت عبادته، وهذا هو حقيقة التوحيد، والنفي المحض ليس بتوحيد، وكذلك الإثبات بدون النفي، فلا يكون التوحيد إلاّ متضمناً للنفي والإثبات، وهذا حقيقة "لا إله إلاّ الله"»[١].

والمحور الأول الذي يدور حول نفي التعدد، وإبطال الشرك يأتي في مقدمات بناء التصور الإسلامي الذي يهدف إليه القرآن الكريم، فالشرك في حقيقته هو تجاوز للحد، وتعد على خصائص الوحدانية، لأنّه تشبيه للمخلوق بالخالق تعالى، وفي هذا تجاوز وتعد على الوحدانية التي تمتاز بالكمال المطلق من جميع الوجوه[٢]، وغاية حديث القرآن عن نفي الشرك والتعدد هو تعريف النّاس بما قد يشوب تصورهم الصحيح عن الوحدانية من انحراف، وما قد يتسرب إلى فطرهم من فساد وضلال، ومن هنا جاءت الأدلة، وسيقت الحجج والبراهين لإقناع العقول، وطمأنة الضمائر على أنّ النقص، واستمداد الحاجة من الغير صفات تنفي الألوهية عن هذه الآلهة، وأن التعدد يقتضي الفساد في الكون ﴿ **أم اتّخذُوا آلهةً مِنَ الأرضِ هُمْ يُنشِرُونَ لو كَانَ فِيهِمَا آلهةٌ إلاّ اللّهُ لفَسَدَتا** ﴾[٣] ﴿ **واتخذُوا من دُونِهِ آلهةً لاَ يَخْلُقُون شَيْئاً وهم يُخلقون ولا يملِكُونَ لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً** ﴾[٤].

أما المحور الثاني الذي يتعلق بإثبات الوحدانية، فقد ركز المنهج القرآني عليه تركيزاً كبيراً باعتباره الجانب المهم في العقيدة الإسلامية، وقد استبحرت الآيات القرآنية في الحديث

---

(١) سليمان بن عبد الوهاب - تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد - ط٣ المكتب الاسلامي - ص٥١.
(٢) نفسه - ص ١١٥.
(٣) سورة الأنبياء / الآية ٢١، ٢٢.
(٤) سورة الفرقان / الآية ٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عن اللّه تعالى وصفاته وأفعاله وخصائصه، وعرّفت الناس بالإله الحق، وأنّه ليس كمثله شيء، وأنّه واحد لا شريك له، فرد لا مثيل له، صمد لا ضد له، { **لهُ مَا فِي السَّمَوات وَمَا فِي الأرضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الـثَّرَى** }(١)، وأنّ هذا العالم بكامله فقير إليه تعالى(٢).

٥ - عرض الوحدانية من خلال مظاهر الخلق والتدبير :

للقرآن الكريم طريقته الخاصة في عرض قضية الوحدانية، وقضايا العقيدة جميعها، وهي طريقة تختلف اختلافاً كبيراً عن طرق البشر، وبخاصة الفلاسفة وأهل الكلام ممن عنوا بالبحث في مثل هذه القضايا دهراً طويلاً، فلم يصلوا بالنّاس إلى نتيجة حاسمة تبيّن هذه الحقائق بل إنّهم أوجدوا تعقيداً وتناقضاً بدخولهم في متاهات الغيب، ومزالق الفكر، قال الفخر الرازي (- ٦٠٦ هـ) - وهو إمام المتكلمين - : «لقد اختبرت الطرق الكلامية فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم، لأنّه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية للّه تعالى»(٣).

وحين يقرّر الدارسون بأنّ طريقة القرآن في العرض لا تشبهها طريقة من طرق البشر فذلك راجع إلى الخصائص الإلهية للقرآن التي جاءت بأوضح المناهج، وأفضل الطرق في الاستدلال والإقناع، فطريقة القرآن تخاطب العقل والعاطفة وتدخل إلى النفس البشرية من جميع المنافذ، ومن هنا لم يكن عرض القرآن لقضية الوحدانية عرضاً تجريدياً بحتاً، بل كان عرضاً بديعاً يجمع بين قوة الفكرة، وجمال التعبير، ودقة العبارة وجمال التصوير، كل ذلك لتلبية حاجات النفوس إلى الإقناع والإمتاع.

إنّ أقرب الطرق إلى النفس البشرية مخاطبة الحس والوجدان، والعقل والضمير، ومن هنا حرص القرآن الكريم على عرض فكرة الوحدانية من مشاهد الكون، وعظمة الخلق والتدبير، و «حرص على تجلية هذه الحقيقة بآثارها الفاعلة في هذا الوجود في تصريف هذا الكون وما فيه

---

(١) سورة طه / الآية ٦.

(٢) محمد الغزالي - المحاور الخمسة في القرآن الكريم - ط ١ دار الوفاء: القاهرة، ١٩٨٩ - ص ٢٤.

(٣) تفسير الفخر الرازي - ج ١ (المقدمة) م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن فيه، في تسخير الليل والنّهار، والشمس والقمر والنجوم، في إيلاج الليل في النّهار، وإيلاج النّهار في الليل، في إرسال الرياح لواقح وإنزال الماء من السماء، في انبثاق الميت من الحيّ، في بدء الخلق وإعادته، في القبض والبسط، في البعث والنّشور، في النعمة والنقمة، في الجزاء والحساب، في النعيم والثواب، في كل حركة، في كلّ تغيّر وكل تحور في عالم الغيب أو في عالم الشهادة في هذا الوجود الكبير، ونادراً ما يتحدث المنهج القرآني عن الذات الإلهية، والصفات في الصورة التجريدية التي تتحدث بها الفلسفة واللاهوت وعلم الكلام»[(١)].

ومعظم النصوص القرآنية الواردة في تعريف الناس بالله تتضمن الكثير من الحقائق عن الكون والحياة والإنسان، ولم تكن غايتها تناول هذه المعارف تناول كتب الفلك والحساب والعلوم الكونية والإنسانية، بل كان عرضها لتكون دليلاً واضحاً لا يقبل شكاً ولا ريباً على عظمة الله سبحانه الذي خلقها وأبدعها في أحسن صورة[(٢)].

إنّ الكون بما فيه هو قرآن صامت، يحثّ القرآن الكريم على استنطاق آياته لتكون دليلاً على عظمة الخالق - عزّ وجلّ - قال تعالى: { **أو لَمْ يَنْظُروا في ملكوتِ السمواتِ والأرض وَمَا خلقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وأن عَسَى أنْ يَكونَ قَدِ اقتربَ أجلُهم فبأيِّ حديثٍ بَعْدَه يُؤمِنُونَ** }[(٣)] وقال تعالى أيضاً: { **قُل سيرُوا في الأرضِ فانْظُروا كَيْفَ بدأَ الخلقَ ثمّ اللهُ يُنشِىءُ النّشأةَ الآخِرَةَ إنّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ** }[(٤)].

وهذا النظر الذي يدعو إليه القرآن الكريم، وهذا الحديث عن الآيات الكونية هو للفت النظر إلى أنّ هذه الأرض، وهذا الكون الدقيق الصنع هو من إبداعه وتكوينه تبارك وتعالى، وأنّ الذي خلق هذه الموجودات بعجائبها وغرائبها، وتفرّد بعلمه وتكوينه وعظمته وألوهيته لا يصحّ أن يعبد معه أحد سواه، قال تعالى: { **يا أيُّها النّاسُ اعبُدُوا ربّكُم الذي خَلَقَكُم والذينَ مِنْ قَبْلِكُم لعلّكُم تَتّقُون الذي جَعَل لكُم الأرضَ فِرَاشاً والسَّمَاءَ**

(١) سيد قطب - مقومات التصور الإسلامي - ص ٤٢.

(٢) حسن البنا - نظرات في القرآن - ص ٢١.

(٣) سورة الأعراف / الآية ١٨٥.

(٤) سورة العنكبوت / الآية ٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بِنَاءً وأنزل من السماء ماءً فأخرجَ بهِ مِنَ الثَمَراتِ رِزْقاً لكُم فَلاَ تَجْعَلُوا لِلّهِ أَنْدَاداً وأَنْتُم تَعْلَمُون }(١) فـقـد عـرض القـرآن الكريم هذه الآيات فـي سيـاق الاسـتـدلال على وحدانية الله، وتفرده بالعظمة والجلال.

وحين يعرض القرآن الكريم الوحدانية من خلال مظاهر الخلق والإبداع في الكون يشير في مقابل ذلك إلى العجز التام للأنداد التي اتخذها البشر آلهة من دون الله عن أن يكون لها آثار فاعلة في هذا الوجود، ويعقد القرآن مقابلة رائعة - وهي الطريقة التي سيتّبعها القرآن في عرض قضاياه - بين آثاره تعالى في الوجود، وآثار غيره من الأنداد، قال تعالى: { آاللّه خيرٌ أمّا يشركُونَ أمّن خَلَق السّموات والأرضَ وأنزَلَ لكُم مِنَ السَمَاءِ ماءً فأنبَتنا به حَدائِقَ ذَاتَ بَهْجَة مَا كَانَ لَكُمْ أن تُنْبِتُوا شَجَرَها أإلهٌ مع اللّهِ بل هُم قومٌ يَعْدِلُونَ أمّن جعلَ الأرضَ قَرَاراً وجَعَلَ خِلالَهَا أنْهَاراً وجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَيْن حاجِزاً أإلهٌ مَعَ الله بَلْ أكثرهم لاَ يَعْلَمُون أمَّنْ يُجِيبُ المُضْطَرَ إذا دعاهُ ويكشفُ السوءَ ويجعلكُم خلفاءَ الأرضِ أإلهٌ مع اللّهِ قليلاً ما تَذَكّرُونَ أمّن يَهْدِيكُم فِي ظُلمَاتِ البرّ والبَحْر ومَنْ يُرْسِل الرياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِه أإله مع الله تعالى الله عمّا يشركون أمّن يبدأ الخلق ثم يعيدُهُ وَمن يرزقكُم من السماءِ والأرضِ أإلهٌ مَعَ اللّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُم إنْ كُنْتُم صَادِقِين }(٢).

٦ - ظاهرة "التنويع" في عرض الوحدانية :

إنّ الوحدانية التي تحدّد معناها فيما سبق هي إفراد اللّه بالخلق والأمر، وتخصيصه وحده بالخضوع والعبادة، وقد أخذت في القرآن الكريم المساحة الكبرى، فقارىء القرآن لا يكاد يمر بآية إلاّ ويجد فيها حديثاً مباشراً أو غير مباشر عن الله وصفاته وعظمته ومشيئته، وتدبيره للكون، وتنظيمه للكائنات، بل سيجده -تعالى- وراء كل حركة أو توجيه أو سنّة كونية، ومثل هذا الحديث المتنوّع لا مثيل له في كلام البشر، قال الله: { اللّهُ نزّلَ أحْسَنَ الحديثِ كِتَاباً مُتَشابِهاً مَثَانِي تَقْشَعِرُ مِنهُ جلودُ الذينَ يَخْشَوْنَ رَبّهُم }(٣).

(١) سورة البقرة / الآية ٢٢.
(٢) سورة النمل / الآية ٥٩ - ٦٤.
(٣) سورة الزمر / الآية ٢٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالقرآن الكريم موصوف بحسن الحديث وكونه متشابهاً مثاني، أما وصفه بالحديث الحسن «فلأنّه اشتمل على أفضل ما تشتمل عليه الأخبار من المعاني النافعة، والجامعة لأصول الإيمان والتشريع والاستدلال، والتنبيه على عظم العوالم والكائنات، وعجائب تكون الإنسان والعقل وبثّ الآداب، وغير ذلك من المعاني»(١)، وأمّا كونه "متشابها مثاني" فمعانيه متشابهة في صحتها وأحكامها، وابتنائها على الحق والصدق، وهي معاني مثناة أي مكررة مرات ومرات، وفي كل مرّة تجد أسلوباً جديداً، وروحاً جديدة، وعرضاً جديداً بشكل عجيب مدهش، غير مستطاع للبشر، وهذا وحده مظهر من مظاهر الإعجاز في هذا القرآن الكريم»(٢).

فالقرآن الكريم يصف نفسه بوصف "المثاني" ويعني "التنويع" في عرض الحقائق والأفكار، وهو أسلوب معجز لا يستطيعه البشر، وقد كان موقف المستشرقين ومن لفّ لفهم أن أنكروا هذا الأسلوب، وعدّوه تكراراً لا يليق بمستوى البلاغة والفصاحة، وكان إنكارهم هذا دليلاً على سوء طبعهم وفساد طويتهم، وعجزهم عن تذوّق جمال اللُغة العربية(٣).

أما العارفون بدقائق اللغة العربية فيرون في هذا الأسلوب لوناً من ألوان الإعجاز البياني، والقرآن الكريم يلجأ إليه لعرض قضاياه في قوالب بيانية متنوعة تحقيقاً لأغراض وقِيَم فكرية وجمالية كثيرة، ولذلك عدّ من أساليب الإقناع في القرآن الكريم(٤).

فقضية الوحدانية هي من القضايا التي تنوّع عرضها في القرآن الكريم بأساليب كثيرة، وطرق متنوعة لتحقيق أغراض تربوية وإقناعية، والقرآن الكريم يهدف إلى تغيير النفوس، ومزج الحقائق بالقلوب، وهو أمر لا يمكن تحقيقه إلاّ بالتنويع والتكرير، والضرب على أوتار النفوس المختلفة، والمتباينة في طبائعها وتكوينها النفسي والفكري.

إنّ التعامل مع النفس البشرية بجميع قواها لغايات الإقناع والتغيير، والاستجابة

(١) محمد الطاهر بن عاشور- تفسير التحرير والتنوير- ط الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤- ج ٢٣ -ص ٣٨٥.
(٢) سعيد حوي - الأساس في التفسير - ط ١ دار السلام للطباعة، ١٩٨٥م - ج ٩ - ص ٤٨٧١.
(٣) فضل حسن عباس - قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية - ص ١٤١.
(٤) بن عيسى عبدالقادر بطاهر - أساليب الإقناع في القرآن الكريم - رسالة ماجستير - الجامعة الأردنية، ١٩٩٠ - ص ٧٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتأثير، يقتضي التنويع في الأساليب والوسائل التي لها قدرة على تحريك هذه القوى، فالضرب على أوتار النفس المتعددة من شأنه أن يخضع النفس، ويقهر تفوقها في الجدل.

وقد كان التنويع في عرض قضية الوحدانية أمراً مقصوداً في طرق الأداء لتلبية حاجات النفوس، وهو تنويع يشبه التنويع الذي نستطعمه لمذاق السكّر في الفواكه المختلفة، يقول محمد عبدالله دراز: «والأعجب في القرآن أنّه مع كونه أكثر الكلام افتناناً وتنويعاً في الموضوعات هو أكثره افتناناً وتلويناً في الأسلوب في الموضوع الواحد، فهو لا يستمر طويلاً على نمط واحد من التعبير، كما أنّه لا يستمر طويلاً على هدف واحد من المعاني، ألا تراه كما ينتقل في السورة الواحدة من معنى إلى معنى ينتقل في المعنى الواحد بين إنشاء وإخبار، وإظهار وإضمار، وإسمية وفعلية، ومضي وحضور، واستقبال وتكلّم، وغيبة وخطاب، إلى غير ذلك من طرق الاداء، على نحو من السرعة لا عهد لك بمثله ولا بما يقرب منه في كلام غيره قط، ومع هذه التحولات السريعة المستمرة التي هي مظنة الاختلاج والاضطراب بل مظنة الكبوة والعثار في داخل الموضوع أو في الخروج منه، تراه لا يضطرب ولا يتعثر، بل يحتفظ بتلك الطبقة العليا من متانة النظم وجودة السبك حتى يصوغ من هذه الأفانين الكثيرة منظراً مؤتلفاً، فأي امرىء يحسن العربية وينظر في نظم القرآن هذه النظرة ثمّ لا يرى فيه من أثر القدرة الباهرة سراً من أسرار التحدي والإعجاز»(١).

ولا يقدر على هذا التنويع في الأساليب لتلبية حاجات النفوس إلاّ العليم بخبايا النفوس وأسرارها، ولهذا تميّز القرآن على جميع المستويات وبخاصة المستوى الأدبي الذي يختلف قانونه عن قانون البشر، يقول مالك بن نبي: «إنّ عبقرية الإنسان تحمل بالضرورة طابع الأرض، حيث يخضع كل شيء لقانون الزمان والمكان، بينما يتخطى القرآن دائماً نطاق هذا القانون، وما كان لكتاب بهذا السموّ أن يُتصور في حدود الأبعاد الضيقة للعبقرية الإنسانية، ومن المقطوع به أنّه لو أتيح لأحد من النّاس أن يقرأ القرآن قراءة واعية يدرك خلالها رحابة موضوعه، فلا يمكنه أن يتصور الذات المحمدية إلاّ مجرد واسطة لعلم غيبي مطلق»(٢).

---

(١) النبأ العظيم - ط دار القلم: الكويت - ص ١٤٤.

(٢) الظاهرة القرآنية - ص ١٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٧ - عرض الوحدانية بطريقة المقابلة :

قبل الحديث عن "المقابلة" واعتماد القرآن الكريم عليها ضمن طرق العرض، لابد من الإشارة إلى مسألتين: أولاً: تناول دارسو البلاغة وإعجاز القرآن "المقابلة" بالبحث والدراسة، وكانت نظرتهم لها في نطاق ضيق وضمن علم البديع، وعدوا المقابلة من المحسنات المعنوية التي تأتي لغرض بديعي فحسب، ثم إنّهم اشترطوا لها شروطاً وعدوا لها أنواعاً كثيرة، وقد اتسمت دراستهم بالنظرة الجزئية الضيقة، وبالمرور السريع على أسلوب بارز يشكل ظاهرة واضحة في القرآن الكريم.

ثانياً: من المسائل التي ثار حولها جدل قديماً مسألة المعنى وعلاقته باللفظ، وأيهما مقدّم في البلاغة والفصاحة، وهي مسألة أرهقت الدارسين حتى جاء "عبدالقاهر الجرجاني" (- ٤٧٠ هـ أو ٤٧٤ هـ) بنظرية النظم، وحدد معالمها في كتابه دلائل الإعجاز[١] وذهب إلى أن الفنون البلاغية مرتبطة بالنظم أشدّ الارتباط، ومن خلاله تحقق أثرها في التعبير، وتمدّه بالجمال والتأثير[٢]، و «أيا ما كانت تلك الجهود التي بذلت في التفسير، وفي مباحث البلاغة والإعجاز فإنّها وقفت عند حدود عقلية النقد العربي القديمة، تلك العقلية الجزئية التي تتناول كل نص على حدة، فتحلله وتبرز الجمال الفني فيه - إلى الحد الذي تستطيع - دون أن تتجاوز هنا إلى إدراك الخصائص العامة في العمل الفني كلّه»[٣].

أمّا في العصر الحديث فقد اهتم بعض الدارسين بالخصائص العامة للأسلوب القرآني، ونظروا نظرة كلية إلى النصوص، ولكن بقيت قضية المعنى وطريقة عرضه متناولة، فقد رأى سيد قطب أنّ طريقة القرآن في العرض هي التي أبرزت المعاني، «فبعض النّاس حين ينظر في هذه الموضوعات ويرى ما فيها من دقة وعظمة، وصلاحية ومرونة، وإحاطة وشمول، يحسبها ميزة القرآن الكبرى، ويحسب أنّ طريقة التعبير تابعة لها، وأنّ الإعجاز كلّه كامن فيها، كما أنّ بعضهم يفرّق بين المعاني وطريقة الأداء، ويتحدث عن إعجاز القرآن في كل منهما على

---

(١) دلائل الإعجاز - تحقيق محمود شاكر - ط مكتبة الخانجي : القاهرة، ١٩٨٤م - ص ٥٥.

(٢) عبدالغني بركة - أسلوب الدعوة القرآنية - ط ١ دار غريب : القاهرة، ١٩٨٣م - ص ٧٨.

(٣) سيد قطب - التصوير الفني في القرآن - ص ٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

انفراد، أمّا نحن فنريد أن نقول: إنّ الطريقة التي اتبعها القرآن في التعبير هي التي أبرزت هذه الأغراض والموضوعات فهي كفاء هذه الأغراض والموضوعات»(١).

وأضاف أنّ طريقة الأداء حاسمة في تصوير المعنى، وإنه حيثما اختلفت طريقتان للتعبير عن المعنى الواحد اختلفت صورتا هذا المعنى في النفس والذهن، وبذلك ترتبط المعاني وطرق الأداء ربطاً لا يجوز الحديث بعده عن المعاني والألفاظ كل على انفراد... وإن طريقة التصوير هي السمة الأولى، وهي الطريقة الوحيدة التي جعلت للمعاني والأغراض والموضوعات القرآنية صورتها التي نراها، ومن هذه الصورة كانت قيمتها الكبرى»(٢).

وإذا كنا نتفق مع هذا الرأي في أنّه لا يجوز الفصل بين المعاني وطرق العرض في الدراسة، وأنّ القرآن الكريم قد اجتمعت فيه أشرف المعاني وأدقها، وأروع الطرق وأعلاها، وأنّه كتاب متميّز في كلّ شيء لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فإننا نختلف معه في أنّ طريقة التصوير التي اتبعها القرآن في العرض ليست الطريقة الوحيدة التي يعتمد عليها القرآن في إبراز المعاني، "فالمقابلة" أيضاً هي إحدى طرق العرض الواضحة التي يلجأ إليها القرآن في أداء المعنى، وهي طريقة لا تنفي بتاتاً أسلوب التصوير بل إنّها تتعاضد وتتكامل معه لتأدية أحسن الأغراض، وبخاصةً حين تعرض الصورة وما يقابلها كما سيأتي بيانه في الفصول القادمة.

وحين نقرر بأن "المقابلة" هي إحدى طرق العرض البارزة في القرآن فإننا نؤكد على أنّها من أساليبه في الإقناع، وطرقه في الاستدلال، فالمقابلة بين المعاني تزيدها في الفكر وضوحاً، وفي النفس رسوخاً(٣)، والمقابلة بين شيئين أو أمرين أو شخصين تكون ليعرف أيّهما المؤثر في عمل معين، وإذا ثبت أنّ التأثير لواحد منهما كان له فضل التقدم على غيره، وقد كان ذلك النوع من ينابيع الاستدلال كثيراً في القرآن الكريم(٤).

إنّ فكرة "الوحدانية" هي الفكرة الأساسية في القرآن الكريم، وقد لوّن الأسلوب القرآني

(١) سيد قطب - التصوير الفني في القرآن - ٢٣٩، ٢٤٠.
(٢) نفسه - ص ٢٤٠، ٢٤١.
(٣) أحمد بدوي - من بلاغة القرآن - ط ٣ مكتبة نهضة مصر: القاهرة - ص ١٨٥.
(٤) محمد أبوزهرة - المعجزة الكبرى القرآن - ط دار الفكر العربي - ص ٣٥٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في طرق عرضها لأغراض كثيرة تتعلق بالإقناع والتربية والتأثير، والمقابلة هي إحدى طرق العرض التي جاءت لتفصل بين المتضادات، بين المعبود بحق، وبين الآلهة التي اتخذها البشر أنداداً لله، قال تعالى: { **أم اتَّخذُوا آلهةً من الأرض هُمْ يُنشِرُونَ لَوْ كَانَ فيهما آلهةٌ إلاَّ اللهُ لفسدَتَا فسبحانَ اللهِ رَبِّ العرش عمَّا يَصِفُونَ لا يُسألُ عمَّا يَفْعَل وَهُمْ يُسْألُونَ أم اتَّخَذُوا مِنْ دُونِه آلهـةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُم هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِي وذكرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أكثرُهم لا يعلَمُونَ الحقَّ فَهُم مُعْرِضُونَ** }[١].

إنَّ هذا الدليل القرآني الذي سيق لتقرير حقيقة الوحدانية قائم على المقابلة بين فكرتين، إحداهما افتراضية تثبت وجود آلهة من دون الله ثم تجعل من الفساد في الكون مقتضى من مقتضيات هذا الوجود نظراً لتنازع الإرادات بين سلب وإيجاب، وثانيهما فكرة مناقضة تماماً للفكرة الأولى، وهي فكرة وجود إله واحد متفرد في الكون لا ترى في خلقه فساداً يذكر، ويسمي علماء الكلام هذا الدليل دليل التمانع أي امتنعت الوثنية لامتناع الفساد، فكانت الوحدانية[٢].

وقد جاء في سياق هذه الآية العظيمة طلب الدليل من الذين يدعون وجود آلهة أخرى من دون الله، وقد ثبت لديهم بالدليل العقلي والحسي ما يثبت وحدانية الله تعالى، وينفي التعدد، وقد تناول القرآن الكريم ذلك في آيات أخرى منها قوله تعالى: { **لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إذاً لابْتَغَوا إِلَى ذِي العَرْشِ سَبِيلاً** }[٣]، ومعنى الآية: «لابتغوا إليه سبيلاً في إفساد ملكه، ومضاهاته في قدرته، وهذه الآية جارية مع قوله تعالى: { **لَوْ كَانَ فِيهِما آلِهَة إلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا** } وتقتضب شيئاً من الدليل على أنّه لا يجوز أن يكون مع الله تبارك وتعالى غيره»[٤].

وقال تعالى: { **ما اتَّخذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وما كَانَ معهُ مِنْ إلهٍ إذاً لذَهَبَ كُلُّ**

---

(١) سورة الأنبياء / الآية ٢١ - ٢٤.

(٢) محمد أبوزهرة - المعجزة الكبرى للقرآن - ص ٣٧٧.

(٣) سورة الإسراء / الآية ٤٢.

(٤) ابن عطية الأندلسي - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - تحقيق عبدالله الأنصاري وعبدالعال إبراهيم - ط ١ مؤسسة دار العلوم: قطر، ١٩٨٧م - ج ٩ - ص ٩٤، ٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلَهٍ بِما خَلَقَ ولَعَلاَ بَعْضُهُم عَلَى بَعْض }[١] فقد جاءت هذه الآية في مقام الاستدلال على الوحدانية، وهي قائمة على عقد مقابلة بين الإله الحق، والآلهة المتصوّرة من دونه، قال أهل التفسير: «في الكلام حذف تقديره: لو كان مع الله آلهة لانفرد كل إله بخلقه، واستبد به، وامتاز ملكه عن ملك الآخر، ووقع بينهم التطالب والتحارب والتغالب و { لَعَلاَ بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ } أي غلب القوي على الضعيف وقهره وأخذ ملكه كعادة الملوك من بني آدم، وحينئذ فذلك الضعيف المغلوب لا يستحق أن يكون إلهاً، وإذا تقرر عدم إمكان المشاركة في ذلك، وأنّه لا يقوم به إلاّ واحد تعيّن أن يكون هذا الواحد هو الله سبحانه، وهذا الدليل كما دلّ على نفي الشريك فإنّه يدل على نفي الولد»[٢].

وفي هذه الآية تقابل بين صورتين صورة الإله الواحد المتفرد، وصورة أخرى متخيلة - لو كان هناك آلهة { إِذَنْ لَذَهب كُلُّ إله بِمَا خَلَق } وإنّها لصورة مضحكة أن ينحاز كل فريق من المخلوقات إلى إله، وأن يأخذ كُلُّ إله مخلوقاته ويذهب، إلى أين؟ لا ندري، ولكننا نتخيل هذه الصورة فنضحك من فكرة تعدد الآلهة، إذا كانت نتيجتها هي هذه النتيجة»[٣].

إنّ المقابلة التي يعقدها القرآن الكريم بين الإله المستحق للعبادة، وبين ما ابتدع البشر من آلهة باطلة هي من الوسائل المفيدة في الإقناع والتأثير، ولذلك ترى القرآن يلجأ إليها كثيراً في معرض الاستدلال والاحتجاج، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: {أَفَمَنْ يخلقُ كَمَنْ لا يَخْلُق أفلا تَذكرُونَ وإنْ تَعُدُّوا نعمةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا إنّ الله لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[٤].

فهذه الآية تحرك العقول، وتوقظ الضمائر حين تعقد مقابلة فكرية بين الإله الذي يعترفون بأنّه الخالق المصوّر {ولئِنْ سَألْتَهُم مَنْ خَلَقَ السّمَواتِ والأرضَ لَيَقُولُنّ اللّهَ}[٥] وبين الآلهة التي لا تملك من أمر الخلق شيئاً، ومن خلال هذه المقابلة يأتي الدليل الذي يلزمهم

(١) سورة المؤمنون / الآية ٩١.
(٢) محمد بن علي الشوكاني - تفسير فتح القدير - تحقيق سيد إبراهيم - ج ٣ - ط ١ دار الحديث: القاهرة، ١٩٩٣ - ج ٣ - ص ٧٠١.
(٣) سيد قطب - التصوير الفني في القرآن - ص ٢٣١.
(٤) سورة النحل / الآية ١٧، ١٨.
(٥) سورة لقمان / الآية ٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويفحمهم ويقنعهم إن استقامت القلوب على منهج الله.

وقال تعالى: { قُلْ مَنْ رَبُّ السَّموات والأرضَ قل الله قُلْ أفاتَّخذتُم من دُونِهِ أولياءَ لا يَمْلِكون لأنفُسِهم نَفْعاً ولا ضَراً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأعْمَى والبَصيرُ أمْ هَلْ تستوي الظُّلُمَاتُ والنُور أمْ جَعَلُوا لِلهِ شُركاء خَلَقُوا كخَلْقِهِ فتشَابَهَ الخلقُ عليهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ }(١).

فقد سيقت هذه الآية للاستدلال على الوحدانية المطلقة لله، وسيقت لافحام أولئك الذين لم يدركوا خصائص الألوهية، وأشركوا مع الله آلهة أخرى لا تملك مقومات الألوهية، وكما هو واضح فإن الآية الكريمة تعتمد على أسلوب المقابلة في عرض هذه الحقيقة، فقد قابلت بين الإله الذي لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، وبين المالك لكلّ شيء، كل ذلك لتحريك العقول، وايقاظ المشاعر، لادراك فكرة الوحدانية التي تملك الخصائص التي لا يشاركها فيها أحد من البشر أو الخلق، وفي سياق هذه الآية جاءت المقابلة بين الأعمى والبصير، والظلمات والنور، وبين من يخلق ومن لا يخلق كلها بأسلوب الاستفهام التقريري التوبيخي لتمام المناسبة لأنّ حال المشركين أصحاب العمى كحال الظلمة في انعدام إدراك المبصرات، وحال المؤمنين كحال البصر في العلم، وكحال النور في الإفاضة والإرشاد(٢).

وفي مشاهد الكون المتقابلة استدلال يوجب الإقرار بالوحدانية والقدرة القاهرة، السماوات والأرض، الأعمى والبصير، الظلمات والنور، ومن يخلق ومن لا يخلق(٣)، وهذه المقابلات التي تساق هي لإيضاح الفرق بين الحق والباطل مثل وضوح الفرق بين الأعمى والبصير، وبين الظلمات والنور، فالوحدانية في الخلق والوحدانية في القهر { قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ }(٤) هي الحق الذي لا يمكن بأية حال أن يرتقي إليه الباطل المتمثل في التعدد(٥).

---

(١) سورة الرعد / الآية ١٦.

(٢) محمد الطاهر بن عاشور – تفسير التحرير والتنوير – ج ١٣ – ص ١١٤.

(٣) حامد قنيبي – المشاهد في القرآن الكريم – ص ٤٩٧.

(٤) سورة الرعد / الآية ١٦.

(٥) سيد قطب – في ظلال القرآن – ج ٤ – ص ٢٠٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب - المقابلة الكبرى : الله والطاغوت :

١ - التقابل ضرورة بشرية :

إنّ الوجود الإنساني كلّه قائم على التقابل بين الأشياء، وهذا من البديهيات التي يدركها أي عاقل، فما من شيء إلاّ وله ما يقابله وينافيه في أوصافه إذا كانا تحت جنس واحد، ويكون بينهما تضاد يبعدهما أبعد البعد، كالسواد والبياض، والخير والشرّ، والظلم والعدل وغير ذلك من المتضادات.

والضد هو أحد المتقابلات، لأنّ المتقابلين هما الشيئان المختلفان اللذان كل واحد منهما قبالة الآخر، ولا يجتمعان في شيء واحد في وقت واحد[(١)].

وقد أقام الله الكون وما فيه على التقابل والتضاد لحكمة يعلمها هو، قال تعالى: {ومن كلّ شيءٍ خلقنا زوجين لعلّكم تذكّرون}[(٢)] «أي أنّ الموجودات كلّها متقابلة إلاّ الله تعالى فإنّه فرد لا مقابل له بل هو الواحد الحقّ الخالق للأزواج كلّها»[(٣)].

والقول بأنّ الله تعالى ليس له ما يقابله، وليس له ضد ولا ند مبني على حقيقة أنّ الله ليس كمثله شيء، وأنّه منزّه عن أن يكون له ما يشاركه في الجنس والجوهر، قال الراغب الأصفهاني: «الله تعالى لا ند له ولا ضد، لأنّ النّد هو الاشتراك في الجوهر، والضد هو أن يعتقب الشيئان المتنافيان على جنس واحد، والله تعالى منزّه عن أن يكون جوهراً، فإذاً لا ضد له ولا ند»[(٤)].

أمّا الأضداد والأنداد التي قابل بها البشر إلههم الحقّ، والتي أجملها القرآن الكريم كلّها في لفظ الطاغوت، فهي من صنع البشر أنفسهم، وقد تجاوزوا بها الحد في التعدي على

---

(١) محمد بن يعقوب الفيروزآبادي - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز - تحقيق محمد علي النجار - ط المكتبة العلمية: بيروت - ج ٣ - ص ٤٦٣.

(٢) سورة الذاريات / الآية ٤٩.

(٣) الغزالي أبوحامد - إحياء علوم الدين - ج ٣ - ص ٤٤.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن - تحقيق صفوان عدنان داوودي - ط ١ دار القلم: دمشق، والدار الشامية: بيروت، ١٩٩٢م - ص ٥٠٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خصائص الألوهية الحقّة، ولذلك قال تعالى في جدالهم وحجاجهم: { **ما تعبدون من دونهِ إلاّ أسماءً سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزلَ اللّهُ بهَا مِنْ سُلْطانٍ إنِ الحكم إلاّ للّه أمر ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه ذلك الدينُ القيّم ولكنّ أكثرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ** }(١).

وقال تعالى: { **واتّخذوا من دونِ اللّهِ آلهةً ليكونُوا لهم عِزّاً كلاّ سيكفُرُونَ بعِبَادَتِهم ويَكونُون عَلَيْهِم ضداً** }(٢).

فالبشر كما يذكر القرآن هم الذين يصنعون الطاغوت، ويتّخذون منه أصناماً وآلهة من غير دليل ولا برهان، وكلّها من جعل أنفسهم وسمّوها تسمية هي من تلقاء أنفسهم كذلك، ثم يتلقاها الخلف عن السلف(٣).

وحين تقرّر بأنّ الوجود الإنساني كلّه مبني على التقابل بين الموجودات بدليل القرآن الكريم، فإنّ ذلك يعني أنّ التقابل ضرورة من ضرورات الحياة، فالعقل البشري نفسه في أصل خلقته جُبل على أن يقابل بين المتضادات، فهو «ينزع دائماً إلى المزاوجة بين الأشياء التي تعرض له، وتدور في محيط تفكيره، فلا يكاد أمرٌ من الأمور يقع في مجال النظر العقلي حتى يستشير له العقل من عالم الواقع أو عالم الخيال كائناً آخر يقف منه موقف التضاد والعناد، يرى فيه كل الصفات السلبية للأمر الذي بين يديه، فإذا ذاق المرء طعماً حلواً، ذكر الطعم المرّ، وإذا لمس اللين استشعر الخشن، وإذا فكّر في الحقّ تذكر الباطل، مثنى مثنى، الأمر وضده، ومحال أن يعترف العقل في عالم الواقع بالوجود الفردي لشيء من الأشياء أو معنى من المعاني حتّى لكأنّ الأشياء والمعاني كائنات حيّة لا يضمن بقاءها ووجودها إلاّ هذه المزاوجة التي تجمع الشيء ومقابله، كما تجمع في عالم الأحياء بين الذكر والأنثى»(٤).

---

(١) سورة يوسف / الآية ٤٠.

(٢) سورة مريم / الآية ٨١، ٨٢.

(٣) إسماعيل بن كثير - تفسير القرآن العظيم - ط ١ الدار المصرية اللبنانية: القاهرة، ١٩٨٨م - ج ٢ - ص ٤٠٢.

(٤) عبدالكريم الخطيب - التفسير القرآني للقرآن - ط دار الفكر العربي - ج ٣ - ص ٨٧٤، ٨٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتقابل بين الأشياء في الكون وحياة الإنسان امرتقتضيه المصلحة كما أرادها الله سبحانه ، يقول الجاحظ: «اعلم أنّ المصلحة في ابتداء أمر الدنيا إلى انقضاء مدّتها امتزاج الخير والشرّ، والضار بالنافع، والمكروه بالسّار، والضعة بالرفعة، والكثرة بالقلّة، ولو كان الشرّ صرفاً لهلك الخلق، أو كان الخير محضاً لسقطت المحنة، وتعطّلت أسباب الفكرة»(١).

فالتقابل بين الأشياء ضرورة من ضروريات الحياة، فقد أقيمت عليه مظاهر الكون ومشاهده، وجُبلت عليه طبائع النفوس، واقتضت الحكمة الإلهية أن ينبني الوجود الإنساني كلّه على فكرة التضاد ، وتعليل الجاحظ لهذه الظاهرة الكونية مستمد من مفاهيم الشريعة الإسلامية التي ترجع في تفسيرها للمشكلات العويصة إلى القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة، فقد ورد في القرآن الكريم تعليل فكرة الخلق والإماتة بالابتلاء، قال تعالى: {**الذي خلقَ الموتَ والحياةَ ليبلوكُم أيُّكم أحسنُ عَمَلاً وهو العزيزُ الغفور**}(٢).

وسقوط المحنة يعني سقوط الابتلاء الذي قدّره الله على المخلوقين، فبالابتلاء وحده يمكن الفصل بين ما هو حق وما هو باطل، ما هو شرّ وما هو خير.

«ولأنّ الله علم أنّ وراء الموت حياة وحالة يستوي فيها الغني والفقير، والمولى والعبد، ولا ينفعه إلاّ ما قدم من خير، صار ذلك داعياً إلى حسن العمل، وزاجراً عن ضده»(٣).

٢ - الطاغوت والإنسان :

الطاغوت صيغة من الطغيان، وهي تعني تجاوز الحدّ في كلّ شيء وبخاصة في الكفر والعصيان، وقد وردت في بعض المواضع من القرآن الكريم بمعنى التعدي والطغيان على حقّ الألوهية في خاصية من خصائصها، أو في الخصائص كلّها، وترد كلمة "الطاغوت" دائماً في سياق التقابل مع الألوهية الحقّة، وقد حذّر القرآن الكريم من الطاغوت، وعدّه من المهلكات

(١) الحيوان - تحقيق عبدالسلام هارون - ط ٣ دار احياء التراث العربي: بيروت، ١٩٦٩ - ج ١ - ص ٩٦.
(٢) سورة الملك / الآية ٢.
(٣) الحسن النيسابوري - غرائب القرآن ورغائب الفرقان - تحقيق إبراهيم عوض - ط ١ مطبعة البابي الحلبي: القاهرة، ١٩٧٠ - ج ٢٩ - ص ٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التي توقع في الشرك والضلال، وقرّر أن الإيمان الحقيقي هو في اجتنابه والكفر به، قال تعالى: **{ ولقد بعثنا في كُلّ أُمّةٍ رسولاً أنِ اعْبُدُوا اللّهَ واجتنبُوا الطاغوت فَمِنْهُم مَنْ هَدَى اللّهِ ومنهم من حقّت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانْظُرُوا كيف كان عَاقِبَةُ المكذّبين }**(١)، وفي صورة من صور التقابل الرائعة التي يوردها القرآن بين الوحدانية والطاغوت يقول تعالى: **{ لا إكراهَ فِي الدِين قد تَبيَّن الرشْدُ من الغيّ فمن يكفر بالطاغوتِ ويؤمن باللّه فقد استَمْسَك بالعُروة الوثقى لا انْفِصَام لها واللهُ سميعٌ عليمٌ اللهُ وليُّ الذين آمنوا يُخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤُهم الطاغوتُ يُخرجونَهُم من النُور إلى الظلماتِ أُولئك أصحابُ النّارِ هم فِيهَا خالدون }**(٢).

والطاغوت الذي يُحذر منه القرآن في هذه الآيات بعدما حذّرت منه جميع دعوات الرسل فيما سبق من الزمان، هو صنم يعبد من دون اللّه، ولكن ليست له صورة واحدة، فهو يتشكل في صور كثيرة، ويظهر في قوالب متعددة، قال الطبري (- ٣١٠ هـ): «الطاغوت هو كل ذي طغيان على اللّه، فعبد من دونه، إمّا بقهر منه لمن عبده، وإمّا بطاعة ممن عبده له، إنساناً كان ذلك المعبود أو شيطاناً أو وثناً أو صنماً أو كائناً ما كان من شيء»(٣).

وقال ابن قيم الجوزية (- ٧٥١ هـ): «الطاغوت ما تجاوز به العبد حدّه من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إلى غير اللّه ورسوله، أو يعبدونه من دون اللّه، أو يتبعونه على غير بصيرة من اللّه، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنّه طاعة اللّه»(٤).

وقال الفيروزآبادي: «الطاغوت اللات والعزى والكاهن والشيطان، وكل رأس ضلال

---

(١) سورة النحل / الآية ٣٦.
(٢) سورة البقرة / الآية ٢٥٦، ٢٥٧.
(٣) تفسير الطبري - ج ٣ - ص ١٩.
(٤) سليمان بن عبدالوهاب - تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد - ص ٥٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والأصنام، وكل ما عبد من دون الله»[١].

فالطاغوت إذن هو كل ما عبد من دون الله، وكلّ ما يتخذه الإنسان إلهاً وربّاً ومُشرّعاً دون الله هو طاغوت، وقد ذكر أنّه متعدد الألوان، متنوع الأشكال، ليست له صورة واحدة يعرفه النّاس بها، فلكلّ قوم طاغوت قد يتشكل في صورة صنم أو إنسان، أو شجر، أو قبر، أو كاهن، أو أرض، أو هوى، كل هذه الأشكال وغيرها من الأشكل الكثيرة التي يتعدى بها البشر على خصائص الألوهية، ويتجاوزون الحدود، مع أنّ الله تعالى «قد شاءت إرادته أن يخلق البشر باستعداد للهدى والضلال، وأن تدع مشيئتهم حرّة في اختيار أي الطريقين، ومنحهم بعد ذلك العقل يرجحون به أحد الإتجاهين، بعدما بثّ في الكون من آيات الهدى ما يلمس العين والأذن والحسّ والقلب والعقل، حيثما اتجهت آناء الليل وأطراف النّهار ثم شاءت رحمة الله بعباده بعد هذا كلّه ألاّ يدعهم لهذا العقل وحده، فوضع لهذا العقل ميزاناً ثابتاً في شرائعه التي جاءت بها رسله، يثوب إليه العقل كلّما غمّ عليه الأمر»[٢].

إنّ القرآن الكريم يقرّر كلمته الأخيرة التي ستبقى إلى يوم الدين فهو يسوق فكرة الوحدانية بأسلوب تقابلي مع الطاغوت الذي يناقض بكل أشكاله هذه الفكرة، ليجعل جميع الناس أمام طريقين واضحين: طريق الحق، وطريق الضلال، ثمّ يترك النّاس يختارون ما يشاؤون، ولكن لكل اختيار جزاء ونتيجة ومآل، قال تعالى: { **فمن يكفُر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى** }[٣]، وقال أيضاً: { **وَالذين اجتنبوا الطاغوتَ أن يَعْبُدُوهَا وأنابُوا إلى الله لهم البُشرى** }[٤].

وكما هو ملاحَظ في هذه الآيات التي سبقت فإن القرآن الكريم يعتمد على طريقة التقابل في عرض فكرة الوحدانية خالصة من كل شائبة، ثم دحض كل صور الشرك والطغيان التي يتخذها البشر طواغيت من دون الله، ودون أي دليل أو برهان، وفائدة هذه المقابلة إبراز فكرة التوحيد في صورة كاملة لا يشوبها أي نقص أو تحريف، ثم الفصل بين الرشد والغيّ،

---

(١) بصائر ذوي التمييز - ج ٣ - ص ٥٠٩.
(٢) سيد قطب - في ظلال القرآن - ج ٤ - ص ٢١٧٠.
(٣) سورة البقرة / الآية ٢٥٦.
(٤) سورة الزمر / الآية ١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والحقّ والباطل، ووضع التصور الصحيح الذي يجب أن يتبناه البشر عن إلههم الحقّ مع تحذيرهم بأن يتسرب إلى هذا التصور شيءٌ من الانحراف والضلال الذي تسعى إليه قوى الشرّ الخفية التي خلقها الله بمشيئته وإرادته لغواية الإنسان.

٣ - الطاغوت والشيطان :

فسّر بعض علماء السلف من الصحابة والتابعين "الطاغوت" بأنّه "الشيطان"(١)، لأنّ الشيطان هو سبب كل طاغوت من حيث وجوده وانتشاره كإله بين النّاس، والشيطان في المفهوم الإسلامي هو مخلوق شقي يحمل الشرّ ويبثّه، وقد خلقه الله سبحانه ليكون عدواً للإنسان وليكون مقابلاً لقوة الخير في هذه الأرض.

وقد يسأل سائل لماذا أوجد الله تعالى الشيطان وخلق الشرّ، والإجابة أن «تلك هي مشيئة الله في هذا المخلوق الشقي التعس، لقد أراده الله ليكون الظلام الذي يواجه النور، والشرّ الذي يقابل الخير، وبهذا تتمايز الأمور، وتنكشف حقائق الأشياء.. إذ لولا الظلام ما عرف النور، ولولا الشرّ ما استبان الخير، وهكذا كل ضد يكشف عن ضده، وبضدها تتميّز الأشياء»(٢).

وقد ذكر لفظ "الشيطان" في القرآن الكريم في ثمانية وستين موضعاً، وفي جميع هذه المواضع لا يذكر "الشيطان" إلاّ في مقام العداوة والغواية للإنسان، ويحذر القرآن منه أشدّ التحذير، وينبّه الإنسان إلى أنّه لا سلامة في الدنيا والآخرة إلاّ إذا عرف حقيقة هذا العدوّ، وواجهه بقوة الإيمان، فالشيطان اللعين يلبس صورة الطبيب يقدّم الدواء، والصديق يمدّ يد العون وهو يعمل بكل الوسائل مع أهل الإيمان والتقوى لإبعادهم عن التوحيد، قال تعالى: {**ألم أعهد إليكمْ يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنّه لكم عدوٌ مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم**}(٣).

---

(١) جلال الدين السيوطي - الدر المنثور في التفسير المأثور - ط ١ دار الفكر - ج ٢ - ص ٢٢.

(٢) عبدالكريم الخطيب - التفسير القرآني للقرآن - ج ٣ - ص ٢٣٥.

(٣) سورة يس / الآية ٦٠، ٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشيطان في صراع دائم مع الإنسان،وهو لا يريد شقاءه في الدنيا فحسب، بل يريد إخلاده في نار جهنّم ليشاركه مصيره الذي انتهى إليه يوم عصى ربّه ورفض السجود لأدم- عليه السلام-(١).

قال تعالى: { **قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأقعدن لَهُم صِرَاطَكَ المستقيم ثمَّ لآتينهم من بين أيديهم ومِنْ خَلْفِهِم وعنْ أَيْمانِهِم وعَنْ شَمائِلِهِم ولا تجدُ أكثرهُم شاكِرين**}(٢).

والشيطان برفضه أمر الله سبحانه بالسجود لأدم استحق حكم الله عليه باللعنة والطرد، لكنّه طلب من الله أن ينظره ولا يعجل بإهلاكه وأن يدعه وآدم وذرية آدم، ليقيم لنفسه حجّة على الله تعالى أنّه كان محقاً في امتناعه عن السجود لآدم، لأنّ آدم- كما قدّر هذا اللعين- ليس أهلاً لهذا التكريم من الله، لأنه سيعصي الله، ويخرج من ذريته من يحادون الله ويكفرون به، وقد أملى الله لهذا اللعين، ومدّ له في حبل الغرور(٣).

ومن ذلك الحين نصب الشيطان نفسه طاغوتاً في مواجهة الله، ليتخذه الإنسان معبوداً ومتبوعاً من دون الله، وهو يستخدم لذلك وسائله الكثيرة لإبعاد الإنسان عن العقيدة، وهو لا يمل ولا يكلّ بل يبقى في صراع دائم حتى نهاية الإنسان، ولهذا حذّر القرآن الكريم في سور كثيرة منه، وجعله العدو الأول للإنسان قال تعالى: { **إنّ الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً** }(٤)، وقال أيضاً:{ **يا أيُها الذين آمنُوا ادخُلوا في السِلْم كافة ولا تتّبِعوا خطواتِ الشَيطَان إنّه لكُم عدوٌ مبين** }(٥) وقال أيضاً:{ **ألم أعهَد إليكمُ يا بني آدم أن لا تعبُدُوا الشيطان إنه لكم عدوٌ مُبينٌ** }(٦) وقال أيضاً:{ **يا بني آدم لا يفتنكم الشيطانُ كما أخرج أبويكُم من الجنّة ينزِعُ عنهُما لِبَاسهُما ليُرِيَهُما سوءاتِهما إنّه يراكمُ هو وقبيلُه من حيثُ لا ترونهَهُم إنّا جعلنا الشياطينَ**

(١) عبدالكريم الخطيب- الشيطان والإنسان - ص ٢٤ ، ٢٥
(٢) سورة الأعراف الآية ١٦ ، ١٧
(٣) عبدالكريم الخطيب - الشيطان والإنسان - ص ٢٠
(٤) سورة الإسراء الآية ٥٣
(٥) سورة البقرة الآية ٢٠٨. (٦) سورة يس الآية ٦٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولياءَ للذينَ لا يؤمنون }[١] وقال تعالى: { الشيطانُ يعدكُمُ الفقرَ ويأمركُم بالفحشاءِ واللّهُ يعدكُم مغفرةً وفضلاً واللّهُ واسعٌ عليم }[٢].

فالشيطان اللعين هو الطاغوت الأول، والعدوّ الأكبر للإنسان، وهو وراء كل الطواغيت التي عرفها البشر من حيث وجودها وانتشارها، وقد اكتسب الشيطان صفة الطاغوت بعدما جعل نفسه مقابلاً لله تعالى في صفات العبادة والاتباع، وأصبح هدفه الأول هو إبعاد النّاس عن التوحيد، وهو في ذلك مثابر لا ييأس أبداً، ومن هذا المفهوم قال الرسول صلى الله عليه وسلم :« إنّ الشيطان قد أيس أن يُعبد في بلادكم هذه أبداً، ولكن ستكون له طاعة فيما تحتقرون من أعمالكم فسيرضى به »[٣]

وسيبقى الشيطان طاغوتاً متخفياً وراء كلّ الطواغيت التي اتخذها البشر في مقابل الخالق- عز وجل- وقد شاءت حكمة الله أن يُبنى الكون كله على التقابل بين الأشياء، فكل ما في الأرض من متناقضات ومتضادات حيّرت الفلاسفة والمفكرين، وسببت عند كثير منهم النظرة التشاؤمية للحياة، كل هذه أرادها الله - عز وجل- للابتلاء والامتحان والاختبار، فالموت والحياة، والشر والخير، والمرض والصحة، والألم واللذة، والشقاء والسعادة، والفقر والغنى، كل ما يضر الإنسان، وكل ما يسُرّه، كل ذلك للابتلاء قال تعالى: { الذي خَلَقَ الموتَ والحياةَ ليَبلُوكم أيُكمُ أحسنُ عملاً }[٤]، وقال أيضاً: { ونبلوكُمُ بالشرِّ والخيرِ فتنةً وإلينَا ترجَعُونَ }[٥].

---

(١) سورة الأعراف / الآية ٢٧.

(٢) سورة البقرة / الآية ٢٦٨.

(٣) ناصر الدين الألباني - صحيح سنن الترمذي - ج٢ - ص ٢٣٠.

(٤) سورة الملك / الآية ٢.

(٥) سورة الأنبياء / الآية ٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(جـ) ظاهرة التقابل في سورة "التوبة" :

إن دراسة المقابلة في المساحة الكلية للقرآن الكريم أمر غير ميسور لأسباب ذكرنا بعضها فيما سبق، ولكون المقابلة تشكل ظاهرة واسعة في القرآن من حيث الموضوع وطريقة العرض، فالقرآن يلجأ إليها دائماً لأداء أغراض وقيم فكرية كثيرة، ومن هنا كانت طريقة واضحة وأسلوباً من أساليب العرض البارزة، وبما أنّ دراسة المقابلة في القرآن الكريم كلّه يحتاج إلى وقت وجهد كبيرين اتجه منهج البحث إلى التركيز على سورة واحدة من سور القرآن هي سورة " التوبة "، وقد نبهني إلى هذا أستاذنا الدكتور "إحسان عباس"، وحثني على تخصيص الدراسة حول هذه السورة القائمة على مقابلات كثيرة، وهذا كلّه لا يمنعني من الإستفادة مما جاء في سور القرآن الكريم الأخرى، وقبل البدء بدراسة صور التقابل في هذه السورة لا بد من الحديث عن هذه السورة، والقضايا التي تعرض لها، وعن الموضوع الذي تهتم به، ثم تأتي الدراسة التفصيلية حسب موضوعات السورة.

سورة "التوبة" مدنية بالاتفاق(١)، ولم يكتب الصحابة ولا من جاء بعدهم البسملة في أولها، لأنّها لم تنزل معها كما نزلت مع غيرها من السور(٢) ولهذه السورة أسماء كثيرة(٣)، وهي تعد من أواخر السور نزولاً إن لم تكن آخر ما نزل من القرآن الكريم، ففي صحيح البخاري روايتان تثبتان ذلك، فقد روى البخاري عن البراء قال: «إنّ آخر آية نزلت {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ}، وآخر سورة نزلت "براءة"»، وروى عن زيد ابن ثابت أنّ آخر سورة نزلت سورة "براءة"(٤)، ويرجّح محمد رشيد رضا في "المنار:" أن معظم السورة نزل في السنة التاسعة للهجرة وكانت سورة"التوبة" آخر ما نزل من القرآن(٥) وموضوعات السور نفسها مناسبة لظروف التنزيل، ومواقف الرسول صلى الله عليه وسلم المختلفة، وبناء على هذا فإنها تضمنت الأحكام النهائية في العلاقات بين الأمة الإسلامية وسائر الأمم في الأرض، كما تضمنت واقع المجتمع الإسلامي وتصنيفه وتحديد قيمه ومقاماته،

(١) محمد رشيد رضا- تفسير المنار- ج١٠ ص١٤٦
(٢) نفسه - ج١٠ ص ١٤٦
(٣) عبدالحميد كشك- في رحاب التفسير- ط المكتب المصري الحديث ج٢ ص ١٥١٠
(٤) محمد رشيد رضا - تفسير المنار - ج١٠ ص ١٤٧
(٥) نفسه - ج١٠ ص ١٤٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأوضاع كل طائفة فيه، وكل طبقة من طبقاته، ووصف واقع هذا المجتمع بجملته، وواقع كل طائفة فيه، وكل طبقة وصفاً دقيقاً مصوراً مبينا(١).

والسورة الكريمة بهذا تصور واقع المجتمع الإسلامي المدني في فترة من فتراته، وكان هذا التصوير مناسباً لعقد مقابلات بينه وبين المجتمع الجاهلي المكي، وضمن مستويات عديدة مثل المستوى العقدي، والمستوى الاجتماعي، والمستوى السياسي، والمستوى الأخلاقي و غير ذلك من المستويات.

وقبل الحديث عن القضية المركزية في السورة، والموضوعات التي تناولتها، سنتحدث عن بعض الظروف التي نزلت فيها السورة، فقد جاء في الروايات الصحيحة التي لخصها محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره(٢) أنّ النبي صلّى اللّه عليه وسلم لما قفل من غزوة "تبوك" في رمضان سنة تسع للهجرة عقد العزم على أن يحجّ في شهر ذي الحجّة من عامه، ولكنّه كره - عن اجتهاد أو بوحي من اللّه - مخالطة المشركين في الحجّ معه، وسماع تلبيتهم التي تتضمن الإشراك باللّه، أي قولهم في التلبية "لبيك لا شريك لك إلاّ شريكاً هو لك تملكه وما ملك"، وطوافهم عراة، وكان بينه وبين المشركين عهد لم يزل عاملاً لم ينقض، فأمسك عن الحجّ تلك السنة، وأمر أبابكر الصديق على أن يحجّ بالمسلمين، وأمره أن يخبر المشركين بأن لا يحجّ بعد عامه ذلك مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

وأكثر الأقوال على أنّ سورة "براءة" نزلت قبل خروج أبي بكر من المدينة، فكان ما صدر عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم صادراً عن وحي لقوله تعالى في هذه السورة: { **ما كان للمُشْرِكينَ أن يَعْمُروا مَساجِدَ اللّه** } إلى قوله { **أولئكَ أن يَكُونُوا من المُهتدين**}(٣)، وقد كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم صالح قريشاً عام الحديبية على أن يضعوا الحرب عشر سنين يأمن فيها النّاس، ويكف بعضهم عن بعض، فدخلت خزاعة في عهد رسول اللّه-صلى الله عليه وسلم- ودخل بنو بكر في عهد قريش، ثم عدت بنو بكر على خزاعة

---

(١) سيد قطب - في ظلال القرآن - ج ٣ - ص ١٥٦٤.
(٢) تفسير التحرير والتنوير - ج ١٠ - ص ٩٨، ٩٩.
(٣) سورة التوبة / الآية ١٧، ١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بسبب دم كان لبني بكر عند خزاعة قبل البعثة بمدة، واقتتلوا فكان ذلك نقضاً للصلح، واستصرخت خزاعة النبي صلى الله عليه وسلم، فوعدهم بالنصر، وتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتح مكة ثم حنين ثمّ الطائف، وحجّ بالمسلمين تلك السنة سنة ثمان "عتّاب بن أسيد"، ثمّ كانت غزوة "تبوك" في رجب سنة تسع، فلما انصرف رسول الله صلّى الله عليه وسلم من تبوك أمر أبابكر الصديق على الحجّ، وبعث معه بأربعين آية من صدر سورة "براءة" ليقرأها على النّاس، ثمّ أردفه بعلي بن أبي طالب ليقرأ على النّاس ذلك(١).

أما الموضوعات التي تناولتها هذه السورة فكثيرة ومتنوعة، ولكنّها تجتمع كلّها تحت محور واحد هو تمييز الحقّ من الباطل، وأغلب موضوعات السورة تتصل بأصول الدين وفروعه، والسنن الإلهية والتشريع، والحديث عن أحكام القتال، وما يتعلق به من الاستعداد له، وأسباب النصر فيه، وغير ذلك من الأمور الروحية والمالية، وأحكام المعاهدات والمواثيق، وأحكام الولاية في الحرب، وكذا أحوال المؤمنين الصادقين والكفار، والمذبذبين من المنافقين ومرضى القلوب(٢).

والسورة الكريمة مع كثرة موضوعاتها تهدف إلى تحقيق غرضين أساسيين كما ذهب إلى ذلك بعض الدراسين في العصر الحديث(٣)، أولهما: تحديد القانون الأساسي الذي تشاد عليه دولة الإسلام، وذلك بوضع الأحكام النهائية بين الأمة الإسلامية وغيرها من ملل الشرك والكفر. ثانياً: تصفية المجتمع الإسلامي نفسه بإظهار ما كانت عليه نفوس أتباع النبي صلّى الله عليه وسلم حين استنفروا إلى غزو الروم، ووصف واقع هذا المجتمع بجملته، وواقع كل طائفة فيه.

وسورة "التوبة" كما يظهر لنا قائمة على قضية مركزية هي تمييز الخبيث من الطيّب، أو الحق من الباطل، سواء أكان ذلك في علاقة المجتمع الإسلامي مع غيره من مجتمعات الكفر،

---

(١) محمد رشيد رضا - تفسير المنار - ج ١٠ - ص ١٥٥.

(٢) نفسه - ج ١٠ - ص ١٤٧.

(٣) سيد قطب - في ظلال القرآن - ج ٣ - ص ١٥٦٤.

وينظر عبدالله شحاتة - أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم - ط ٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦ - ج ١ - ص ١١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أم علاقة الأفراد مع بعضهم داخل المجتمع الإسلامي نفسه، والصراع بين الحق والباطل هو من المقابلات الكبرى التي تدور حولها كل سور القرآن الكريم، وإنّما كان التركيز عليها في سورة "التوبة" باعتبارها آخر ما نزل من القرآن الكريم، فقد نزلت في ظروف صعبة، وكان لابدّ أن تشمل على أحكام نهائية تحدد الطريق للمسلمين، وتبيّن الوضع الصحيح لجميع العلاقات في المستقبل، وتوضح الخطر الداخلي والخارجي الذي يتربص بالحقّ في كل وقت وحين.

وقد عددت السورة الكريمة في طرق أدائها، ووسائل عرضها للموضوعات، كل ذلك لتحقق غاياتها من الدعوة والإقناع، والتأثير والإمتاع، وكان حظ أسلوب المقابلة من ذلك كثيراً، وهو ما سيتبين في الدراسة التطبيقية، وسنبدأ بالحديث أولاً عما يتعلق بالمحورالاول من المقابلات وهو الوحدانية وتعدد الآلهة، ونتناول القضايا التي ترتبط بهذا الموضوع، وهي الوحدانية والشرك العام، والوحدانية وشرك أهل الكتاب، والوحدانية والنفاق، وهذه المقابلات الثلاثة يأتي التركيز عليها في السورة بشكل واضح وبارز وذلك لأهميتها في تحديد العلاقة النهائية بين المؤمنين الصادقين، وغيرهم من أصناف البشر الذين لازمهم الكفر بأشكاله المختلفة.

تعتمد سورة "التوبة" على أسلوب "التقابل" في عرض القضايا المهمة التي تتصل بالإنسان وعلاقته مع خالقه، وعلاقته مع غيره من بني البشر، وهذه العلاقات هي التي ستحدد طريق الإنسان في هذه الأرض ، وهي التي ستمنحه حرية الاختيار في مجال العقيدة والسلوك والحياة، واختيار أسلوب التقابل في التعبير عن هذه العلاقات أمر يقتضيه الموضوع نفسه القائم علي الصراع بين الاشياء المتقابلة، وبخاصة الصراع بين الخير والشر بأشكاله المختلفة، وأمر تقتضيه طريقة العرض المناسبة التي تلائم طبيعة هذه الموضوعات ، ومن هنا كان اللجوء إلى المقابلة لعرض قضايا السورة المهمة تحقيقاً لغايات التوجيه والإقناع، والتربية والإمتاع، وغدت هذه الطريقة في العرض إحدى السمات البارزة في التعبير، وإحدى الوسائل التي يتم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاعتماد عليها في مواضع كثيرة لما لها من قدرة على عرض الصور في أشكالها المتقابلة، والنماذج البشرية في صورها المتباينة، والقضايا المختلفة التي يأتي فيها التفريق بين ما يراه القرآن الكريم حقا وما يراه باطلا .

والوحدانية التي ذكرنا أن القرآن الكريم كلّه قائم عليها هي القضية الأساسية التي يلاحظ أن السورة الكريمة مهتمة بها ، لأن الحديث عن الوحدانية يعني الفصل التام بين الإله المستحق للعبادة والخضوع وبين الآلهة الأخرى التي اتخذها البشر أنداداً وطواغيت، وقد ذكر في السابق أن سورة التوبة هي آخر ما نزل من القرآن فكان لا بد أن تأتي فيها كلمة الفصل، والخطاب النهائي في تحديد مقومات هذه القضية، حتى يتبين للناس حقيقة التوحيد ومقتضياته ومقوماته، ولذلك جاء حديث السورة تاماً ومفصلاً في تحديد قضية الوحدانية وتحديد العلاقات التي تترتب عليها بين أهل التوحيد وغيرهم من الملل والشعوب.

ونبدأ الآن بالمقابلة الأولى الوحدانية والشرك العام التي جاء الحديث عنها في بداية السورة وفي ثناياها، قال تعالى: ﴿ **وأذانٌ من اللهِ ورَسُولهِ إلى النّاس يوم الحجّ الأكبر أنّ اللّه بريءٌ من المُشركين ورسُولهُ فإن تُبتم فهو خيرٌ لكُم وإن تَولّيتمُ فاعْلمُوا أنّكمُ غَيرُ مُعْجِزي اللّه وبشر الذين كَفَرُوا بعَذَابٍ أليمٍ**﴾(١).

ففي هذه الآية تقابل وتضاد بين الوحدانية الحقة وبين الشرك العام، وقد عبر القرآن عن هذه المقابلة بقوله تعالى: «إن الله بريءٌ من المشركين» ، والبراءة تعني انقطاع العصمة، يقال برئت من فلان أبرأ براءة، أي انقطعت بيننا العصمة، ولم يبق بيننا علاقة(٢) ، وقال الفخر الرازي: «المراد من الكلام البراءة التي هي نقيض الموالاة الجارية مجرى الزجر والوعيد، والمقصود أنّه تعالى أمر في أخر سورة الأنفال المسلمين بأن يوالي بعضهم بعضاً، ونبه به على أنه يجب عليهم أن لا يوالوا الكفار وأن يتبرؤوا منهم، فهٰهنا بيّن أنه تعالى كما يتولى

---

(١) سورة التوبة الآية ٣.

(٢) الفخر الرازي - تفسير الفخر الرازي - ج١٥ - ص ٢١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المؤمنين فهو يتبرأ من المشركين ويذمهم ويلعنهم»(١).

فالتقابل الظاهر في الآية يستفاد منه قيمة دينية هي أن الوحدانية الحقة تقتضي أمرين، أولاً : إنّ الله هو ولي المؤمنين، وإن الموالاة يجب أن تكون للمؤمنين وحدهم، فهم الذين علموا حقيقة التوحيد، وعملوا بمقتضياتها التي تعني البراءة التامة من الشرك وإخلاص التوحيد والعبادة لله وحده. ثانياً: إن الله بريئ من المشركين، وهذه البراءة التي تقابل الموالاة مبنية على أساس أنّ الشرك لا يجتمع مع الإيمان، لأنه قائم على دعائم واهية بعيدة كل البعد عن معنى التوحيد الخالص الذي جاءت به الرسل، والذي جاء تفصيله في آي القرآن العظيم.

وقال تعالى :﴿ **ما كانَ لِلمشرِكينَ أنْ يَعْمروا مَساجدَ اللهِ شاهدين على انفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خَالِدونَ إنّما يَعْمرُ مَسَاجدَ اللهِ من آمَنَ بالله واليوم الاخر وأقام الصّلاة وآتى الزكاة ولم يَخشَ إلا الله فَعَسَى أولئكَ أن يكونوا من المُهتَدِين** ﴾(٢).

في هذه الآيات تعبير قائم على االتقابل من الوحدانية والشرك في إحدى صورهما، وقد اختار التعبير النماذج البشرية المتقابلة للدلالة على خصائصهما، لأنّ طبيعة التوحيد متجسدة في أتباعه الذين يؤمنون بالله واليوم الاخر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة. ويعمرون المساجد، وطبيعة الشرك متجسدة أيضا في أتباعه الذين يشهدون على أنفسهم بالكفر، ويستحقون على ذلك المنع من دخول مساجد الله.

فمن خلال هذه الأيات يتَبيّن أنّ طبيعة الوحدانية تناقض طبيعة الشرك، ولذلك حدد القرآن أسلوبا في التعامل مع الشرك وأتباعه، فكان منعُ المشركين من دخول المساجد، وهو هنا مرتبط بما تضمنته البراءة في قوله تعالى:{ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين }(٣)، والتعامل مع المشركين جاء معللاً بكفرهم وشركهم بوحدانية الله(٤)، والمتصف بهذه الصفة محروم من دخول المساجد وعمارتها، لأن مساجد الله هي حق لله وحده، ثم أقيمت لعبادة الله لا لغيره، والكعبة هي بيت الله الحرام القائم على التوحيد منذ أول يوم بني فيه، ولذلك كله استحق المشركون درجة الحرمان من عمارة هذا المسجد، وشهادتهم بالكفر أيضا تستفاد من قولهم في الطواف: لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك ،

(١) نفسه – ج ١٥ – ص ٢٢٢.

(٢) سورة التوبة الآية ١٧، ١٨ .

(٣) سورة التوبة الآية ١ .

(٤) محمد الطاهر بن عاشور – تفسير التحرير والتنوير – ج ١٠ ص١٣٩ ، ١٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقولهم إذا سئلوا عن دينهم : نعبد اللات والعزى، أو تكذيبهم الرسول ^ (١) .

أما النموذج الذي يستحق عمارة مساجد الله فهو على النقيض من الصنف الأول في كل شيء، إنه صنف أول صفاته الإيمان بالله تعالى ثم العمل بمقتضيات هذا الإيمان كإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وقصر الخشية لله وحده، وهذا النموذج هو الممثل الحقيقي للوحدانية التي يريدها القرآن الكريم.

والغاية من هذه المقابلة بين الوحدانية والشرك المتمثلتين في النماذج البشرية هي بيان صفات المشركين الكافرين، وفي مقابل ذلك بيان صفات المؤمنين الموحدين، وبيان الصنف المستحق للهداية والرحمة، والصنف المستحق للخزي والعذاب.

وقال تعالى أيضاً : ﴿ **أجَعَلْتُم سقاية الحاجّ وعمارةَ المسجد الحرامِ كَمَنْ آمنَ باللهِ واليومِ الاخرِ وجاهدَ في سَبِيلِ الله لا يستوون عند اللهِ والله لا يهدي القوم الظالمينَ**﴾(٢)

هذه الآية كما هو ملاحظ تعتمد على طريقة المقابلة في العرض، فقد قابلت بين نموذجين من البشر، كل نموذج يشمل اتجاها عقديا خاصاً به، فالنموذج الأول يتمثل في المشركين، أما النموذج الثاني من البشر فمتمثل في المؤمنين، وقد قابلت الآية بين المؤمنين والمشركين للفصل والتفريق بين التوحيد والشرك، قال الزمخشري (٥٣٨ هـ) « المعنى إنكار أن يشبه المشركون بالمؤمنين ، وأعمالهم المحبطة بأعمالهم المثبتة، وجعل تسويتهم ظلماً بعد ظلمهم بالكفر» (٣).

والاستفهام في قوله تعالى :« أجعلتم سقاية الحاج » للإنكار المتضمن لمعنى النهي، أي لا تفعلوا ذلك فإنه خطأ ظاهر كما بينه ما بعده، ونكتة هذا التعبير بيان أن هذا الفعل ليس كالفعل الآخر، وأن الفاعل لكل منهما ليس كالآخر بل بينهما من التفاوت والدرجات (٤) .

ومن القيم الدينية التي يمكن أن تستفاد من المقابلة بين الوحدانية والشرك هي نفي

---

(١) أبو حيان الاندلسي - البحر المحيط - ج ٥ - ص ٣٨٦

(٢) سورة التوبة الآية ١٩.

(٣) الكشاف - ج ٢ ص ٢٥٦.

(٤) محمد رشيد رضا - تفسير المنار - ج ١٠ ص ٢١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التسوية بين المشركين والمؤمنين ، «أي لا يساوي الفريق الأول الفريق الثاني في صفته ولا في عمله في حكم الله ولا في مثوبته وجزائه عنده في الدنيا ولا في الاخرة فضلاً عن أن يفضله كما توهم بعض المسلمين وكما يزعم كبراء مشركي قريش كانوا يتبجحون بخدمة البيت ويستكبرون علي الناس به »(١).

والقيمة الدينية الأخرى التي تستفاد من هذه المقابلة بين المؤمنين المجاهدين وغيرهم من القاعدين لخدمة المساجد واعمار البيوت وخدمة الحجيج أن ميزان الله هو الميزان، وأن تقديره هو التقدير، فالله يهتم باخلاص العمل لوجهه الكريم، وأن يكون صواباً موافقاً للشرع ، وهؤلاء القاعدون لم يكونوا يملكون من نوايا العبادة الخالصة لله شيئاً، ولذلك جاءت الموازنة بينهم وبين المؤمنين المجاهدين لتجعلهم في مرتبة أدنى من المرتبة التي ظن الناس أنهم بها هم الفائزون ، والقاعدة عند الله في استحقاق عمارة بيوت الله هي إخلاص العمل، فلا يجوز أن يسوى الذين كانوا يعمرون الكعبة ويسقون الحجيج في الجاهلية، وعقديتهم ليست خالصة لله، ولا نصيب لهم من عمل أو جهاد، فلا يجوز أن يسوى هؤلاء لمجرد عمارتهم للبيت وخدمتهم للحجيج بالذين آمنوا إيمانا صحيحاً وجاهدوا في سبيل الله وإعلاء كلمته، وقد قال الله تعالى :« لا يستوون عند الله »، فالمقابلة بين الفريقين قد أفرزت جانب الحق وميزته عن الباطل، وجعلت المفاضلة على أساس صحة العمل والإخلاص فيه لوجه الله وحده، وهذه الآية في صورتها العامة تميّز بين الوحدانية الحقة والشرك والضلال.

والمقابلة الثانية التي اهتمت سورة التوبة بعرضها بشكل بارز هي الوحدانية وشرك أهل الكتاب، وقد مّيزت السورة في عرضها لموضوعاتها بين الشرك العام، وهو الشرك الذي كان ملازماً لقريش وبعض القبائل العربية التي كانت تعبد الأصنام وتجعلها أنداداً لله، وبين شرك أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين اتخذوا من بعض أنبيائهم وأحبارهم أرباباً من دون الله، فشرك أهل الكتاب هو شرك خاص متميّز، ولذلك فصلت السورة الكريمة الحديث عنه، وقابلت بينه وبين الوحدانية الخالصة لله تعالى، وسنعرض الآن لبعض الآيات التي فيها مقابلة بين الوحدانية وشرك أهل الكتاب لبيان القيم المختلفة التي تفيدها هذه الآيات مع بيان الغاية المعنوية والبلاغية من عرض هذه المقابلات.

---

(١) محمد رشيد رضا - تفسير المنار - ج ١٠ ص ٢١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال تعالى :﴿ وقالتِ اليهودُ عُزيرٌ ابنُ اللهِ وقالت النَّصَارى المسيحُ ابنُ اللهُ ذَلكَ قولُهُم بأفواهِهِم يضاهئون قولَ الذينَ كَفَرُوا من قبلُ قاتَلَهُم اللهُ أنى يُؤفَكونَ اتخذوا أحبارَهُم ورُهبانهم أرباباً من دونِ اللهِ والمسيحَ ابنَ مريم وما أمِرُوا إلاّ لِيَعبُدوا إلهاً واحِداً لا إله إلا هو سُبحَانَه عَمّا يُشرِكُونَ﴾(١).

الحديث في هذه الايات هو عن شرك أهل الكتاب في مقابل الوحدانية التي أمرهم الله بها فما رعوها حق رعايتها ، والآيات تتحدث حديثاً مباشراً عن صور الشرك الذي ابتدعه اليهود والنصارى وتعدوا به على خصائص الوحدانية، وشابهوا به مشركي العرب.

فالآيات تبين انحراف اليهود والنصارى في تصورهم عن الله، فقد لحقوا بأهل الشرك، وإن اختلفت طرق الشرك، فلا فرق بين من يعبد الصنم ومن يعبد المسيح وغيره (٢).

وقد بينت الآيات حقيقة الشرك الذي وقع فيه أهل الكتاب، وهو شرك بالأقوال والأفعال، فأمّا شركهم في الأقوال فقول اليهود عزير ابن الله، وقول النصارى المسيح ابن الله، وأما شركهم في الأفعال فاتخاذهم الأحبار والرهبان مصادر للتشريع، والتحليل والتحريم.

وتهدف الآيات من هذا البيان تعرية الشرك وتوضيح أسبابه وفي مقابل ذلك تحدد خصائص الوحدانية كما أرادها التصور الإسلامي الصحيح، وفي هذه الأيات بعض القيم المستفادة من السياق فمن ذلك قوله تعالى:« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله »، واتخاذ الأحبار والقساوسة أرباباً لا يعني العبادة المحضة التي تجعل منهم آلهة وأصناما بل المراد كما ذكر الفخر الرازي (٦٠٦ هـ) أنهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم(٣)، وهذا ما يسمى بحق التشريع أو الحكم الذي هو أخص خصائص الوحدانية، فالتشريع هو حق لله وحده، أمّا إذا تعدى ذلك وأصبح في أيدي البشر فهذا هو الذي يعني اتخاذ الأرباب لا في الصورة البدائية الساذجة التي عرفتها الجاهلية الأولى، ولكن في صورة ادعاء حق وضع التصورات والقيم والشرائع والقوانين والأنظمة والأوضاع بمعزل عن منهج الله للحياة (٤).

---

(١) سورة التوبة الآية ٣٠، ٣١.

(٢) أبو حيان الأندلسي - تفسير النهر الماد من البحر المحيط - تقديم وضبط بوران الضناوي وصاحبه - ط ١ دار الجنان ١٩٨٧م ج١ ص ٩٦٣.

(٣) تفسير الفخر الرازي - ج١٦ ص ٣٧.

(٤) سيد قطب - معالم في الطريق - ص ١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد جاء التعبير بطريقة المقابلة بين رؤساء الدين الذين اتخذهم أهل الكتاب أرباباً وبين الله سبحانه وتعالى المستحق للعبادة والألوهية، وهذه المقابلة تهدف إلى بطلان الباطل الذي هم عليه بعد هذا الصنيع، وبيان أنّ التشريع والحكم حقان لله وحده قال تعالى:« وما أمِروا إلاّ ليعْبدُوا إلهاً واحداً لا إله إلاّ هو سبحانه عمّا يُشركون»(١).

وقال تعالى :« يُريدوُنَ أنْ يطفئوا نُورَ اللّهِ بِأفواهِهِم ويَأبى اللّه إلاّ أنْ يُتمَّ نُورَهُ ولَو كَرِه الكَافِرون»(٢).

هذه الآية تقابل بين الوحدانية التي عبر عنها في هذا السياق بالنور، وبين شرك أهل الكتاب الذي عبر عنه بالكفر ، وبالإرادة والسعي المستمر لاطفاء نور الوحدانية، وهذه الآية وردت في سياق الحديث عن اليهود والنصارى، فهي إذن خاصة بأهل الكتاب وبأوصافهم ونواياهم وبحقيقة الشرك الذي هم عليه، والذي يناقض التوحيد مناقضة تامة، قال محمد رشيد رضا في تفسيره:« يريد اليهود والنصارى أن يطفئوا نور الله الذي أفاضه على البشر بهداية دين الحق الذي أوحاه إلى موسى وعيسى وغيرهما من رسله، ثم أتمه وأكمله ببعثة خاتم النبيين ﷺ بالطعن في الإسلام، والصد عنه بالباطل، كما فعلوا من قبل بمثل تلك الأقوال في عزير والمسيح، التي لم تتجاوز أفواههم إلى معنى صحيح، وبما ابتدعه الرؤساء لهم من التشريع، حتى صار التوحيد الذي أمروا به عندهم شركاً والعبد المربوب رباً، والعابد المألوه إلهاً، على تفاوت بين فرقهم في ذلك»(٣).

وجملة المعنى في هذا التركيب القائم على المقابلة أن اليهود والنصارى يريدون أن يطفئوا نور الله الذي شرعه لهداية عباده، وإنما قطبه الذي تدور عليه جميع عباداته توحيد الربوبية والألوهية، فتحولوا عنه إلى الشرك والوثنية، والله تعالى لا يريد ذلك، لا يريد في هذا الشأن إلاّ أن يتم هذا النور.(٤).

---

(١) سورة التوبة الآية ٣١.

(٢) سورة التوبة الاية ٣٢.

(٣) تفسير المنار - ج ١٠ ص ٣٨٣.

(٤) نفسه - ج ١٠ ص ٣٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن كمال بلاغة هذا التعبير "أنّه صالح لتفكيك التشبيه بأن يشبه الإسلام وحده بالنور، ويشبه محاولو إبطاله بمريدي إطفاء النور، ويشبه الإرجاف والتكذيب بالنفخ، ومن الرشاقة أن آلة النفخ وآلة التكذيب واحدة وهي الأفواه (١).

فالغاية من هذه المقابلة بين الوحدانية والشرك، إثبات التوحيد، وفضح الشرك والمشركين، وبيان الدعائم الواهية التي يقوم عليها، وبخاصة شرك أهل الكتاب والموصوف بالبعد عن المنهج الإلهي الذي ارتضاه الله للعباد.

ونصل الآن إلى المقابلة الثالثة وهي بين الوحدانية والنفاق التي تناولتها السورة في مواضع كثيرة منها، ذلك لأهميتها في الفصل بين الحق والباطل، هذا الباطل الذي قد يظهر في أشكال مختلفة منها النفاق وهو اظهار الايمان وابطان الكفر، وهو نوع خطير من أنواع الكفر والضلال، لذلك أفردت له السورة جانباً مهماً بين موضوعاتها، وتناولته باسهاب وكشفت عن حقيقته وفضحت أتباعه، والسورة الكريمة كما هو ملاحظ تتناول النفاق من خلال العناصر البشرية التي تبنت هذا المنهج في محاربة الإسلام وإبطال التوحيد، وفي مقابل ذلك تتحدث عن أهل الوحدانية الذين عرفوا حقيقة الايمان، وتمسكوا بحبل الله، ووالوا الله ورسوله.

قال تعالى: ﴿ **المنافقونَ والمنافقات بَعْضُهم من بعض يأمُرُونَ بالمُنكر ويَنهونَ عن المعروفِ ويقبضونَ أيديهمُ نَسُوا اللّهَ فنسِيهم إنَّ المنافقين هُمُ الفَاسِقون وعَدَ الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جَهَنَّم خالِدين فيها هي حَسبُهم ولعَنَهُم الله ولَهُم عذابٌ مُقيمٌ** ﴾ (٢).

وقال تعالى في مقابل ذلك: ﴿ **والمؤمِنونَ والمؤمناتُ بَعضُهم أولياءُ بعض يأمُرونَ بالمعروف ويَنهون عن المُنكر ويقيمُون الصَلاة ويؤتُونَ الزكاة ويُطيعُون الله ورسولَهُ أولئك سَيَرحمُهم اللّهُ إن اللّهَ عزيزٌ حَكيمٌ وعَدَ الله المؤمنين والمؤمنات جنّات تَجري من تَحْتِها الأنهارُ خالدينَ فيها ومَسَاكِن طيّبة في جنّاتِ عدنِ ورضوان من اللهِ أكبر ذلك هو الفوزُ العظيمُ** ﴾. (٣)

(١) محمد الطاهر بن عاشور – تفسير التحرير والتنوير ج ١٠ ص ١٧١.

(٢) سورة التوبة الآية ٦٧، ٦٨.

(٣) سورة التوبة الآية ٧١، ٧٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذه الآيات قائمة على طريقة المقابلة في العرض، وهي تعرض لنموذجين متقابلين من البشر، كل نموذج يمثل اتجاها عقديا تهدف الآيات إلى بيانه وتوضيحه، فالنموذج الأول يمثل المنافقين اللذين أبرز صفاتهم الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، وقبض الأيدي ونسيان الله، أما النموذج الثاني فيمثل المؤمنين الذين صفاتهم تناقض صفات المنافقين، فهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويطيعون الله ورسوله، وغاية هذا الوصف المتقابل كشف طبيعة النفاق، وجعله من الأسباب المبعدة عن طريق الإيمان، مع بيان الوحدانية وخصائصها مثل الإيمان بالله وما يتبعه من مقتضيات حددها القرآن الكريم.

يقول محمد رشيد رضا في تفسيره :« إنّ نكتة الفرق بين المؤمنين والمنافقين في الوصف المتقابل هنا أنّ المنافقين لا ولاية بينهم بأخوة تبلغ فضيلة الإيثار، ولا تناصر يبلغ الإقدام على القتال ، لأنّ النفاق سلوك وذبذبة من لوازمهما الجبن والبخل، وهما الخلقان المانعان من التناصر ببذل النفس والمال، بل قصاراه التعاون بالكلام وما لا يشق من الأعمال، وإنّما تكون ولاية التناصر بالقتال لأصحاب العقائد الثابتة، والملة الراسخة سواءً أكانت حقاً أو باطلة ... فهذا ما يتعلق بالمقابلة بين المؤمنين والمنافقين في علاقة بعضهم ببعض، وخلاصته أنّ المنافقين يشبه بعضهم بعضاً في شكهّم وارتيابهم ونفاقهم وآثارهم من قول أو عمل، وإنّ المؤمنين بعضهم أولياء بعض في الولاية العامة من أخوة ومودة وتعاون وتراحم حتىّ شبّه النبي ﷺ جماعتهم بالجسد الواحد، والبنيان يشد بعضه بعضاً، وولاية النصرة في الدفاع عن الحق والعدل والملة والوطن، وإعلاء كلمة الله عزّ وجلّ، وفي آثار ذلك من القول والعمل المضاد لما عليه المنافقون »(١).

وهذه الآيات التي اختارت طريقة المقابلة في العرض هدفت إلى كشف النفاق، وتحديد الوحدانية الخالصة، وعرض الصورة وما يقابلها من شأنه أن يبرز المعنى، ويقوي النظم، ويساهم في البيان والتوصيل.

---

(١) تفسير المنار - ج.١ ص ٥٤١،٥٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقـال تعـالى :« لا يسـتـأذنك الذينَ يُؤمِنونَ باللّه واليـومِ الآخـر أنْ يجـاهدُوا بأمـوالِهِم وأنفسِهِم واللّه عليمٌ بالمتّقين إنّما يَستَئذِنُكَ الذين لا يُؤمِنونَ باللهِ واليومِ الآخر وارتابت قُلُوبُهم فَهُم في رَيْبِهم يتردّدُونَ »(١).

تخـتـار هذه الآيات طريقـة المقـابلة في العـرض، فـهي تقـابل بين فـريق المؤمنين وفـريق المنافقين، وتبين صفات كل فريق، وتبرز في النهاية العلاقة المتناقضة بين الوحدانية والنفاق.

والقيـمة الدينيـة والفكرية التي تهـدف الآيات إلى بيـانهـا هي أن طبيـعة النفاق تخـتلف اختلافا جوهرياً عن طبيعة الإيمان، وبخاصة اذا تعلق الأمر بقضية الجهاد في سبيل اللّه الذي هو أحد اركان الايمان الأساسية، فمن صفات المؤمنين أنّهم لا يستـأذنون في الخروج أو القعود كراهة أن يجاهدوا بل إذا أمرهم الرسول ^ بشيء ابتدروا إليه، وكان الاستئذان في ذلك الوقت علامة النفاق، أما المنافقون فيفضلون الاستئذان والعقود (٢).

فـالقـاعـدة التي لا تخطئ أبداً هي أنّ المنافـقين هم المترددون في الخـروج الملتـمسـون للأعذار لعلّ عائقاً من العوائق يحول بينهم وبين النهوض بواجب الجهاد ، وفرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والسـبب في ذلك راجع إلى عـدم ايمانهم باللّه وخلو قلوبهم من التـقـوى واليقين(٣).

فطبيـعـة التـوحيـد تقـابل طبيـعـة النفاق تقـابل المتـضـادات، فلا يمكن أن يجتـمع الإيمان والنفـاق في قلب سليم، ومن هنا جعل القرآن النفـاق كـفـراً، وآفـة خطيـرة تهـدد كـيـان المجتـمع المسلم.

وحـديث سـورة التـوبة عن النفـاق واسع ومـسـتـفـيض، حـتى إنّهـا سـمـيت بالفـاضـحـة والكاشفة، لفضحها المنافقين، وكشفهـا لجميع أنواع النفاق الظاهرة والباطنة، ولا يمكن في هذا المقام دراسة جميع جزئيات الموضوع، وستأتي الدراسة التفصيلية في الجانب التطبيقي من هذه الدراسة .

---

(١) سورة التوبة الآية ٤٤ . ٤٥.

(٢) ينظر أبو حيان الأندلسي – تفسير البحر المحيط – ج٥ ص ٤٢٧.

(٣) ينظر سيد قطب – في ظلال القرآن –ج٣ ص ١٦٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث :

المقابلة وقضايا الدين والأخلاق :

أ - المقابلة بين الخير والشر.

ب- المقابلة بين الحلال والحرام.

جـ- المقابلة بين الولاء والبراء.

د - المقابلة بين الجنّة والنّار.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ليس من منهجنا في هذا البحث استقصاء جميع المقابلات التي تناولها السياق القرآني فذلك أمر متعذر، وإنّما طبيعة هذا البحث تقتضي منا أن نركّز على المقابلات الكبرى التي عُني بها القرآن الكريم، وهي بمثابة الأصل الذي تتفرع منه وتندرج تحته باقي صور التقابل، وسيكون اهتمامنا منصباً على بيان القِيَم الفكرية والصور الجمالية التي تبرز من خلال استخدام صور التقابل بأشكاله المختلفة مما يجعلها تحقق غاياتها من الإقناع والإمتاع وأهدافها في التأثير ومزج الأفكار والمعاني بالعقول والقلوب.

وقبل البدء في بيان صور المقابلات المختلفة حسب موضوعاتها ومضامينها لابدّ من التأكيد على أنّ طريقة العرض التي تعتمد على المقابلة هي إحدى طرق الأداء البارزة في المنهج القرآني، والتي كان لها الفضل الأكبر في تحقيق أهداف وغايات القرآن الإقناعية والتربوية، وبتكامل جميع طرق ووسائل القرآن في الإخراج والعرض خرج النص القرآني غاية في البيان والبلاغة، وكان معجزاً في جميع مستوياته، ولذلك قال عن نفسه: ﴿ **اللّهُ نزّلَ أحسنَ الحديثِ كِتاباً مُتَشابهاً مَثَانِي تَقْشَعرُّ منهُ جلودُ الّذين يخشونَ ربَّهُم ثُمَّ تلينُ جُلُودُهم وقُلوبُهم إلى ذِكرِ اللّهِ ذلك هُدَى اللّهِ يَهْدِي بهِ من يشاء ومن يُضْلِلِ اللّهُ فما لَهُ من هَادٍ** ﴾[1].

وسنبدأ الحديث في هذا البحث عن بعض القِيَم الدينية والأخلاقية التي أفرزتها طريقة المقابلة والتي اجتهدنا في اختيارها وتصنيفها وترتيبها حسب القيمة والأهمية، ونقصد بالقِيَم الدينية والأخلاقية ما تعارف عليه الدارسون وأهل العلم والمعرفة في مثل هذه المصطلحات، فالدين بمعناه الواسع هو الشريعة أو هو الطاعة والانقياد للشريعة[2] ولكنّنا سنستعمله هنا بمعنى أضيق من هذا وهو يتعلق بقضايا التعبّد المحض، والسلوك الروحي الخالص مثل الصلاة والدعاء وما يتعلق بالدنيا والآخرة والجنّة والنّار والحلال والحرام، وهناك قضايا اجتماعية وسياسية واقتصادية وغيرها هي من صلب الدين والعبادة وقد آثرنا أن نخصّص لها أبواباً أخرى لغايات الدراسة والتحليل، أما الخُلُق فهو ما يتعلق بالسجايا والقوى المدركة

---

(١) سورة الزمر / الآية ٢٣.

(٢) ينظر مفردات ألفاظ القرآن - الراغب الأصفهاني - ص ٣٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالبصيرة[١] مثل الخير والشر والصدق والكذب والوفاء والعذر وغير ذلك من الأخلاق التي ترتبط بالفضيلة أو الرذيلة، والدين والأخلاق مرتبطان ارتباطاً وثيقاً في الواقع العملي للإنسان، وفي مراد الشريعة الإسلامية نفسها، ولذلك جمعناهما في عقد واحد، وتحدثنا عنهما في فصل مشترك؛ وقد اخترنا - وفق المنهج الذي تبنّيناه - بعض المقابلات الكبرى التي تحدثت عنها سورة التوبة وتحدّث عنها القرآن باسهاب، وكان هدفنا من ذلك هو إبراز القِيَم الفكرية والجمالية التي تحتوي عليها النصوص القرآنية، والتي جعلت من النص القرآني نصاً متميزاً فريداً في كلّ شيء، وهذا هو الذي جعل بعض الدارسين يحدّدون مجالات أخرى للإعجاز القرآني لم يتنبه إليها علماؤنا في السابق، يقول محمد قطب: «القرآن الكريم كتاب شامل ومتميّز في جوانبه كلّها، إنّه عملاق ضخم في كلّ شيء، وفي كل زاوية يدرس منها، إنّه عملاق ضخم في منهجه الاقتصادي، عملاق ضخم في منهجه التربوي، عملاق ضخم في نظرته للنفس البشرية، عملاق ضخم في منهجه الأخلاقي، عملاق ضخم في نظام الأسرة، عملاق ضخم في منهجه السياسي، وهكذا وهكذا في كلّ مجال، بحيث تبدو المناهج البشرية إلى جواره أقزاماً ضئيلة، فوق أنّها ممسوخة الكيان»[٢].

وقال الشيخ محمد الغزالي: «قد تلوت القرآن مراراً، ورجعت بصري في آياته وسوره، وحاولت أن أجد شبهاً بين الأثر النفسي والذهني لما يكتب العلماء والأدباء، وبين الأثر النفسي والذهني لهذا القرآن، فلم أقع على شيء البتة، وقد أحكم بأن كتاباً ما صدر من مؤلف في عصر كذا، وأن جنسية هذا المؤلف ومزاجه وأهدافه هي كيت وكيت. أما بعد قراءة القرآن فأجزم أن قائل هذا الكلام محيط بالسموات والأرض، مشرف على الأولين والآخرين، خبير بأغوار الضمائر، وأسرار النفوس، يتحدث إلى النّاس تحدث السيد الحقيقي إلى عباده الذين خلقهم بقدرته، وربّاهم بنعمته، ويتناول الأمم والقرون في هالة من الجبروت والتعالي، يستحيل أن تلمح فيها شارة لتكلف أو ادعاء»[٣].

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن - الراغب الأصفهاني - ص ٢٩٧.
(٢) دراسات قرآنية - ص ١٥.
(٣) نظرات في القرآن - ص ١٤٣، ١٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ - المقابلة بين الخير والشرّ :

الخير غريزة معنوية وقد يكون قيمة مادية، وضده الشر، ومفهوم الخير «أنّه ما يرغب فيه الكلّ كالعقل مثلاً والعدل والفضل والشيء النافع، وقيل الخير ضربان، خير مطلق، وهو ما يكون مرغوباً فيه بكلّ حال، وعند كل أحدهما وصف صلّى الله عليه وسلّم به الجنّة فقال: "لا خير بخيرٍ بعده النار، ولا شر بشر بعده الجنّة"[١]، وخير وشر مقيدان وهو أنّ خير الواحد شرّ للآخر كالمال الذي ربّما كان خيراً لزيد وشراً لعمرو، ولذلك وصفه الله تعالى بالأمرين فقال في موضع ﴿ **إن ترك خيراً** ﴾[٢]، وقال في موضع آخر ﴿ **أيَحْسَبُونَ أنّ ما نمدُّهُم به مِنْ مالٍ وبنينَ نُسَارِعُ لَهُم في الخَيْرَات** ﴾[٣]، فقوله ﴿ **إنْ تَرَكَ خَيراً** ﴾ أي مالاً، وقال بعض العلماء: لا يقال للمال خير حتى يكون كثيراً ومن مكان طيّب»[٤].

لقد أقام الله سبحانه أمر الدنيا والآخرة على أساس المقابلة والقضاء بين الخير والشر، وهو ما يُفهم من نصوص القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة، فالابتلاء والمصلحة والتقييم كل ذلك قائم على الصراع بين الخير والشر في الدنيا منذ ابتدائها وإلى نهايتها، ويستنتج ذلك من قوله تعالى: ﴿ **ونَبْلُوكم بالشَرّ والخَيْرِ فِتْنَةً وإلَيْنَا تُرْجَعُونَ** ﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿ **أنْزَلَ من السَمَاءِ مَاءً فسالت أوديةٌ بقدرِها فاحْتَمَلَ السيْلُ زبداً رَابياً ومِمَا يوقِدُونَ عليه في النّار ابتغاءَ حِليةٍ أو متاعٍ زبدٌ مثلهُ كذلك يضربُ اللّهُ الحقَ والبَاطِلَ فأمّا الزّبَدُ فَيَذهَبُ جُفاءً وأمّا ما يَنفَعُ النّاسَ فَيَمْكثُ في الأرضِ كذلك يَضْرِبُ اللّهُ الأمثالَ** ﴾[٦] ففي الآية الأولى ذكر الله سبحانه أنّ الحياة مدة يعتري فيها الخير والشر جميع الأحياء، وعلّل ذلك بالابتلاء والاختبار حتى تتبيّن وتتميّز الأشياء وعلى هذا الأساس بُني نظام الحياة كله[٧].

---

(١) الفيروزآبادي - بصائر ذوي التمييز - ج ٢ - ص ٥٧٢.
(٢) سورة البقرة / الآية ١٨٠.
(٣) سورة المؤمنون / الآية ٥٥، ٥٦.
(٤) بصائر ذوي التمييز - للفيرور آبادي - ج ٢ - ص ٥٧٢.
(٥) سورة الأنبياء / الآية ٣٥.
(٦) سورة الرعد / الآية ١٧.
(٧) محمد الطاهر بن عاشور - تفسير التحرير والتنوير - ج ١٧ - ص ٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما الآية الثانية فهي تتحدث عن صورة الحق والباطل، والخير والشر في مسيرة الحياة، وقد مثّل الله سبحانه بطريقة التمثيل صورة الحق والباطل بمَثَل محسوس مشاهد «فالماء ينزل من السماء فتسيل به الأودية، وهو يلمّ في طريقه غثاء فيطفو على وجهه في صورة الزبد حتى ليحجب الماء في بعض الأحيان، هذا الزبد نافش راب منتفخ، ولكنّه بعده غثاء، والماء من تحته سارب ساكن هادىء، ولكنه هو الماء الذي يحمل الخير والحياة، كذلك يقع في المعادن التي تذاب لتصاغ منها حلية كالذهب والفضة، أو آنية أو آلة نافعة للحياة كالحديد والرصاص، فإنّ الخبث يطفو وقد يحجب المعدن الأصيل، ولكنّه بعد خبث يذهب ويبقى المعدن في نقاء، ذلك مثل الحق والباطل في هذه الحياة، فالباطل يطفو ويعلو وينتفخ ويبدو رابياً طافياً، ولكنّه بعد زبد أو خبث ما يلبث أن يذهب جفاء مطروحاً لا حقيقة له ولا تماسك فيه، والحقّ يظل هادئاً ساكناً، وربّما يحسبه بعضهم أنّه قد انزوى أو غار أو ضاع أو مات، ولكنّه هو الباقي في الأرض كالماء المحيي والمعدن الصريح ينفع الناس "كذلك يضرب الله الأمثال"»[١].

وكلمة "الحق" في الاستعمال القرآني هي الخير النافع بأشكاله كلّها فالله هو الحق قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ وأَنَّ مَا يَدْعُونَ من دُونِهِ هو البَاطِلُ ﴾[٢]، والإيمان بالله خير، والفضيلة خير، والتقوى خير، وكل ما يراه الشرع الالهي مناسباً للفطرة، وموافقة لمراد الله فهو خير، فمعنى الخير في القرآن أوسع كثيراً من معناه الأخلاقي المتداول بين أهل الفكر والفلسفة، أما الباطل فهو نقيض الخير، وهو الشرّ بأشكاله كلّها ابتداء بالطاغوت والشيطان اللذين هما سببا الشر، وانتهاءً بالرذيلة والفساد في الأرض[٣].

والقرآن الكريم لا يحفل بالنظر الفلسفي في حقائق الأشياء، ولا يُعنى بالجدل اللفظي حول ماهية الخير والشرّ، لأنّ غاية القرآن ليست في اقامة جدل عقلي عقيم، وتخريج الفلاسفة والحكماء وإنّما رسالته قائمة على تربية النفس، وتصحيح التصور، وتقويم الخُلُق، وإقامة

---

(١) سيد قطب – في ظلال القرآن – ج ٤ – ص ٢٠٥٤.

(٢) سورة الحج / الآية ٦٢.

(٣) ينظر أحمد عزالدين البيانوني- الحق والباطل – ص ٥ ، ٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العدل والخير في المجتمع المبني على أساس المنهج الإلهي[١]، كما أن رسالة القرآن هي رسالة إقناعية تأثيرية تريد أن تأخذ بيد الإنسان إلى الاعتراف والإقتناع بمنهج الله في كل شيء على وجه هذه الأرض، إنّها رسالة تهدف إلى مزج العقائد السليمة بالعقول والقلوب كي يسير الإنسان وفق معرفته لها بخطى ثابتة، وعلى منهج سليم.

لكنّ السؤال الذي قد يثار دائماً هو لماذا خلق الله الشرّ؟ ولماذا أقام الله هذه المقابلة المتواصلة بين الخير والشر في هذه الحياة؟ وجواب القرآن على ذلك هو للابتلاء والاختبار قال تعالى: ﴿ **ونَبْلُوكُم بالشرّ والخير فتنةً وإلينا تُرجعون** ﴾[٢] هذا تعليل القرآن أما لماذا لم تمحض الحياة للخير فقط؟ فقد تجنّب الإسلام - منذ قام - إيقاظ هذه الفتنة فلم يطرق بابها من أية جهة، ولم يشر إليها من قريب أو بعيد، والحكمة في هذا ظاهرة إذ لا جدوى من أن يقيم الإسلام لوجود الشرّ علّة أو عللاً، إنّه موجود وكفى "وحسبك من شرّ سماعه" والحزم كلّ الحزم في توقيه ودفعه والخلاص منه[٣].

وقد علّل الجاحظ (- ٢٥٥ هـ) هذا الامتزاج بين الخير والشر في الحياة بالمصلحة الإنسانية قال: «اعلم أن المصلحة في ابتداء أمر الدنيا إلى انقضاء مدّتها امتزاج الخير بالشرّ، والضار بالنافع، والمكروه بالسّار، والضعة بالرفعة، والكثرة بالقلة، ولو كان الشرُّ صرفاً لهلك الخلق، أو كان الخير محضاً لسقطت المحنة، وتعطلت أسباب الفكرة»[٤].

إنّ المقابلة بين الخير والشرّ تقتضيها المصلحة، ويقتضيها اختبار الله لقدرات البشر في حسن الاختيار لمنهج الله والخير الذي يحمله، أو سوء الاختيار لمناهج أخرى توقع في الشر وتؤدي إلى الهلاك، ومن هنا زاوج الله بين الأشياء، وأقام الصراع بين الحق والباطل، والخير والشرّ كلّ ذلك ليميز الخبيث من الطيّب، ويجازي كلّ واحد حسب اختياره، والله سبحانه حين مزج الخير بالشرّ وقابل بينهما بيّن السبل المؤدية إلى كليهما، ووضح الطرق التي تفضي إلى كل منهج حتى لا يتيه البشر حين يختارون ويوازنون، ثم إنّه منح البشر هدايات كثيرة لعلّ

---

(١) عبدالكريم الخطيب - التفسير القرآني للقرآن - ج ٣ - ص ٨٨٤، ٨٨٥.
(٢) سورة الأنبياء / الآية ٣٥.
(٣) عبدالكريم الخطيب - التفسير القرآني للقرآن - ج ٣ - ص ٨٨٩.
(٤) الجاحظ - الحيوان - ج ١ - ص ٩٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أكبرها هداية العقل وهداية الشرع ثم بما منح الإنسان من غرائز الفطرة التي تتحرك كلّما استدعاها الإنسان وضرب على أوتارها.

إنّ الخير والشرّ هما ميزان الحياة الذي يقدّر به الإنسان كلّ شيء يأخذه أو يدعه.. الخير في كفة والشرّ في الكفة الأخرى، هكذا تجري حياة الناس، وهكذا تجري تصرفاتهم، ويقع سلوكهم على حسب ما يشير إليه مؤشر الميزان، من رجحان إحدى الكفتين على الأخرى[١].

إنّ البشر جميعاً يدركون بدافع الفطرة معنى الخير والشرّ، ومع هذا كلّه فإنّ بعض الفلاسفة والمفكرين من ينكر وجودهما، ولا يعترف بأنّ في الحياة خيراً وشراً، وبعضهم يرى بأن الخير والشرّ نقيضان لا يلتقيان أبداً ولذلك لابدّ أن يكون لكلّ منهما إلهٌ خاص به كما هو الحال عند المثنوية، وإذا استعرضنا بعضاً من هذه الآراء نجد أنّ من أقدم الفلسفات فلسفة الفرس التي تُعرف "بالمثنوية" وهي نظرات لحكماء الفرس ترى بأنّ العالم محكوم بإلهين، ويتحكمان في مصيره، وهما إله الخير وإله الشر، وقد رمزوا لإله الخير بالنور "يَزْدان" ولإله الشر بالظلام "أهْرَمَنْ"[٢].

وقد تطورت هذه الفلسفة العجيبة بمجيء "زرادشت" حيث «أنّه أنكر الوثنية وجعل الخير المحض من صفات الله، ونزل بإله الشرّ إلى مادون منزلة المساواة بينه وبين الإله الأعلى، وبشّر بالثواب وأنذر بالعقاب، وقال بأن خلق الروح سابق لخلق الجسد، وحاول جهده أن يقصر الربانية على إله واحد موصوف بأرفع ما يفهمه أبناء زمانه من صفات التنزيه»[٣].

فالخير عند "زرادشت" غالبٌ دائماً، والشرّ مغلوب منظور إلى أجل مسمى[٤] وخلاصة رأيه أنّ النور هو الأصل، وأن وجوده وجود حقيقي، أما الظلمة فتبع له، كالظل بالنسبة إلى الشخص، ولما كان الباري يُرى أنّه موجود، وليس بموجود فقد أبدع النور، وحصل الظلام تبعاً

---

(١) عبدالكريم الخطيب - التفسير القرآني للقرآن - ج ٣ - ص ٨٧٦.
(٢) نفسه - ج ٣ - ص ٨٧٩.
(٣) عباس محمود العقاد - الله - ص ٩٣ - ط ٣ - دار المعارف مصر.
(٤) نفسه - ص ٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لانّ من ضرورة الوجود التضاد[١].

وتتفق فلسفة "زرادشت" مع أحدث النظريات الفلسفية والأخلاقية التي تقول إن الخير والشر لا يوجدان خالصين، والخير ممتزج بالشرّ، والشرّ معه الخير[٢] ولكنّ هذه الفلسفة تختلف مع النظرة القرآنية إلى الخير والشرّ اختلافاً جوهرياً، أمّا الفلسفة الحديثة فقد عُنيت بهذه القضية كما أنّها اهتمت بالإنسان وسلوكه وأخلاقه، وقد انصبّ اهتمامها على الإنسان، وأصبح مركز الدائرة التي تدور حولها الفلسفة الحديثة وإذا كان لها نظر إلى المجتمع والروابط التي تربط الفرد بالجماعة فهو نظر جانبي، و من هنا كان الحكم على الخير والشر - في تقدير الفلسفة الحديثة - قائماً على أساس فردي بحت، بمعنى أنّ الفرد -والفرد وحده- هو الذي له أن يحكم على هذا الأمر بأنّه خير أو شر، ثم إنّه ليس هذا بالذي يمنع من أن يجيء غيره فينقض عليه حكمه، فيرى ما رآه غيره خيراً شراً، وما رآه شراً هو عنده خير، وعلى هذا فهناك - عند الفلسفة الحديثة - خير وشر، ولكن لا ذاتية للخير والشرّ، بل هما أمران اعتباريان، فالخير ما رآه الإنسان خيراً، والشرّ ما رآه شراً.. وإنّه لا خير ولا شرّ في حقيقة الأمر، وفي هذا يقول الفيلسوف الأمريكي "وليم جيمس": «إن الإنسان هو مصدر الخير والشر، والفضيلة والرذيلة.. إنّ الخير خير بالنسبة له، والشرّ شر بالقياس إليه، إنّ الإنسان هو الخالق الوحيد للقِيَم في ذلك العالم، وليس للأشياء من قيمة خُلُقية إلاّ باعتباره هو»[٣].

وهذا الرأي هو خلاصة ما ذهبت إليه بعض الفلسفات الحديثة التي اهتمت بالقيم المادية، وبالمناهج التجريبية اهتماماً كبيراً حتى طغت على كل المفاهيم، وهذا ما جعلها تنظر إلى الإنسان نظرة إكبار وإجلال وتجعله في الموضع الذي لا يستحق، فقد جعلت منه صانعاً للقيم والأخلاق، وجعلته حاكماً ومشرّعاً يرى الأمور بمنظار العقل وحده فيحكم على الأشياء والحقائق ويضع الموازين، فيقول هذا خير وذاك شرّ، هذا حَسَن وذاك قبيح، وهذا ما أدّى بالقيم والموازين إلى التناقض والاختلاف، وإلى سيطرة الأهواء البشرية، والشهوات الإنسانية، وهذا هو الذي قاد البشرية إلى التيه والضياع، أمّا المنهج الإسلامي فهو يختلف اختلافاً كبيراً عن هذه

---

(١) عبدالكريم الخطيب - التفسير القرآني للقرآن - ج ٣ - ص ٨٨٠.

(٢) ينظر عبدالكريم الخطيب - التفسير القرآني للقرآن - ج ٣ - ص ٨٨٠.

٣) نفسه ج ٣ - ص ٨٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفلسفات والمناهج البشرية، لأنّه منهج إلهي بالدرجة الأولى، وهو لذلك مختلف عن المناهج البشرية الأخرى في مضمونه وطرق أدائه، يقول الفخر الرازي رحمه الله (- ٦٠٦ هـ): «لقد اختبرت الطرق الكلامية، فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم، لأنّه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى، ويمنع عن التعمّق في إيراد المعارضة والمتناقضات، وماذاك إلاّ للعلم بأنّ العقول البشرية تتلاشى وتضمحل في تلك المضايق العميقة والمناهج الخفية»(١).

وهذا الذي ذهب إليه الفخر الرازي بعد طول تأمل، وكثرة ممارسة هو حقيقة من حقائق القرآن الكريم، فهو كتاب لا يحفل بالنظر الفلسفي في حقائق الأشياء، ولا يُعنى بالجدل اللفظي حول مفاهيمها، لأنّ غايته ليست تكوين القدرات العقلية، ولا تخريج الفلاسفة والمفكرين، إنّ هدفه هو تربية الإنسان، وتحسين سلوكه، وتقويم سلوك الأفراد داخل المجتمعات، وإقامة المجتمعات على أساس الخير والعدل، و«من هنا لا نجد في الشريعة الإسلامية تلك التعريفات الجامعة المانعة للخير والشر، والحق والباطل، والحَسَن والقبيح، وغير ذلك من الصور التي عُني الفلاسفة والأخلاقيون بتحليلها، والتعرّف على عناصرها، وجمع الصفات المميّزة لكل واحد منها»(٢).

إننا نجد في القرآن الكريم اهتماماً كبيراً بالجانب العملي للقِيَم والأخلاق، واهتماماً بثمرة السلوك الإنساني، إنّه يُعنى بما ينفع الإنسان في حياته، ويعنى بالأعمال الصالحة ويحض عليها، ويدعو إلى الأخلاق الكريمة ويجازي عليها بالخير وبالجنّة، إنّه يسعى إلى بناء الإنسان على أسس التقوى والصلاح، وبناء المجتمع على أسس العدل والرحمة والأخوة.

وإذا كنا لا نجد في القرآن الكريم تعريفات محدّدة للخير والشر، فما هو الخير والشرّ في نظر القرآن الكريم؟ إنّ هناك أموراً واضحة صريحة في باب الخير، كما أنّ هناك أموراً واضحة صريحة في باب الشرّ، والقرآن الكريم يعترف بذلك كلّه لأنهما شيئان متصارعان في الحياة،

---

(١) الفخر الرازي - التفسير الكبير - ج ١ - ص (م).

(٢) عبدالكريم الخطيب - التفسير القرآني للقرآن - ج ٣ - ص ٨٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهما متقابلان تقابل النقيض لنقيضه[١]، ولكن ما يميّز المنهج القرآني أنّه يدعو إلى ما يراه خيراً، وينهى عن الذي يراه شراً، وقد عدّ أموراً وحقائق من الخير المحض، وعدّ أموراً أخرى من الشرّ، ثم إنّه جمع الخير كلّه في دائرة واحدة هي "المعروف"، وطوى الشرّ كله تحت حكم واحد هو "المنكر"، فالخير هو "المعروف" وهو "التقوى" وهو "الفضيلة"، أما الشرّ فهو "المنكر" وهو "الكفر" وهو "الرذيلة"، ومن هذه المتضادات ينشأ الصراع الذي نراه في الحياة بين الخير والشرّ.

ونمضي الآن إلى بيان نظرة القرآن الكريم إلى الخير والشرّ من خلال بعض الآيات في سورة "التوبة" - والتي ركّزنا حولها هذه الدراسة - ولابدّ من الإشارة إلى اتساع هذا الموضوع، وشموله لقضايا كثيرة تتعلق بالحياة الإنسانية كلّها، وحسبُنا أن نشير إلى بعض الآيات التي فيها حديث عن الخير والشر في صورة تقابلية، والتي سيكون فيها غناء عن كل ما يتعلق بهذا الموضوع الواسع، ونشير كذلك إلى أن طريقة العرض التي سيختارها القرآن الكريم ستكون المقابلة، حيث يمكن الجمع بين المتضادات لتعرض الصورة كاملة، ولتعرف النفس البشرية حقائق الأشياء سواء أكانت خيراً أو شراً، ضرراً أو منفعة، ثم لتعرف كيف تختار بين هذا وذاك، ولتعرف السير على وعي تام ووفق منهج واضح يقودها إلى إحدى الطريقين.

قال تعالى: ﴿ **أَفَمَن أَسَّس بُنْيَانَهُ على تَقْوَى منَ اللّهِ ورضْوانٍ خيرٌ أم من أَسَّس بُنْيَانَهُ على شَفَا جُرُفٍ هارٍ فانْهَارَ به في نارِ جَهنّم واللّهُ لا يَهْدِي القوم الظّالِمِينَ** ﴾[٢].

هذه الآية الكريمة تقابل بين الخير والشر أو الحق والباطل أو التقوى والكفر وفق طريقة القرآن الكريم المتميّزة في التعبير، وهي آية حافلة بالحركة والتصوير وهي قائمة على طريقة المقابلة في الأداء، وقبل الحديث عن القِيَم الجمالية والتعبيرية فيها لابدّ من الحديث عن القِيَم المعنوية والفكرية التي تريد الآية توصيلها عند حديثها عن الخير والشر في مثل هذه الصورة.

إنّ الآية الكريمة تُمثّل للخير والشر ببناءين، كلّ واحد منهما قائم على قاعدة سواء أكانت

---

(١) ينظر عبدالكريم الخطيب - التفسير القرآني للقرآن - ج ٣ - ص ٨٨٨.

(٢) سورة التوبة / الآية ١٠٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذه القاعدة صلبة أو غير ذلك، وكلّ بناء يمثل تصوّراً خاصاً، وموقفاً واضحاً من العلاقة بالله وبشرعه، كما أنّ الآية تريد من المستمع أو القارىء أن يوازن ويقارن بين هذين البناءين ثم يحكم على خيرية أحدهما وشرية الآخر. وكان السؤال هل مَنْ أسس بنيانه على الاسلام خير أم مَنْ أسّس بنيانه على الشرك والنفاق[١].

قال الزّمخشريُّ (- ٥٣٨ هـ): «أفمن أسّس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة وهي الحق الذي هو تقوى الله ورسوله خير أم من أسّس بنيانه على قاعدة هي أضعف القواعد وأوهاها وأقلّها بقاء، وهو الباطل والنفاق الذي مثّله مثل جرف هار في قلّة الثبات والاستمساك، ووضع شفا الجرف في مقابلة التقوى»[٢].

والقيمة الفكرية التي ترمي إليها هذه الآية باستخدامها طريقة التقابل بين معنيين، كل واحد منهما يناقض الآخر ويضاده هي بيان ثبات الحق الذي هو دين الإسلام وقوته دوامه وسعادة أهله به، وذكر الله بأثر ذلك ثمرة هذا الدين في عمل أهله وهي التقوى، وبجزائهم عليه وأعلاه رضوان الله تعالى، وبيان ضعف الباطل واضمحلاله ووهيه وقرب زواله، وخيبة صاحبه وسرعة انقطاع آماله، وشرّ أهله المنافقين[٣].

يقول محمد رشيد رضا في تفسير "المنار" في بيان معنى الآية والقِيَم المعنوية التي تؤديها: «نقول في المعنى الجامع بين المشبه به في الفريقين: أفمن أسس بنيانه الذي يتخذه مأوى وموئلاً له يقيه من فواعل الجوّ وعدوان كل حيّ، وموطناً لراحته وهناءة معيشته على أمتن أساس وأثبته، وأقواه على مصابرة العواصف والسيول، وصدم الهوام والوحوش هو خير بنياناً وراحة وأماناً، أم من أسّس بنيانه على أوهى القواعد وأقلّها بقاء واستمساكاً فهي عرضة للانهيار في كل لحظة من ليل أو نهار، وأما معنى المشبه المقصود بالذات في كل منهما فيتصور هكذا: أفمن كان مؤمناً صادقاً يتّقي الله في جميع أحواله ويبتغي رضوانه في أعماله بتزكية نفسه بها، ونفع عياله، أفمن كان كذلك خير عملاً وأفضل عاقبة وأملاً أم مَنْ هو منافق

---

(١) أبوحيان الأندلسي - البحر المحيط - ج ٥ - ص ٥٠٦.
(٢) الزمخشري - الكشاف - ج ٢ - ص ٣١٢.
(٣) محمد رشيد رضا - تفسير المنار - ج ١١ - ص ٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مرتاب، مراء كذاب يبتغي بأفضل مظاهر أعماله الضرر والضرار، وتقوية أعمال الكفر وموالاة الكفار، وتفريق جماعة المؤمنين الأخيار»[١].

إن المعنى الذي يريد القرآن الكريم أن يؤديه من خلال هذه الآية هو أن بنيان الخير بمعانيه كلّها قائم على قواعد ثابتة متينة، وأن بنيان الشرّ بأشكاله كلّها متزعزع الأركان والجدران، آيل للسقوط في كل لحظة وحين، وأن المؤمن في مقابل الكافر والمنافق هو بالتقوى المستحق لولاية الله، وهو المستحق للبقاء والثبات.

أما القِيَم الجمالية والتعبيرية في الآية الكريمة فتبرز من خلال طرق العرض والأداء التي يختارها القرآن في تعبيره عن قضاياه، فقد جاءت الآية ابتداء بصيغة الإستفهام التقريري "أفمَنْ"، وهو من أقوى الأساليب في الإقناع، وأكثرها قدرة على اثارة المخاطب وتحريك أفكاره ومشاعره، ثم إن الآية تختار طريقة التصوير في أداء المعاني، وهي طريقة لها وظيفتها المتميّزة في عملية الإقناع والإمتاع، والملاحَظ في هذه الآية أنّ المعنى مؤدى في صورتين متقابلتين، صورة تمثّل بنيان الحق والخير الثابت، وصورة أخرى مناقضة تماماً للصورة الأولى وهي لبنيان الكفر والشر المتزعزع.

لقد اجتمعت في الآية طريقتان في العرض، طريقة التصوير وطريقة المقابلة، وهما طريقتان متكاملتان منسجمتان، وهذا من خصائص الأسلوب القرآني الذي ينوّع في الوسائل ويعدد في الأساليب، فحينما تعرض الصورة الأولى ثم الصورة التي تقابلها تقابل تضاد واختلاف، فإنّ هذا من أقوى الأساليب في التأثير والاقناع، فالبنيان المتماسك في الصورة الأولى يقابله البنيان المتزلزل في الصورة الثانية، والتقوى يقابلها الجرف الحصار، والرضوان يقابله نار جهنّم، وبهذا تكون قد تحققت شروط المقابلة في الجزئين وفي الصورتين.

«فلنقف لحظة نتطلع إلى بناء التقوى الراسي الراسخ المطمئن، ثمّ لنتطلع بعد إلى الجانب الآخر لنشهد الحركة السريعة العنيفة في بناء الكفر إنّه قائم على شفا جرف هار، قائم على

---

(١) محمد رشيد رضا - تفسير المنار - ج ١١ - ص ٤٥، ٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حافة جرف منهار، قائم على تربة مخلخلة مستعدة للانهيار، إننا نبصره اللحظة يتأرجح ويتزحلق وينزلق، إنّه ينهار! إنه ينزلق! إنّه يهوى! إنّ الهوة تلتهمه! يا للهول إنّها نار جهنّم»[١].

وإنّ صورة البناء المنهار هي صورة القلق وعدم الاستقرار وصورة البناء الثابت المتماسك هي صورة الثبات والتماسك والاستقرار، وهما تتقابلان في اللوحة الفنية العجيبة التي يرسمها التعبير القرآني الفريد، وتتقابلان في الواقع البشري المتكرر في كل زمان... «وهذا هو الإعجاز الذي يرسم الواقع النفسي بريشة الجمال الفني، في مثل هذا التناسق بمثل هذا اليسر في التعبير والتصوير على السواء»[٢].

وقال تعالى في بيان صور الخير والشرّ: ﴿ **المُنَافِقُونَ والمنافقات بعضهم من بعضٍ يأمرون بالمُنكر ويَنْهَون عن المعروف ويقبضُونَ أيديهم نَسُوا اللّهَ فَنسِيَهُم إنّ المنافقينَ هم الفَاسِقُونَ** ﴾[٣] وقال تعالى أيضاً: ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياءُ بعض يأمرون بالمَعْرُوف وينهون عن المُنكر ويقيمُونَ الصلاة ويؤتونَ الزكاة ويُطيعون الله ورسوله أولئك سَيَرْحَمُهُم اللّهُ إنّ الله عزيزٌ حكيمٌ** ﴾[٤].

هاتان الآيتان قائمتان على المقابلة، فكلّ لفظة من ألفاظهما مقابلة بلفظة هي لها من طريق المعنى بمنزلة الضد، فالمنافقون والمنافقات تقابل "المؤمنون والمؤمنات" و"بعضهم من بعض" تقابل "بعضهم أولياء بعض" و"يأمرون بالمنكر" تقابل "يأمرون بالمعروف" و"ينهون عن المعروف" تقابل "ينهون عن المنكر" و"يقبضون أيديهم" تقابل "يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة"، و"نَسوا الله فنسيهم" تقابل "أولئك سيرحمهم الله"، وغاية هذه المقابلة بيان طبائع النفوس لنموذجين من البشر يمثلان الخير والشرّ في صورة من صورهما، وسرد صفات هذين النموذجين من البشر سيجعلنا نعرف طبيعة الخير المتمثّل في "المعروف" وما يتبعه من مقتضيات، ونعرف طبيعة الشر وما يجمعه من صفات وأحوال.

---

(١) سيد قطب - في ظلال القرآن - ج ٣ - ص ١٧١١.
(٢) نفسه - ج ٣ - ص ١٧١٢.
(٣) سورة التوبة / الآية ٦٧.
(٤) سورة التوبة / الآية ٧١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والقِيَم المعنوية التي ترمي إليها هاتان الآيتان المتقابلتان هي أولاً: «أنّ النفاق حالة واحدة وأنّ أصحابه سواء، وليُعلم أنّ اختراق أحوالهم بين عفو وعذاب لا يكون إلاّ إذا اختلفت أحوالهم بالإيمان والبقاء على النفاق، وإن أحوالهم وصفاتهم التي ذكرها الله تعالى هي الدالة على استحقاق العذاب»[١].

ثانياً : أن المنافقين يجتمع بعضهم مع بعض على النفاق[٢] وهم متشابهون فيه وصفاً وعملاً، وفي كل زمان ومكان.

ثالثاً : إنّ من أهم صفات المؤمنين التي يمتازون بها على المنافقين وعلى غيرهم من الكفار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمعروف هو الخير كما ذكرنا، وهو ما عرفه الشرع من إيمان وطاعة وخير، أما المنكر فهو الشرك والمعصية وما لا يعرف في الشرع[٣] وكل ما ذكر الله في القرآن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو النهي عن عبادة الأوثان والشياطين[٤].

رابعاً : «إن نكتة الفرق بين المؤمنين والمنافقين في الوصف المتقابل هنا أنّ المنافقين لا ولاية بينهم بأخوة تبلغ فضيلة الإيثار، ولا تناصر يبلغ الإقدام على القتال، لأنّ النفاق سلوك وذبذبة من لوازمهما الجبن والبخل، وهما الخلقان المانعان من التناصر ببذل النفس والمال، بل قصاراه التعاون بالكلام وما لا يشقّ من الأعمال وإنّما تكون ولاية التناصر بالقتال لأصحاب العقائد الثابتة، والملة الراسخة سواء أكانت حقاً أم باطلة، ولذلك أثبتها القرآن لليهود والنصارى بعض كلّ منهما لبعض، وللكفار على الإطلاق، ولم يثبتها للمنافقين الخلّص بعضهم مع بعض... فهذا ما يتعلق بالمقابلة بين المؤمنين والمنافقين في علاقة بعضهم ببعض، وخلاصته أنّ المنافقين يشبه بعضهم بعضاً في شكّهم وارتيابهم ونفاقهم وآثارهم من قول أو

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور - تفسير التحرير والتنوير - ج ١٠ - ص ٢٥٣، ٢٥٤.

(٢) ينظر الماوردي - النكت والعيون (تفسير الماوردي) - ج ٢ - ص ٣٧٩ - تحقيق عبدالمقصود بن عبدالرحيم - ط ١ - دار الكتب العلمية: بيروت، ١٩٩٢.

(٣) البغوي - تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل - ج ٢ - ص ٣١٠ - تحقيق خالد عبدالرحمن العك ومروان سوار - ط ١ - دار المعرفة: بيروت، ١٩٨٦م.

(٤) ينظر القرطبي - الجامع لأحكام القرآن - ط مؤسسة مناهل العرفان، بيروت - ج ٤ - ص ٢٠٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عمل، وإنّ المؤمنين بعضهم أولياء بعض في الولاية العامة من أخوة ومودة وتعاون وتراحم حتى شبّه النبي صلّى الله عليه وسلم جماعتهم بالجسد الواحد، وبالبنيان يشدّ بعضه بعضاً، وولاية النصرة في الدفاع عن الحقّ والعدل والملة والوطن، وإعلاء كلمة الله عزّ وجلّ، وفي آثار ذلك من القول والعمل المضاد لما عليه المنافقون»[١].

فالآيتان المتقابلتان تقابل الضد تبرزان إذن صوراً من الخير والشرّ كما هما في نظر المنهج القرآني، والملاحَظ هنا أنّ السياق القرآني لا يهتم بالأمور من حيث ماهيتها بل يهتم بالسلوك العملي، والممارسة التطبيقية لما يراه حقاً وخيراً مع الابتعاد عمّا يراه باطلاً وشراً.

أمّا من حيث القِيَم التعبيرية في الآيتين فإنّ المتأمل يلاحظ بوضوح أنّ السياق القرآني يفضل أسلوب المقابلة في العرض، وهو الأسلوب في الأداء الذي يمكن بواسطته الجمع بين المعاني المتضادة والمختلفة، ففي هاتين الآيتين جاءت الصفات الأربع في المؤمنين وهي الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة جاءت لتقابل صفات المنافقين وهي الأمر بالمنكر، والنهي عن المعروف، ونسيان الله وقبض الأيدي، وإن رحمة الله للمؤمنين تقابل لعنته للمنافقين والكفار وهذا التقابل بين هذه المعاني المتضادة هو الذي أبرز تلك القِيَم المعنوية والفكرية التي يريد القرآن الكريم توصيلها إلى الناس، ومن هنا بدا واضحاً لنا أنّ «المنافقين والمنافقات بعضهم من بعض إذا كانوا جبلّة واحدة وطبيعة واحدة، فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، وإن المنافقين والمنافقات مع وحدة طبيعتهم لا يبلغون أن يكونوا أولياء بعضهم لبعض، فالولاية تحتاج إلى شجاعة وإلى نجدة وإلى تعاون وإلى تكاليف، وطبيعة النفاق تأبى هذا كلّه ولو كان بين المنافقين أنفسهم. إن المنافقين أفراد ضعاف مهازيل، وليسوا جماعة متماسكة قوية متضامنة... أما المؤمنون فبعضهم أولياء بعض أي أن طبيعة المؤمن هي طبيعة الأمة المؤمنة، طبيعة الوحدة وطبيعة التكافل وطبيعة التضامن، ولكنّه التضامن في تحقيق الخير ودفع الشر»[٢].

---

(١) ينظر محمد رشيد رضا - تفسير المنار - ج ١٠ - ص ٥٤١، ٥٤٢.

(٢) سيد قطب - في ظلال القرآن - ج ٣ - ص ١٦٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد عرفنا السياق على صفات المؤمنين الحقيقيين، كما عرّفنا على صفات المنافقين[١] وهذا السياق قائم على طريقة التقابل في الأداء ولم تأت هذه المقابلة لأداء غرض بلاغي محدود هو تحسينه وتنميقه بل إنها طريقة رائعة في العرض، وإنّها أبرزت القِيَم الفكرية والمعنوية التي يريد القرآن الكريم توصيلها إلى النفوس.

وقال تعالى: ﴿ **ما كان للمُشركينَ أن يَعْمُرُوا مساجد اللهِ شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون إنّما يعمر مساجد اللهِ من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلاّ الله فَعَسَى أولئك أن يكونوا من المهتدين** ﴾[٢].

يتحدث القرآن الكريم بطرق كثيرة عن صور الخير والشرّ كما يراها في واقع النّاس، وفي هاتين الآيتين المتقابلتين تقابل تضاد حديث متميز عن الخير والشر في شكل من أشكالهما، والآيتان كسابقتيها تتحدثان عن صنفين من الناس، وعن طبيعة كل صنف، وتبرزان الحقيقة الكبرى التي يريد القرآن توضيحها وهي تمييز الخبيث من الطيب، والمنكر من المعروف.

ومن القِيَم المعنوية والفكرية التي أدتها الآيتان أنّ الله سبحانه منع المشركين من دخول المساجد، وهو هنا مرتبط بما تضمنته البراءة في قوله تعالى: ﴿ **براءةٌ من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين** ﴾[٣] ولما اتصل بتلك الآية من بيان النبيّ -صلّى الله عليه وسلم- الذي أرسل به مع أبي بكر الصديق، أن لا يحجّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، وهو توطئة لقوله: ﴿ **يأيّها الذين آمنوا إنّما المشركُونَ نَجسٌ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا** ﴾[٤]، والتعامل مع المشركين جاء معللاً بكفرهم وشركهم بوحدانية الله[٥]. والمتصف بهذه الصفة محروم من دخول المسجد وعمارته، لأنّ مساجد الله هي حق لله وحده، ثم هي أقيمت لعبادة الله لا لغيره، والكعبة هي بيت الله الحرام القائم على

---

(١) سعيد حوى - الأساس في التفسير - ج ٤ - ص ٢٢٩٤.
(٢) سورة التوبة / الآية ١٧، ١٨.
(٣) سورة التوبة / الآية ١.
(٤) سورة التوبة / الآية ٢٨.
(٥ محمد الطاهر بن عاشور - تفسير التحرير والتنوير - ج ١٠ - ص ١٣٩، ١٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التوحيد منذ أول يوم بني فيه ولذلك كلّه استحقوا درجة الحرمان من عمارة هذا المسجد، وشهادتهم بالكفر أيضاً تستفاد من قولهم في الطواف: لبيك لبيك لا شريك لك إلاّ شريكاً هو لك تملكه وما ملك وقولهم إذا سئلوا عن دينهم: نعبد اللات والعزى، أو تكذيبهم الرسول صلّى الله عليه وسلم[١].

أما الصنف الذي يستحق أن يدخل مساجد الله فهو على النقيض من الصنف الأول في كل شيء، إنّه صنف أول صفاته الإيمان بالله تعالى ثم العمل بمقتضيات هذا الإيمان كالإيمان باليوم الآخر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وقصر الخشية لله وحده سبحانه.

ومجيء صيغة القصر في الآية بقوله تعالى: ﴿ **إنما يعمر مساجد الله** ﴾ إنّما المقصود منه إقصاء فرق أخرى عن أن يعمروا مساجد الله غير المشركين الذين كان إقصاؤهم بالصريح، فتعين أن يكون المراد من الموصول وصلته خصوص المسلمين، لأنّ مجموع الصفات المذكورة في الصلة لا يثبت لغيرهم، فاليهود والنصارى آمنوا بالله واليوم الآخر لكنّهم لم يقيموا الصلاة ولم يؤتوا الزكاة، لأنّ المقصود بالصلاة والزكاة العبادتان المعهودتان بهذين الإسمين والمفروضتان في الإسلام... وفرّع على وصف المسلمين بتلك الصفات رجاء أن يكونوا من المهتدين أي من الفريق الموصوف بالمهتدين، وهو الفريق الذي الاهتداء خلقٌ لهم في هذه الأعمال، وفي غيرها[٢].

«فهذه هي القاعدة في استحقاق عمارة بيوت الله، وفي تقويم العبادات والشعائر على السواء يُبيّنها الله للمسلمين والمشركين فما يجوز أن يُسوّى الذين كانوا يعمرون الكعبة ويسقون الحجيج في الجاهلية، وعقيدتهم ليست خالصة لله، ولا نصيب لهم من عمل أو جهاد، لا يجوز أن يسوى هؤلاء -لمجرد عمارتهم للبيت وخدمتهم للحجيج- بالذين آمنوا إيماناً صحيحاً وجاهدوا في سبيل الله واعلاء كلمته»[٣].

وكما هو ملاحَظ فإنّ القرآن الكريم يختار هذا أيضاً طريقة المقابلة للتعبير عن هذه القِيَم

---

(١) أبوحيان الأندلسي - البحر المحيط - ج ٥ - ص ٣٨٦.

(٢) محمد الطاهر بن عاشور - تفسير التحرير والتنوير - ج ١٠ - ص ١٤١، ١٤٢.

(٣) سيد قطب - في ظلال القرآن - ج ٣ - ص ١٦١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المعنوية والفكرية، وغاية هذه المقابلة هي بيان صفات المشركين الكافرين، وفي مقابل ذلك بيان صفات المؤمنين الموحدين، وعلى غرار ذلك بيان الصنف المستحق للخير والحق، والصنف المستحق للشر والباطل، ومصير كل صنف في الحياة الدنيا والآخرة، وهو من باب تمييز الخير والشر، وقد قال تعالى في آية أخرى ﴿ **أفنجعلُ المسلمين كالمُجْرِمِينَ ما لكم كيف تحكمون** ﴾[1].

(١) سورة القلم / الآية ٣٥، ٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب- المقابلة بين الحلال والحرام :

الحلال والحرام هما عنصران من عناصر الخير والشر، وقد أفردنا لهما باباً خاصاً هنا لخصوصية هذا الموضوع وارتباط كثير من القضايا الكبرى في الدين به، ولارتباطه كذلك بأخص خصائص الوحدانية - كما ذكر في السابق - وهي الحاكمية، وقد اهتم القرآن الكريم بهذا الموضوع في كثير من سوره، لأنّه الجانب الذي ينكره المنكرون، وهو الجانب الذي تحدى فيه البشر ألوهية الله ووحدانيته وحقه في الحكم والتشريع، فأحلّوا وفق أهوائهم ما حرّم الله، وحرّموا وفق شهواتهم ما أحلّ الله تعالى.

والحلال ضد الحرام، قال تعالى: ﴿ **يأيّها الذين آمنوا لا تحرّموا طيّبات ما أحلّ الله لكم ولا تعتدوا إنّ الله لا يحب المعتدين وكلوا ممّا رزقكم الله حلالاً طيّباً واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون** ﴾[١].

«فهذا خطاب للمؤمنين خاصة نهاهم الله أن يحرّموا طيّبات ما أحلّ الله لهم، والتحريم هو العقد على ما لا يجوز فعله للعبد والتحليل حلّ ذلك العقد»[٢].

والحرام في مفهومه الشامل هو «الممنوع منه إمّا بتسخير إلهي وإمّا بشري، وإمّا بمنع قهري، وإمّا بمنع من جهة العقل أو من جهة الشرع أو من جهة من يرتسم أمره»[٣]. وهو المقصود في قوله تعالى ﴿ **لا تحرّموا طيّبات ما أحلّ الله لكم** ﴾ أما الحلال فهو ما سخره الله للناس من طيّب الطعام وما ناسب نداء الفطرة، وهو المقصود في قوله تعالى ﴿**وكلوا ممّا رزقكم الله حلالاً طيباً**﴾ «أي كلوا مما رزقكم الله تعالى إياه حال كونه حلالاً في نفسه غير داخل فيما حرّمه الله عليكم -من الميتة بأنواعها والدم المسفوح ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله- وحلالاً في طريقة كسبه وتناوله بأن لا يكون رباً أو سحتاً أو غصباً أو سرقة»[٤].

---

(١) سورة المائدة / الآية ٨٧، ٨٨.

(٢) الطوسي (- ٤٦٠ هـ) - تفسير التبيان - ج ٤ - ص ٩.

(٣) الراغب الأصفهاني - مفردات ألفاظ القرآن - ص ٢٢٩.

(٤) محمد رشيد رضا - تفسير المنار - ج ٧ - ص ٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحكمة النهي عن تحريم الحلال وتحليل الحرام هي «أنّ الله تعالى يحب من عباده أن يقبلوا نعمه ويستعملوها فيما أنعم بها لأجله، ويشكروا له ذلك، ويكره لهم أن يجنوا على الفطرة التي فطرهم عليها، فيمنعوها حقوقها، وأن يجنوا على الشريعة التي شرعها لهم فيغلوا فيها بتحريم ما لم يحرمه، كما يكره لهم أن يفرطوا فيها باستباحة ما حرمه أو ترك ما فرضه، ولأجل هذه الحكمة لم يكتف بالنهي عن تحريم الطيّبات حتى صرّح بالأمر باستعمالها والتمتع بها»[١].

والحلال والحرام من أكثر الكلمات دوراناً على ألسنة الناس، وذلك لارتباطها بحياة الناس العملية، والتصاقها التصاقاً قوياً بشؤونهم في العبادة والطعام والشراب والملبس والمعاملات والقضاء والأخلاق وسائر الشرائع والعبادات[٢] ويرى حجة الإسلام أبوحامد الغزالي أنّ معرفة الحلال والحرام فريضة على الناس، بل إنّها من أعصى الفرائض على العقول فهماً، وأثقلها على الجوارح فعلاً، ولذلك اندرس بالكلية علماً وعملاً[٣] وقال: إنّ علم الحلال والحرام صار غامضاً على الناس «إذ ظن الجهال أنّ الحلال مفقود، وأن السبيل دون الوصول إليه مسدود، وأنّه لم يبق من الطيّبات إلاّ الماء الفرات، والحشيش النبات في الموات، وما عاداه فقد أخبثته الأيدي العادية، وأفسدته المعاملات الفاسدة، وإذا تعذرت القناعة بالحشيش من النبات، لم يبق وجه سوى الاتساع في المحرمات، فرفضوا هذا القطب من الدين أصلاً، ولم يدركوا بين الأموال فرقاً وفضلاً، وهيهات هيهات فالحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات»[٤].

وهذا الذي يشكو منه الغزالي في واقع زمانه من اختلال الموازين في مسألة الحلال والحرام، وبُعد النّاس عن فهم مقتضى الشريعة، وعدم وضوح الرؤية في التمييز بين الخير والشر، هو نفسه ما تتميّز به الفلسفة الحديثة في بعض جوانبها حيث أنّها جعلت من الإنسان حكماً على الحلال والحرام وجعلت منه مشرعاً لقوانين الحياة دون أي ضابط من دين.

(١) محمد رشيد رضا - تفسير المنار - ج ٧ - ص ٢٧.
(٢) عبدالحميد طهماز - الحلال والحرام في سورة المائدة - ط ١ دار القلم: دمشق، ١٩٨٧م - ص ٥.
(٣) الغزالي أبوحامد - الحلال والحرام - تحقيق محمد مصطفى أبوالعلا - ط ١ مكتبة الجندي الحديثة: القاهرة، ١٩٧٤م - ص ١٠.
(٤) نفسه - ص ١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأمّا في القرآن الكريم والشريعة الإسلامية فقد جاءت النصوص لتحدد الحلال والسبل المؤدية إليه، وتبيّن الحرام والطرق المفضية إليه، وجعلت حق التحليل والتحريم لله وحده، وجاءت هذه النصوص لتقرر بأن الحلال بيّن وأنّ الحرام بيّن، وذلك في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال: «الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثيرٌ من الناس»(١).

ومعنى "بيّن" أي في عينهما ووصفها بأدلتهما الظاهرة(٢) «والأشياء ثلاثة أقسام حلال بيّن واضح لا يخفى حلّه كالخبز والفواكه والزيت والعسل والسمن ولبن مأكول اللحم وبيضه وغير ذلك من المطعومات وكذلك الكلام والنظر والمشي وغير ذلك من التصرفات فيها حلال بيّن واضح لاشك في حله، وأمّا الحرام البيّن فكالخمر والخنزير والميتة والبول والدم المسفوح وكذلك الزنا والكذب والغيبة والنميمة والنظر إلى الأجنبية وأشباه ذلك، وأمّا المشتبهات فمعناه أنّها ليست بواضحة الحلّ والحرمة، فلهذا لا يعرفها كثير من الناس ولا يعلمون حكمها وأمّا العلماء فيعرفون حكمها بنص أو قياس أو استصحاب أو غير ذلك، فإذا تردّد الشيء بين الحلّ والحرمة، ولم يكن فيه نص ولا إجماع اجتهد فيه المجتهد فألحقه بأحدهما بالدليل الشرعي»(٣).

وقد استفاد الغزالي من هذا الحديث بأنّ هناك حلالاً مطلقاً وحراماً محضاً، «فالحلال المطلق هو الذي خلا عن ذاته الصفات الموجبة للتحريم في عينه، وانحل عن أسبابه ما تطرق إليه تحريم أو كراهية، ومثاله الماء الذي يأخذه الإنسان من المطر قبل أن يقع على ملك أحد، ويكون هو واقفاً عند جمعه، وأخذه من الهواء في ملك نفسه، أو في أرض مباحة.

وأما الحرام المحض فهو ما فيه صفة محرمة لا يشك فيها، كالشدة المطربة في الخمر، والنجاسة في البول، أو حصل بسبب منهي عنه قطعاً كالمحصل بالظلم والربا ونظائره فهذان

---

(١) متفق عليه من حديث النعمان بن بشير.

(٢) ابن حجر العسقلاني (- ٨٥٢ هـ) - فتح الباري بشرح صحيح البخاري - ط دار المعرفة: بيروت - ج ١ - ص ١٢٧.

(٣) النووي - صحيح مسلم بشرح النووي - ط ٣ دار احياء التراث العربي: بيروت، ١٩٨٤م - ج ١١ - ص ٢٧، ٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

طرفان ظاهران»[١].

إنّ التضاد والتقابل في مجال الحلال والحرام هو الذي يُكوّن عناصر الحياة، ولهذا علاقة بإرادة الله في الخلق منذ التكوين الأول، وقد شاءت إرادته أن يكون الصراع بين الإنسان والشيطان، بين الحق والباطل، بين ما هو حلال وما هو حرام. كل ذلك للابتلاء ولتمييز الخبيث من الطيّب وليكون الجزاء مناسباً للطريق الذي تختاره النفس البشرية.

وقد جاء القرآن الكريم ليقول هذا حرام فاجتنبوه، وهذا حلال فأتوه لأنّ الحرام كلّه خبيث، ولكن بعضه أخبث من بعض، والحلال كلّه طيّب ولكن بعضه أطيب من بعض، وأصفى من بعض[٢].

وحق التشريع، وحق التحليل والتحريم في المنهج القرآني هو لله وحده وهو من أخص خصائصه وصفاته، وهو حق لا يملكه البشر لعجزهم عن معرفة حاجات النفس الإنسانية، ومقتضيات الضرر والنفع، ولهذا كلّه حدّد القرآن منذ الوهلة الأولى «السلطة التي تملك التحليل والتحريم فانتزعها من أيدي الناس أيّاً كانت مكانتهم ودرجتهم في دين الله أو دنيا الناس، وجعلها من حق الله تبارك وتعالى وحده، ومن حلّل حلالاً أو حرّم حراماً من عباد الله فقد تجاوز حدّه واعتدى على حقّ الله سبحانه في التشريع للخلق، ومن رضي بعملهم هذا واتبعه فقد جعلهم شركاء لله، واعتبر أتباعه هذا شركاً»[٣] قال تعالى: ﴿ **أم لَهُم شركاء شَرَعُوا لهم من الدينِ مَا لَمْ يَأذَن به اللهُ** ﴾[٤].

وقد تحدث القرآن عن أولئك الذين سلبوه هذا الحق منكراً عليهم ذلك أشدّ الإنكار، وتوعدهم أشد الوعيد، قال تعالى: ﴿ **قل أرَأيْتُم ما أنزلَ اللهُ لكُم مِنْ رزقٍ فَجَعَلْتُم منه حَرَاماً وحلالاً قُل آالله أذِنَ لكُم أم عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ** ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿ **ولا تَقُولوا لما تَصِفُ ألسنَتُكُم الكَذِبَ هذا حلالٌ وهذا حرامٌ لتَفْتَرُوا**

(١) الحلال والحرام – ص ٣٢.

(٢) ينظر الغزالي – الحلال والحرام – ص ٢٣.

(٣) أحمد محمد عساف – الحلال والحرام في الإسلام – ط ٢ – دار احياء العلوم: بيروت، ١٩٨٢م – ص ١١.

(٤) سورة الشورى/ الآية ٢١.

(٥) سورة يونس / الآية ٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عَلَى اللّهِ الكَذِبَ إِنَّ الذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ ﴾[١].

وقد أنكر القرآن على أهل الكتاب من اليهود والنصارى فعلهم الذي جعلوا بمقتضاه حق التشريع والتحليل والتحريم في أيدي الأحبار والرهبان -كما سيأتي بيان ذلك في الدراسة التطبيقية-، ومن هنا فقد حدّدت هذه الآيات تحديداً واضحاً أنّ الله وحدهُ هو الذي يحلّ ويحرّم في كتابه أو على لسان نبيّه كل ذلك لما فيه خير الناس، ومصلحة العباد.

فإذا كان التحليل والتحريم من حقوق الله التي يجب ألاّ يشاركه وينازعه فيها البشر، فإنّ مقصد الله من هذا الحق هو تحقيق المصلحة بين العباد، يقول الإمام الشاطبي -رحمه الله- (- ٧٩٠ هـ): «والمعتمد عندنا هو أنّا استقرينا من الشريعة أنّها وضعت لمصالح العباد... فتكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق، وهذه المقاصد لا تعدو ثلاثة أقسام: أحدها أن تكون ضرورية و"الثاني" أن تكون حاجية، و"الثالث" أن تكون تحسينية.

فأمّا الضرورية[٢] فمعناها أنّها لابدّ منها في قيام مصالح الدين والدنيا بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة... وأمّا الحاجيات فمعناها أنّها مفتقَر إليها من حيث التوسعة، ورفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة اللاحقة بفوت المطلوب، فإذا لم تراعَ دخل على المكلّفين -على الجملة- الحرج والمشقة، ولكنّه لا يبلغ مبلغ الفساد العادي المتوقع في المصالح العامة... وأما التحسينيات فمعناها الأخذ بما يليق من محاسن العادات، وتجنّب الأحوال المدنسات التي تألفها العقول الراجحات، ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق»[٣].

إن ثنائية الحلال والحرام تبقى من أبرز القضايا في حياة الناس إلى يوم القيامة، وما ذاك إلاّ لارتباطها الوثيق بالحياة العملية، والسلوك اليومي للنّاس وفي كل حركة يقومون بها، ونمضي الآن مع سياق سورة التوبة لنقف عند حديثها عن الحلال والحرام، ونظرتها إلى هذه

---

(١) سورة النحل / الآية ١١٦.

(٢) مجموع الضروريات خمسة وهي: حفظ الدين والنفس، والنسل والمال والعقل.

(٣) الشاطبي - ابراهيم بن موسى (- ٧٩٠ هـ) - الموافقات في أصول الشريعة - تحقيق عبدالله دراز - ط المكتبة التجارية : مصر - ج ٢ - ص ٨ - ١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الثنائية الهامة ولنبيّن أنّ القرآن الكريم يفضل طريقة عرض الأشياء في صورتها المتقابلة، وبيان أنّ ذلك من الوسائل التي تؤدي أغراضاً بلاغية كثيرة، وقيَماً فكرية ومعنوية متعددة.

قال تعالى: ﴿ وما كانَ اللّهُ ليضلَّ قَوماً بعد إذْ هَدَاهُم حَتَّى يُبَيِّن لهُم مَا يَتَّقُون إنَّ اللَّهَ بكلِّ شيءٍ عَليمٌ إنّ اللّه لَهُ مُلكُ السَّمَوات والأرضِ يُحْيِ ويُميتُ ومَا لكُم من دُونِ اللهِ مِنْ وَليٍّ ولا نَصيرٍ ﴾[١].

في هذه الآية الكريمة تقابل بين الهدى والضلال، وتقابل بين الحلال والحرام في صورة من صورهما، وهي مقابلة تتحدد من خلالها القيمة الدينية التي يؤديها السياق القرآني، فالآية إذن تعقد تقابلاً معنوياً بين الحلال والحرام الذين نسبهما اللّه لنفسه، وجعلهما من خصائصه وحقوقه، فمن المعاني التي تؤديها الآية أنّ اللّه تعالى لا يؤاخذ أقواماً بالعقوبة بعد إذ دعاهم إلى الرشد حتى يبيّن ما يجب عليهم أن يتقوه، فأمّا بعد أن فعل ذلك، وأزاح العذر وأزال العلة فله أن يؤاخذهم بأشد أنواع المؤاخذة والعقوبة[٢].

فاللّه سبحانه ليس بظلاّم للعبيد، وحاشاه أن يضلّ قوماً دون أن يبيّن لهم الحلال والحرام، ويبيّن لهم الطرق المؤدية إلى كلّ منهما، و «ليس من شأنه وعادة جلاله أن يَكتب الضلال لقوم بعد إذ هداهم بإرسال الرسل إليهم، وأرشدهم إلى الحق حتى يبيّن لهم الأشياء التي يريد منهم أن يتّقوها أي يتجنبوها »[٣].

فالآية تفيد أنّ اللّه هو الذي يشرع الحلال والحرام، وهو يشرع من الأحكام ما تكمل به فطرة الناس، ويستقيم به رأيهم وفهمهم، فيبيّن لهم مهمات الدين بالنّص القاطع حتى لا يضل فيه اجتهادهم بأهواء نفوسهم، ويترك لهم مجالاً للاجتهاد فيما دون ذلك من مصالحهم[٤].

واللّه سبحانه له ملك السموات والأرض، لا يشاركه في ذلك أحد وهو يحي ويميت أي يهب الحياة المادية والحياة المعنوية الروحية لمن شاء من عباده، كما أنّه يميت من شاء من

---

(١) سورة التوبة / الآية ١١٥، ١١٦.
(٢) الفخر الرازي – تفسير الفخر الرازي – ج ١٦ – ص ٢١٢.
(٣) محمد الطاهر بن عاشور – تفسير التحرير والتنوير – ج ١١ – ص ٤٧.
(٤) محمد رشيد رضا – تفسير المنار – ج ١١ – ص ٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأجسام والأرواح بمقتضى إرادته، ومن كانت هذه هي قدرته وإرادته فهو المستحق وحده للتشريع، وهو محلّل الحلال، ومحرّم الحرام، كل ذلك ليميز الخبيث من الطيّب.

وقال تعالى: ﴿ **وقالت اليهودُ عُزيرٌ ابنُ اللهِ وقالت النّصارى المسيحُ ابن اللّه ذلك قولهم بأفواههم يظاهئون قولَ الذين كفروا من قبلُ قاتلهم اللّه أنّى يؤفكون اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون اللّه والمسيحَ ابنَ مريم وما أمروا إلاّ ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلاّ هو سبحانه عمّا يشركون** ﴾[1].

إنّ الحديث في هاتين الآيتين هو عن أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى، وهو حديث عن تصوراتهم ومواقفهم من قضايا العقيدة والتشريع، وقد جاءت هذه الآيات لتبيّن ما حلّ بهاتين الديانتين السماويتين من تشويه وانحراف عن الأصل وعن المنهج الإلهي، وقد وردت أحاديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم تفسّر هذه الآيات، وتوضح حقيقة اتخاذ الأحبار أرباباً من دون اللّه، وأنّ الأمر يتعلق بالحلال والحرام اللذين نازع فيهما العباد ربّ العباد.

«روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عديّ بن حاتم رضي اللّه عنه أنّه لمّا بلغته دعوة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فرّ إلى الشام، وكان قد تنصّر في الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم منّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم على أخته وأعطاها، فرجعت إلى أخيها فرغّبته في الإسلام، وفي القدوم على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم، فقدم عديّ المدينة، وكان رئيساً في قومه طيء، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدث الناس بقدومه، فدخل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم، وفي عنق عديّ صليب من فضة، وهو يقرأ هذه الآية ﴿ **اتخذُوا أحْبَارَهُم ورُهْبَانَهُم أرباباً مِنْ دُونِ اللّه** ﴾ قال: فقلت: إنّهم لم يعبدوهم، فقال بلى، إنّهم حرّموا عليهم الحلال، وأحلّوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم، وقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم: يا عديّ ما تقول، أيضرك أن يقال: اللّه أكبر، فهل تعلم شيئاً أكبر من اللّه، ما يضرك أن يقال: لا إله إلاّ اللّه، فهل تعلم إلهاً غير

(١) سورة التوبة / الآية ٣٠، ٣١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الله، ثم دعاه إلى الإسلام، فأسلم وشهد شهادة الحق»[١].

فهذا الحديث النبوي يبيّن بوضوح مقصود الله تعالى في قوله ﴿ **اتَّخذُوا أحبارَهُم ورهبانهم أربابا من دُونِ اللّه** ﴾ أي أنّ القضية تتعلق بالتشريع وبالحلال والحرام، و«تفسير رسول الله صلّى الله عليه وسلم لقول الله سبحانه نص قاطع على أنّ الاتباع في الشريعة والحكم هو العبادة التي تخرج من الدين، وأنّها هي اتخاذ بعض النّاس أرباباً لبعض، الأمر الذي جاء هذا الدين ليلغيه، ويعلن تحرير الإنسان في الأرض من العبودية لغير الله»[٢].

إنّ الآية الأولى تبيّن انحراف اليهود والنصارى في تصورهم عن الله، فقد لحقوا بأهل الشرك وإن اختلفت طرق الشرك فلا فرق بين مَنْ يعبد الصنم، ومَنْ يعبد المسيح وغيره[٣] وهم قد أشركوا بالله حقيقة في أقوالهم وأعمالهم، فأمّا شركهم في الأقوال فقول اليهود عُزير ابن الله، وقول النّصارى المسيح ابن الله، وأما شركهم في الأفعال والأعمال فاتخاذهم الأحبار والرهبان مصادر للتشريع وللتحليل والتحريم والاتباع. لكن السؤال الذي قد يطرح هو ما الذي عمله الرهبان والأحبار حتى تعدوا على سلطة الله، لقد تحدث القرآن عن ذلك في مواطن كثيرة، «وبيّن أنّهم تأوّلوا ابتداء كلمات الله، وأخرجوها عن مفهومها الذي لها إلى المفهوم الذي يرونه.. ومن هنا كان للأحبار والرهبان هذا السلطان المبسوط على أتباعهم، بحيث جعلوا إلى أيديهم أمر هؤلاء الأتباع فيما هو من صميم العقيدة، فيغفرون لمن شاؤا من المذنبين، ويحرمون من شاؤا من هذا الغفران، وقد أدى ذلك إلى أن أصبح الأحبار والرهبان آلهة يطلب رضاها، ويتقرب إليها بالقربات، حتى تنال منهم المغفرة والرضوان، وهذا وضع أشبه بالوضع الذي يقوم بين المؤمن وربّه.. ومن هنا كان قوله تعالى ﴿ **اتخذُوا أحْبَارَهُم ورهبانَهم أرْبَاباً مِنْ دُونِ اللّهِ** ﴾ مصوراً لهذه الحال القائمة بين عامة اليهود والنصارى وبين

---

(١) محمد جمال الدين القاسمي - تفسير القاسمي المسمّى محاسن التأويل - ط ١ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٥٨ - ج ٨ - ص ٣١٢٥.

(٢) سيد قطب - معالم في الطريق - ط ١٠ - دار الشروق: بيروت، ١٩٨٣م - ص ٧٠.

(٣) انظر أبوحيان الأندلسي - تفسير النهر الماد من البحر المحيط - تقديم وضبط بوران الضناوي وهديان الضناوي، ط ١ دار الجنان، ١٩٨٧م - ج ١ - ص ٩٦٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أحبارهم ورهبانهم، أدق تصوير وأتمه»[١].

إنّ من القِيَم الدينية لهذه الآية أنّ اليهود والنّصارى باتباعهم الأحبار والرهبان قد أخرجوا النّاس من عبادة الله إلى عبادة البشر، وأعطوا حقّ التشريع والاتباع إلى عباد ضعفاء لا يملكون من خصائص الألوهية شيئاً، ومن القِيَم أيضاً التي تستفاد من الآية الكريمة أنّ اليهود والنصارى اتخذوا رؤساء الدين فيهم أرباباً حين أعطوهم حقّ التشريع وأطاعوهم فيه، فقد ذكر الله سبحانه أنه «من كل فريق ما حذف مقابله من الآخر على طريقة الاحتباك أي اتّخذ اليهود أحبارهم وربانيهم، والنّصارى قسوسهم ورهبانهم أرباباً غير الله وبدون إذنه باعطائهم حقّ التشريع الديني لهم، وبغير ذلك مما هو حقّ الربّ تعالى»[٢].

ونخلص إلى القول بأنّ المراد من اتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً ليس هو العبادة المحضة التي تجعل منهم آلهة وأصناماً، بل المراد كما ذكر الفخر الرازي (- ٦٠٦ هـ) أنّهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم[٣]، وهذا هو الذي يسمى حقّ التشريع وهو بيان معادلة الحلال والحرام، وبمعنى آخر الحكم على الأشياء من حيث الحظر والإباحة وهو نفسه مصطلح الحاكمية الذي هو أخص خصائص الوحدانية كما ذكرنا ذلك سابقاً، والمقصود بالحاكمية إسناد الحكم والتشريع لله وحده، أمّا إذا تعدّى ذلك وأصبح في أيدي البشر «فهذا هو الذي يعني اتخاذ الأرباب لا في الصورة البدائية الساذجة التي عرفتها الجاهلية الأولى، ولكن في صورة إدعاء حق وضع التصورات والقِيَم، والشرائع والقوانين، والأنظمة والأوضاع بمعزل عن منهج الله للحياة، وفيما لم يأذن به الله، فينشأ عن هذا الاعتداء على سلطان الله اعتداء على عباده، وما مهانة "الإنسان" عامة في الأنظمة الجماعية، وما ظلم "الأفراد" والشعوب بسيطرة رأس المال والاستعمار في النظم "الرأسمالية" إلاّ أثراً من آثار هذا الاعتداء على سلطان الله، وإنكار الكرامة التي قرّرها الله للإنسان»[٤].

أما عن القِيَم التعبيرية في الآيتين فإنّ التعبير جاء بطريقة المقابلة من زاويتين: أولاً

(١) عبدالكريم الخطيب - التفسير القرآني للقرآن - ج ٢ - ص ٧٤٣.
(٢) محمد رشيد رضا - تفسير المنار - ج ١٠ - ص ٣٦٤.
(٣) الفخر الرازي - التفسير الكبير - ج ١٦ - ص ٣٧.
(٤) سيد قطب - معالم في الطريق - ص ١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مقابلة عامة بين رؤساء الدين الذين اتخذوهم أرباباً وبين الله سبحانه وتعالى المستحق للألوهية والربوبية، وهذه المقابلة تهدف إلى بطلان الباطل الذي هم عليه بعد هذا الصنيع، وبيان أنّ الحلال والحرام حق لله وحده. ثانياً: مقابلة ضمنية بين الحلال والحرام حيث إنّ عبادة واتباع أولئك الأحبار والرهبان هي الحرام التي أنكره الله تعالى، أما عبادة الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه فهي الحلال الذي دعا إليه ﴿ **وما أُمِرُوا إلاّ لِيَعْبُدُوا إلهاً واحداً لا إلهَ إلاّ هُو سُبْحَانَهُ عمّا يُشْرِكُونَ** ﴾.

وقال تعالى في سورة "التوبة": ﴿ **إنّمـا النَسِيءُ زيادةٌ في الكُفْرِ يُضَلُّ به الذين كفروا يُحِلُّونه عاماً ويُحرِّمونه عاماً ليواطِئُوا عِدّةَ ما حرّم اللهُ فيُحلُّوا ما حرّم الله زُيِّن لهم سُوءُ أعْمَالِهِم واللهُ لا يَهْدِي القومَ الكافِرِين** ﴾[١].

تتحدث هذه الآية عن المشركين وموقفهم من الأشهر الحرم الأربعة التي حرّم الله فيها القتال، وجعلها أشهر عبادة، وعن تجاوزهم الحد في التعدي على خصائص الألوهية حيث أنّهم حلّلوا ما حرّمه الله، وحرّموا ما أحلّه الله. و «كانت العرب ورثت عن ملة إبراهيم وإسماعيل تحريم القتال في الأشهر الحرم لتأمين الحج وطُرُقِه.. كما ورثوا مناسك الحج، ولمّا طال عليهم الأمد غيّروا وبدّلوا في المناسك، وفي تحريم الأشهر الحرم، ولاسيّما شهر المحرّم منها فإنّه كان يشق عليهم ترك القتال وشنّ الغارات ثلاثة أشهر متوالية، فأول ما بدّلوا في ذلك إحلال الشهر المحرّم بالتأويل، وهو أن ينسئوا تحريمه إلى صفر لتبقى الأشهر الحرم أربعة كما كانت، وفي ذلك مخالفة للنص ولحكمة التحريم معاً، وكان لهم في ذلك نظام متبع بأن يقوم رجل من كنانة يسمى "القلمس" في أيام "منى" حيث يجتمع الحجيج العام فيقول: أنا الذي لا أحاب، ولا أعاب، ولا يُردّ قولي، وفي رواية أنّه يقول أنا الذي لا يرد لي قضاء، فيقولون صدقت فأخر عنّا حرمة المحرم واجعلها في صفر فيحل لهم المحرم، وبذلك يجعل الشهر الحرام حلالاً، ثم صاروا ينسئون غير المحرّم ويسمون النسيء باسم الأصل فتتغير أسماء الشهور كلّها، وأمّا قتالهم نفسه فقد كان كلّه حراماً وبغياً وعدواناً أو ثأراً»[٢].

---

(١) سورة التوبة / الآية ٣٧.

(٢) محمد رشيد رضا - تفسير المنار - ج ١٠ - ص ٤١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كانت هذه حال المشركين في الجاهلية، «فجاءت النصوص تبطل النسيء، وتبيّن مخالفته ابتداء لدين الله الذي يجعل التحليل والتحريم (والتشريع كله) حقاً خالصاً لله، وتجعل مزاولته من البشر - بغير ما اذن الله - كفراً، بل زيادة في الكفر... وفي الوقت ذاته تقرّر أصلاً من أصول العقيدة الأساسية وهو قصر حقّ التشريع في الحلّ والحرمة على الله وحده، وتربط هذه الحقيقة بالحق الأصيل في بناء الكون كلّه، يوم خلق الله السماوات والأرض، فتشريعه للناس إنّما هو فرع عن تشريعه للكون كلّه بما فيه هؤلاء الناس، والحيدة عنه مخالفة لأصل تكوين هذا الكون وبنائه، فهو زيادة في الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا»[1].

إنّ شرع الحلال والحرام حق لله وحده، ومنازعته فيه كفر وشرك في ألوهيته، وهناك وجه شبه بين ما فعله المشركون، وما فعله أولئك الأحبار والرهبان الذين تحدثنا عنهم في الآية السابقة من حيث التعدي على حقوق الله وتغيير شرعه.

والآية الكريمة قائمة على المقابلة بين الحلال والحرام، ويظهر ذلك بين "يحلونه عاماً" و"يحرمونه عاماً"، وبين "فيحلوا ما حرّم الله"، وهذا النوع من المقابلة هو من أبسط أنواعها، وغايته بيان المعنى في أبهى صوره وبيان أنّ المصدر الحقيقي للتشريع هو الله وحده، وبيان كفر أولئك الذين نازعوا الله في هذا الحق، وتوعدهم بأشدّ أنواع الوعيد.

(١) سيد قطب - في ظلال القرآن - ج ٣ - ص ١٦٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جـ - المقابلة بين الولاء والبراء :

الولاء والبراء من الموضوعات الهامة التي تناولها القرآن الكريم، فقد حظيا بعنايته في أكثر من موضع لكونهما يشكلان جانباً أساسياً في قاعدة التصور الإسلامي.

والولاء لغة من والى فلان فلاناً إذا أحبّه، ولذلك يقال بينهما ولاء أي قرب[١] وفي الاصطلاح يستعار الولاء للدلالة على القرب من حيث المكان، ومن حيث النسبة، ومن حيث الدين، ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد[٢] ومنه الولاية وهي المحبة والنصرة قال ابن تيمية وهو يتحدث عن أولياء الله وصفاتهم، وأولياء الشيطان وصفاتهم«سمّي الولي ولياً من موالاته للطاعات، أي متابعته لها، فإذا كان ولي الله هو الموافق المتابع له فيما يحبّه ويرضاه، ويبغظه ويسخطه، ويأمر به وينهى عنه، كان المعادي لوليه معادياً له»[٣]

والولاء للكفار- وهو المقصود هنا- يعني التقرب إليهم وإظهار الودّ لهم بالأقوال والأفعال والنوايا[٤] وهو يعني كذلك«الرباط أو التقارب المعنوي أو الحسي الحاصل بين طائفتين فأكثر باختيارهم حصولاً مشعراً بوحدتهم في القواعد والأصول أو في الأهداف والغايات، وسواء كان ذلك الرباط أو التقارب دائماً أو مؤقتاً[٥]

أما البراء فهو ضد الولاء وهو البعد والخلاص والعداوة بعد الاعذار والانذار[٦]، وهو متعلق بالكفار أيضاً من حيث الابتعاد عنهم مادياً ومعنوياً، وعدم القرب منهم والمحبة لعقائدهم وأهدافهم وغاياتهم .

وثنائية الولاء والبراء لها علاقة بالحبّ والكره ومقتضياتهما، ولذلك فإن لها علاقة وثيقة بأسس العقيدة، ومبادىء التصور الإسلامي في علاقات الناس والمجتمعات، ومن هذه

---

(١) ابن منظور - لسان العرب مادة (ولي)

(٢) الفيروز آبادي- بصائر ذوي التمييز- ج٥- ص٢٨١

(٣) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان - تحقيق زهير الشاويش- ط٤ المكتب الإسلامي ١٩٨٨م - ص٨

(٤) محمد نعيم ياسين- الإيمان - ص

(٥) أحمد عبدالمولى مناعي- الولاء والبراء في القرآن الكريم - ص٧(رسالة ماجستير) الجامعة الأردنية، ١٩٩٣ - ص ٧.

(٦) محمد بن سعيد القحطاني- الولاء والبراء في الإسلام - ط٢ مكتبة طيبة الرياض ١٤٠٤هـ - ص٩٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأهمية جاءت عناية القرآن الكريم بهذا الموضوع في كثير من السور والآيات .

إنّ الولاء والبراء جزء من عقيدة التوحيد، حيث إنهما تتعلقان بالحب والبغض في الله، فلا يكون الإيمان صحيحاً إلاّ بالمحبة الكاملة لله ولدينه ورسوله، والبغض والكراهية للكفر والطاغوت، قال ابن تيمية- رحمه الله-(-٧٢٨هـ):«ليس للقلوب سرور ولا لذة تامة إلاّ في محبة الله والتقرب إليه فيما يحبه ولا تمكن محبته إلاّ بالإعراض عن كل محبوب سواه، وهذا حقيقة لا إله إلاّ الله، وهي ملة إبراهيم الخليل عليه السلام، وسائر الأنبياء والمرسلين صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين» (١)

فالولاء والبراء من لوازم"لا إله إلاّ الله" ومن أدلة القرآن على ذلك قوله تعالى:﴿ **قُلْ إن كُنتم تُحبّون اللّهَ فاتّبِعُونِي يُحبِبْكُم اللّهُ ويَغْفِر لكُم ذُنُوبَكُم واللّهُ غفورٌ رحيمٌ قُلْ أطِيعُوا اللّهَ والرّسُولَ فإنْ تَوَلّوا فإنّ اللّهَ لا يُحِبُّ الكَافِرِين** ﴾(٢)

وقال تعالي: ﴿ **يا أيّها الذينَ آمَنُوا لاَ تَتّخِذُوا اليَهُودَ والنّصَارَى أولياءَ بَعْضُهُم أولياءُ بَعْض وَمَنْ يَتَوَلّهُم مِنْكُم فإنّه مِنْهُم إنّ اللّهَ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظّالِمين**﴾(٣) وقال تعالى: ﴿ **لا يَتخِذِ المُؤْمِنُونَ الكَافِرِينَ أولياءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ ومن يَفْعَل ذَلِك فَلَيْس مِنَ اللّه فِي شَيْءٍ إلاّ أنْ تَتّقُوا مِنْهُم تُقَاة ويُحَذّرُكُم اللّهُ نَفْسَهُ وإلَى اللّهِ المصِيْر** ﴾(٤)

فبهذه الأدلة الواضحة من القرآن يتّضحُ لنا أنّ الولاء والبراء جزء من التصور الإسلامي للحياة، ولا يكون تحقيق حقيقة الوحدانية إلاّ بالحبّ والبغض في الله يقول ابن تيمية(-٧٢٨هـ)-(رحمه الله)-:«إنّ تحقيق شهادة أن لا إله إلاّ الله يقتضي أن لا يحب إلاّ لله، ولا يبغض إلاّ لله، ولا يوالي إلاّ لله، ولا يعادي إلاّ الله، وأن يحب ما أحبّه الله، ويبغض ما أبغضه الله»(٥)

---

(١) الفتاوى - ج ٢٨ ص ٣٢

(٢) سورة آل عمران الآية ٣١، ٣٢

(٣) سورة المائدة الآية ٥١

(٤) سورة آل عمران الآية ٢٨

(٥) الاحتجاج بالقدر - ص ٦٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقول إبن قيم الجوزية(- ٧٥١ هـ) - رحمه الله: «ليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنّه: لا خالق إلا الله وأنّ الله ربُّ كل شيء ومليكه، كما كان عباد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون، بل التوحيد يتضمن من محبّة الله وإرادة وجهه الأعلى لجميع الأقوال والأعمال، والمنع والعطاء، والحبّ والبغض، ما يحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصي والإصرار عليها »[١]

وللولاء والبراء مظاهر تحدث عنها القرآن الكريم في سوره منها[٢] :

أولاً: العبادة وهي أوسع أبواب الولاء والبراء، ولذلك وجدنا القرآن الكريم يوليها كبير أهمية، وجليل عناية حتى لا تكاد سورة من سور القرآن الكريم تخلو من ذكرها والحثّ عليها، وبيان نتيجتها وعاقبتها، قال تعالى: ﴿ **إنّا أنزلْنا إليْكَ الكِتابَ بالحقِّ فاعْبُدِ اللّهَ مُخْلِصاً لهُ الدينَ ألاَ لهُ الدينُ الخالص والذين اتّخذُوا مِن دونه أولياءَ ما نَعْبُدُهُم إلاّ ليُقَرِّبُونَا إلى اللهِ زُلْفَى إنّ اللهَ يَحْكُم بَيْنَهم فِيمَا هُمْ فِيهِ يختلفون**﴾[٣] ففي قوله تعالي ﴿ **والذينَ اتّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أولياء** ﴾ قال البغوي: أي معبوداتهم من الأصنام التي جعلوها على صورة الملائكة بزعمهم يتوجهون إليهم بالعبادة ليقربوهم إلى الله زلفى[٤] وهذا من صور الولاء في العبادة والاتباع .

ثانياً: النصرة والمعونة وربط المصير بالمصير، وتُعد هذه المظاهر الثلاثة من أوضح علامات الولاء وأصدقها دلالة عليه، ونقيضها من المسالك الكاشفة عن صور البراء الكامل والمفاصلة الحاسمة، إذ هي الوجه الخارجي لعقيدة الولاء والبراء، قال تعالى: ﴿**ألَمْ تَرَ إلَى الذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإخْوَانِهِم الذِينَ كَفَرُوا مِنْ أهْلِ الكِتَابِ لَئِنْ أخْرِجتم لنَخْرُجَنَّ مَعَكُم وَلاَ نُطِيعُ فِيكم أحداً أبداً، وإنْ قُوتِلتم لنَنْصُرَنّكم واللّه يشهد إنّهَم لكَاذِبُون لَئِنْ أخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعهُم ولَئِنْ قُوتِلُوا لاَ يَنْصُرُونَهم ولَئِنْ نَصَرُوهُم لَيُوَلّنَّ الأدْبَارَ ثُمّ لاَ يُنْصَرُونَ**﴾[٥] فالآية تتحدث عن

---

(١) مدارج السالكين - ج١ ص ٣٣٠
(٢) ينظر أحمد عبدالمولى مناعي- الولاء والبراء في ا لقرآن الكريم دراسة موضوعية- ص١٧-٤٩
(٣) سورة الزمر الآية ٣
(٤) تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل- ج ٤ ص ٧١
(٥) سورة الحشر الآية ١١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولاء النصرة والمعونة وربط المصير بالمصير الذي أعلنه المنافقون لإخوانهم في الكفر اليهود .

ثالثاً: الركون وإتخاذ البطانة، وهذان مظهران لعقيدة الولاء والبراء نبّه القرآن إليهما وحذّر المؤمنين من اتباع غير الصراط السوي في شأنهما ، والركون هو الاستناد والسكون إلى الشيء، أما اتخاذ البطانة فيعني جعل المرء خصيصته وصفيه الذي يفضي إليه بشعوره ثقة به، قال تعالى: ﴿ **ولاَ تَرْكَنُوا إِلَى الذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُم النَّارُ وَمَا لَكُم مِنْ دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُون** ﴾[١] والقصد من الآية تبعيد المؤمنين من موادة المشركين المحادين لله ولرسوله والثقة بهم، وهو أعظم عقبة في الصدّ عن سبيل الله لأنّ ذلك ينافي الإيمان[٢] وعن البطانة قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَة مِنْ دُونِكُم لاَ يَأْلُونَكُم خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُم قَدْ بَدَت البغضاءُ من أفواهِهِم وما تُخْفِي صدورهُمُ أكبرُ قَدْ بيّنا لَكُم الآياتِ إِنْ كنتم تعقلون**﴾[٣].

في هذا النص الكريم نهى الله المؤمنين أن يتخذوا بطانة من دون المؤمنين، لأنّ ذلكَ الفعل ضربٌ من ضروب الولاء، وصورة من صوره، والمطلوب من المسلم أن يكون ولاؤه لله محرراً في كل قول وفعل .

رابعاً: الصلح والتحالف، وهذا المظهر الأخير من مظاهر الولاء والبراء، ويتمثل في الواقع العملي والصورة التطبيقية للولاء والبراء، قال تعالى: ﴿ **وقَاتِلوهُم حَتَّى لا تَكُونَ فتنةٌ ويكونَ الدينُ لِلهِ فإنِ انْتَهوا فلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَالِمين** ﴾[٤]

فالأمر بقتال المشركين مستمر دائم إلى أن يزول الشرك ويثبت الإسلام والجنوح عن هذه الغاية والدخول في صلح مع المشركين يبقون بمقتضاه على شركهم - ضرب من ضروب موالاتهم وفي ذلك أيضاً تعطيل لمعاني الآيات الناطقة باستمرارية قتل المشركين وعدم توقفه إلاّ عند حصول ثمرته .

---

(١) سورة هود الآية ١١٣

(٢) محمد جمال الدين القاسمي- محاسن التأويل- ج٩ ص ٣٤٩٠

(٣) سورة آل عمران الآية ١١٨

(٤) سورة الأنفال الآية ٣٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والولاء في السياق القرآني ولاء لله ومن ثمّ ولاء لعبادة المومنين قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا فإنّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغَالِبُون** ﴾(١).

والبراء قسمان: أحدهما: البراء من الكفار والمنافقين قال تعالى: ﴿ **وَأَذانٌ إلى النَّاسِ يَوْمَ الحجِّ الأكْبَرِ أنّ الله بَرِيءٌ مِنَ المُشْرِكِينَ وَرَسُولُه** ﴾(٢) وقال عن المنافقين ﴿ **نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ** ﴾(٣).

وثانيهما: البراء من أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿ **يا أيُّهَا الذينَ آمَنُوا لاَ تتَّخِذُوا اليهودَ والنَّصَارَى أولياءَ بَعْضُهُم أولياءُ بَعْض، ومن يتولَّهم مِنْكُم فإنَّهُ مِنْهُم إنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالمين** ﴾(٤).

إنّ ثنائية الولاء والبراء تأخذ حيّزاً كبيراً في المنهج القرآني، ودراسة هذا الموضوع من الزوايا جميعها ليس هذا مقامه، وكان الحديث بايجاز عن بعض المفاهيم الضرورية، والمظاهر الشكلية التي تناولها القرآن الكريم في هذه القضية، ونمضي الآن مع سورة التوبة وطرق عرضها لهذه القضية الهامة .

قال تعالى: ﴿ **وأذان مِنَ اللهِ ورسُوله إلى النَّاسِ يوم الحجّ الأكبر أنّ الله بَرِيءٌ من المشركين وَرَسُولُهُ فإنْ تُبتم فَهُوَ خَيْرٌ لكُم وإنْ تَوليْتُم فاعلَمُوا أنَّكُم غَيْرُ معجزِي اللهَ وَبشرِ الذينَ كَفَرُوا بعَذَابٍ أليمٍ** ﴾(٥).

وقال أيضاً: ﴿ **فإن تَابُوا وأقَامُوا الصَلاةَ وآتَوا الزكاةَ فإخوانُهم فِي الدين ونُفصِّلُ الآياتِ لقومٍ يَعْلَمُونَ وإنْ نَكَثُوا أيمانَهم مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِم وَطَعَنُوا فِي دِينِكم فَقَاتِلُوا أئِمَةَ الكُفْرِ إنَّهم لا أيمانَ لهُم لعلَّهُم يَنْتَهُون** ﴾(٦).

سورة التوبة" هي آخر سور القرآن نزولاً عند جمهور العلماء، وتسمى سورة "براءة" لما

(١) سورة المائدة الآية ٥٦
(٢) سورة التوبة الآية ٣
(٣) سورة التوبة الآية ٦٧
(٤) سورة المائدة الآية ٥١
(٥) سورة التوبة الآية ٣
(٦) سورة التوبة الآية ١١ ، ١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تضمنته من براءة الله ورسوله من المشركين والمنافقين وأهل الكتاب، وبما أنّها آخر ما نزل من القرآن كان لا بدّ أن يكون لها الكلمة الأخيرة في تحديد العلاقات بأنواعها بين المجتمع المسلم في المدينة وغيره من المجتمعات الكافرة، وأن تكون هذه الكلمة قانوناً لأي مجتمع مسلم، وفي أي زمان كان، لأنّ فيها المفاصلة التامة بين الإيمان والكفر، بين المسلمين وجميع أعدائهم في الأرض، وقد جاء فيها الحديث مفصلاً عن قضية الولاء والبراء وبيان الحق في ذلك في بداية السورة الكريمة .

وقد لخص ابن قيم الجوزية(- ٧٥١ هـ)- رحمه الله - سياق الدعوة والجهاد في هذه السورة فقال: «أقام صلى الله عليه وسلم بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويُؤمر بالكفّ والصبر والصفح، ثم أذن له في الهجرة، وأذن له في القتال، ثم أمره أن يقاتل من قاتله، ويكفّ عمن اعتزله ولم يقاتله، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كلّه لله، ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة، وأهل حرب، وأهل ذمّة، فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوفي لهم به ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد، وأمر أن يقاتل من نقض عهده.. ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها: فأمر أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجّة واللسان، وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ونبذ عهودهم إليهم، وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام: قسماً أمره بقتالهم وهم الذين نقضوا عهده ولم يستقيموا له، فحاربهم وظهر عليهم، وقسماً لهم عهد مؤقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه، فأمرهم أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم. وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه أو كان لهم عهد مطلق، فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر، فإذا انسلخت قاتلهم... فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به، ومسالم له آمن، وخائف محارب، وأما سيرته في المنافقين فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ويكلّ سرائرهم إلى الله، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة، وأمر أن يعرض عنهم، ويغلظ عليهم، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم»[1].

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد - تحقيق شعيب الأرنؤوط ط١ مؤسسة الرسالة بيروت ١٣٩٩هـ - ج ٣ - ص ١٥٨، ١٦٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في ضوء هذا البيان نستطيع أن نصل إلى الطبيعة النهائية للعلاقات بين الإسلام والكفر أيا كان نوعه، ومن هذه الطبيعة يتحدد الولاء والبراء اللذان تتحدث عنهما الآيات، فلا ولاء بعد الآن للطاغوت والشرك، ويجب أن تكون البراءة تامة من كل أنواع الكفر والشرك لتبقى قاعدة التصور الإسلامي نظيفة مخلصة في توجهها إلى الله، يقول سيد قطب-رحمه الله- في حكمة البراء من الكفر والشرك: «قد تبيّن من الواقع العملي مرحلة بعد مرحلة، وتجربة بعد تجربة، أنّه لا يمكن التعايش بين منهجين للحياة بينهما هذا الاختلاف الجذري العميق البعيد الشامل لكل جزئية من جزيئات الاعتقاد والتصور، والخلق والسلوك، والتنظيم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي و-الإنساني- وهو الاختلاف الذي لا بد أن ينشأ من اختلاف الاعتقاد والتصور منهجين للحياة أحدهما يقوم على عبودية العباد لله وحده بلا شريك، والآخر يقوم على عبودية البشر للبشر، وللآلهة المدعاة، وللأرباب المتفرقة، ثم يقع بينهما التصادم في كل خطوة من خطوات الحياة، لأنّ كل خطوة من خطوات الحياة في أحد المنهجين لا بدّ أن تكون مختلفة مع الأخرى، ومتصادمة معها تماماً في مثل هذين المنهجين، وفي مثل هذين النظامين »[١].

إن الآية الأولى هي بمثابة الإعلان العام"أذان من الله" لبراءة الله وبراءة رسوله. وبراءة المؤمنين بعد ذلك من المشركين، وقد جاء هذا الإعلان ليحدد المواقف الحاسمة في قضية الولاء والبراء، ولبطهّر جزيرة العرب من الشرك ويجعلها تحت راية الإسلام، أما الآية الثانية والثالثة فتتحدثان عن إقامة ولاء مع المشركين في حالة دخولهم في جماعة المسلمين، وامتثالهم لأوامر الله في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، أو البراء منهم في حالة نكث الأيمان والطعن في الدين، والإصرار على الكفر، « ونكث الأيمان هنا يقابل فيما قبله استقامتهم عليها، والطعن في ديننا في الجملة التالية يقابل فيما قبله توبتهم من الكفر به بدخوله في جماعته »[٢].

هذه هي طريقة القرآن في التعامل مع المشركين في كلّ الأزمان، وهي طريقة تجعل الأشياء في موضعها الصحيح من حيث الانتماء إلى عقيدة التوحيد ومقتضياته من ولاء وبراء، أو التخلي عن ذلك والركون إلى الشرك والكفر، ثم لجعل الإيمان هو المسيطر والظاهر في

(١) في ظلال القرآن - ج٣ ص ١٥٨٦

(٢) محمد رشيد رضا - تفسير المنار ج ١٠- ص ١٩٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأرض، ودحض كل قوى الشر التي تعارض مبدأ الخضوع لسلطان الله على هذه الأرض، والمشركون في كل زمان هم أناس نصبوا شراك العداوة والقتال لله ولرسوله ولأي شيء له علاقة بالدين والعقيدة، ومن هنا جاء موقف ألقرآن واضحاً ليعلن البراءة التامة من الشرك والمشركين وإعلان العداوة والقتال لأولياء الشيطان في كل زمان ومكان .

وتعتمد هذه الآيات في طريقة عرضها على المقابلة والمزاوجة بين الأشياء، وهي الطريقة التي كان لها الفضل في بيان هذه القيم المعنوية والدينية، لقد قابلت الآيات في الجانب الأول منها بين البراءة التامة من المشركين والولاية لله ورسوله، وقابلت في الجانب الثاني منها بين« فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة» وبين« وإن نَكثُوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم» وهي مقابلة تهدف إلى وضع قضية الولاء أو البراء من المشركين مرتبطة بما يؤول إليه حالهم بعد هذا الإعلان القرآني، وفي ذلك دليل على سماحة القرآن وعدله .

قال تعالى: ﴿ **يَا أيُّها الذين آمَنُوا لا تتَّخذوا آباءكم وإخوانكم أولياءَ إنِ استحبُّوا الكفرَ عَلَى الإيمانِ وَمَن يتولّهم منكم فأولئك هُمُ الظَّالِمون قُلْ إنْ كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانُكُم وأزواجُكُم وعشيرتُكُم وأموالٌ اقترفتمُوها وتجارةٌ تخشونَ كسَادَها ومساكنُ ترضونَهَا أحبَّ إليكم من اللهِ ورسولهِ وجهادٍ في سبيله فتربصُوا حتى يأتي اللهُ بأمْرِه واللهُ لا يهدي القومَ الفَاسِقين**﴾[١]

تفيد هاتان الآيتان مجموعة من القيم الدينية والفكرية والأخلاقية وهي قيم تستفاد من طرف العرض التي يختارها السياق القرآني لأداء المعاني، ومن أبرزها طريقة التقابل وعقد التضاد بين المعاني المختلفة، فمن هذه القيم ما يلي، أولاً: تتحدث الآيات عن الولاء والبراء في مظهرين من مظاهرها، وهما مظهر العبادة، ومظهر النصرة والعون وربط المصير بالمصير، أما مظهر العبادة فيظهر في اتباع الهوى، وحب أحد هذه الروابط الثمانية وهي الآباء والأبناء والإخوة والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن، وهذا الحبّ والاتباع يأتي في مرتبة لا تليق إلاّ بالله وحده، فهو المقصود وحده بالحبّ وأيضاً رسوله والمؤمنون، فالولاء لهذه الروابط

---
(١) سورة التوبة الآية ٢٣ ، ٢٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يعني الخروج من دائرة العبادة التي ينبغي أن يقصد بها وجه الله وحده، أما المظهر الثاني وهو النصرة والعون وربط المصير بالمصير فيظهر في الغاية من هذا الحبّ وهي أن بعض المسلمين كان يخشى قتال أهليهم من المشركين رغبة منهم في إسلامهم، وكان بعضهم يبتغي العون والفائدة فيما عنده من مال أو مساكن أو تجارة، وهذا الولاء والحبّ قد يصل إلى مرتبة العبادة حين يتعلق الدين بالأهواء والشهوات .

ثانيا: غاية هذا الولاء والبراء التفريق بين الإيمان والكفر، « فقد فرّق الإيمان بالله بين المؤمنين والمشركين، وجعل ولاية المؤمن للمؤمنين عامة أيا كان لونهم وجنسهم، وأيا كانت درجة القرابة في النسب بينهم وبينه على حين قطع ولاءه لأهله، وأقرب المقربين إليه إذا لم يكونوا من المؤمنين بالله وبرسول الله »(١)

ثالثاً: الولاء لله، والبراء من الشرك أمران لهما أهميتهما في التصوير الإسلامي، لأنهما يجرّدان التوحيد، ويفردان الإله بالعبادة والاتباع، ومن أهم صور الولاء حب روابط القرابة ووشائج المال والمادة، وقد جمعت هذه الآيات أصنافاً من العلاقات وذويها، ومن شأنها أن تألفها النفوس، وترغب في القرب منها وعدم مفارقتها، فإذا كان الثبات على الإيمان يجرّ إلى هجران بعضها كالآباء والاخوان الكافرين الذين يهجر بعضهم بعضاً إذا اختلفوا في الدين، كالأبناء والأزواج والعشيرة الذين يألف المرء البقاء بينهم، فلعلّ ذلك يقعده عن الغزو، وكالأموال والتجارة التي تصد عن الغزو وعن الانفاق في سبيل الله، وكذلك المساكن التي يألف المرء الإقامة فيها فيصده إلفها عن الغزو، فإذا حصل التعارض والتدافع بين ما أراده الله من المؤمنين، وبين ما تجرّ إليه تلك العلائق وجب على المؤمن دحضها وإرضاء ربّه »(٢).

رابعاً: هذه الأنواع الثمانية من حبّ القرابة والزوجية والمنافع والمرافق التي عليها مدار معايش الناس قد كان من شأنها أن تجعل القتال مكروها فوق الكره الذي تقتضيه طبيعة القتال نفسه، وأمام العقيدة يجب أن تنقطع كلّ هذه الأواصر لأنّ لله الولاية الأولى، وحُب الله تعالى- أي حبّ عبده له- هو الذي يجب أن يكون فوق كل حبّ لأنهّ سبحانه وتعالى هو المتصف وحده بكل ما شأنه أن يُحب من جمال وكمال، وبر وإحسان، وكل ما يُحب وما يحب

(١) عبدالكريم الخطيب- التفسير القرآني للقرآن- ج٢ ص ٧٢١
(٢) محمد الطاهر بن عاشور- تفسير التحرير والتنوير ج ١٠ ص١٥٢،١٥٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في الوجود فهو من صنعه وفيض جوده وإحسانه، ومظهر أسمائه الحسنى وصفاته »[١].

وتعتمد هاتان الآيتان على أسلوب المقابلة في عرض هذه القيم المستفادة من السياق، فهناك مقابلة كبرى بين طرفي الآية يتحدد من خلالها الولاء والبراء وهي « إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن» وفي الطرف المقابل « أحبَّ إليكم مِنَ اللّهِ ورَسُولِه وجهاد في سبيله ».

وغاية هذه المقابلة تقرير مبدأ الولاء لله وحده، والبراء من الشرك وحظوظ الأنفس من حبّ المطامع واللذائذ،« فالسياق القرآني يأخذ كلّ هذه الأواصر ليضعها كلها في كفة ويضع العقيدة ومقتضياتها في الكفة الأخرى: الآباء والأبناء والاخوان والأزواج والعشيرة (وشيجة الدم والنسب والقرابة والزواج) والأموال والتجارة (مطمع الفطرة ورغبتها) والمساكن المريحة (متاع الحياة ولذتها)، وفي الكفة الأخرى: حب الله ورسوله وحب الجهاد في سبيله، الجهاد بكل مقتضياته وبكل مشاقه، الجهاد وما يتبعه من تعب ونصب، وما يتبعه من تضييق وحرمان وما يتبعه من ألم وتضحية »[٢].

وقال تعالى:﴿ **مَا كَانَ للنبيِّ والذينَ آمَنُوا أنْ يَسْتَغْفِرُوا للمشركين وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ ما تبيَّنَ لهم أنَّهم أصحابُ الجحيم وما كانَ استغفارُ إبراهيمَ لأبيهِ إلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وعَدَها إيَّاه فلَمَّا تبيَّنَ لَهُ أنَّهُ عدوٌّ للهِ تَبَرأ مِنْهُ إنَّ إبراهِيمَ لأواهٌ حَلِيمٌ** ﴾[٣].

تتحدث هاتان الآيتان عن البراء من المشركين حتى ولو كانو من ذوي القرابة والنسب، وذلك أن الولاء لهم يقدح في صحة الإيمان الذي يجب أن يكون خالصاً لله وحده، والظاهر أن بعض المسلمين كانوا يستغفرون لآبائهم المشركين ويطلبون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لهم، فنزلت الآيات تقرّر أن في هذا الاستغفار بقية من تعلّق بقربات الدم في غير صلة بالله لذلك ما كان للنبي والذين آمنوا أن يفعلوه[٤].

(١) محمد رشيد رضا- تفسير المنار ج١٠ ص٢٣٢.
(٢) سيد قطب - في ظلال القرآن ج ٣ ص ١٦١٥.
(٣) سورة التوبة الآية ١١٣، ١١٤.
(٤) سيد قطب- في ظلال القرآن ج٣ ص ١٧٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال الفخر الرازي(-٦٠٦هـ): « اعلم أن الله تعالى لما بيّن من أول هذه السورة إلى هذا الموضع وجوب اظهار البراءة من الكفار والمنافقين من جميع الوجوه، بيّن في هذه الآية أنه تجب البراءة من أمواتهم، وإن كانوا في غاية القرب من الإنسان كالأب والأم، كما أوجب البراءة عن أحيائهم، والمقصود منه بيان وجوب مقاطعتهم على أقصى الغايات، والمنع من مواصلتهم بسبب من الأسباب[١]

ويظهر الولاء لله في الآية الثانية" وما كان استغفار إبراهيم لأبيه" فابراهيم عليه السلام يمثل الولاء المطلق لله، وهو القدوة والأسوة في أعلى مستوياتها للولاء لله والإخلاص لدين الله، فلا حساب لعاطفة القرابة عنده تدخل شيئاً من الضيم على ولائه لربّه، وإخلاصه لدينه[٢]

إن القيمة الدينية التي أفادها هذا السياق هي أنه لا ينبغي الاستغفار والترحم على المشركين - ولو كانوا أمواتاً - لأنّ هذا الفعل يدخل شيئاً من الحب والرضا لهم ولما هم فيه من ضلال وكفر، ويتسرب إلى إيمانه بالله وولائه له بعض معاني الحبّ والإخلاص لأعداء الله ورسوله، والله يريد من المؤمن أن يكون عمله مخلصاً صواباً، أي أن يكون ولاؤه ولاءً مطلقاً لله في كل ما أمر به أو نهى عنه.

وتعتمد هاتان الآيتان على المزاوجة والمقابلة بين الولاء والبراء في صورة من صورهما، فقد قابلت بين" الإستغفار للمشركين" الذي يعني الولاء لهم، وبين "استغفار إبراهيم لأبيه وتبرئه في الآخير منه" والذي يعني البراء من الشرك والمشركين، وطريقة المقابلة هنا حاسمة في أداء المعنى، وعرض الأفكار التي يستفاد منها القيم الدينية والفكرية المختلفة .

ونخلص إلى القول في قضية الولاء والبراء أنها قضية تتعلق بالوحدانية، وأنّها جزء هام من عقيدة"لا إله إلا الله" لأنّها تتعلق بالحب والبغض في الله، فلا يكون الإيمان صحيحاً إلا بالولاء المطلق والمحبة الصادقة لله ورسوله والمؤمنين، والبغض والكراهية للكفر والشرك والمشركين، ونخلص كذلك إلى القول بأنّ طريقة التقابل التي لجأت إليها السورة الكريمة في عرض المعاني كانت حاسمة في أداء تلك القيم الدينية والأخلاقية والفكرية .

(١) تفسير الفخر الرازي ج١٦ ص٢٠٨

(٢) عبدالكريم الخطيب- التفسير القرآني للقرآن ج٢ ص٩٠٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(د) المقابلة بين الجنّة والنّار :

يهتم القرآن الكريم اهتماماً كبيراً بتقرير حقيقة اليوم الاخر وما فيه من نعيم وعذاب، وجزاء وحساب، بل إنّه قد عدّه من أركان الإيمان الأساسية التي لا يصح إيمان بدونه، وجعله في المرتبة الثانية بعد عقيدة الإيمان بالله، يقول محمد عبد الله دراز-رحمه الله-:« على أساس فكرة كمال الله المطلق بنى القرآن الشطر الأول من النظرية الدينية العامة:وهي أنه لا شيء في الوجود يستحق العبادة سوى الله الواحد القهار، وبنفس الفكرة يؤسس القرآن أيضاً الشطر الثاني من هذه النظرية، وهي الإيمان بالحياة الأخروية فكما أن الله هو الأول فهو الآخر إذ إليه مآلنا لنقدم له أعمالنا، ونتلقى منه الجزاء الذي نستحق »[١].

وتعد الجنة والنار من أبرز الثنائيات في عقيدة اليوم الآخر، وهي من الأبعاد الدينية الكبرى في التصور الإسلامي، وقد ثار حولها جدل بشري منذ أقدم الأزمان حيث أن النشور بعد الموت من أصعب القضايا التي تاهت فيها العقول باعتبارها من أمور الغيب التي يصعب إدراكها إلاّ بخطاب الأنبياء، وإرسال الرسل .

وقد جاءت رسالات السماء مخبرة ومبينة بأن الجزاء الأخروي أمر حتمي، وحدوثه قطعي، فهناك يوم عظيم سيجتمع فيه كل الخلائق وينصب أمامهم ميزان العدل، فيجازى المؤمن على إيمانه، ويجازي الكافر على كفره ثم يكون لكلّ منهما مصير مستقر، فالمؤمن له الجنة والنعيم والكافر له النار والعذاب، قال تعالى: ﴿ **ونضع الموازين القسط ليومِ القيامة فلا تُظلم نفسٌ شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردلٍ أتَيْنا بِهَا وكَفى بِنَا حَاسِبِين**﴾[٢]. وقال تعالى أيضاً: ﴿ **وكَذلِكَ أَوْحَينَا إِلَيْكَ قُرآناً عَرَبِياً لِتنْذِرَ أُمَّ القُرىَ وَمَنْ حولها وتنْذِر يَوْم الجمعِ لا رَيب فيهِ فريقٌ في الجنَّةِ وفريقٌ في السَّعِيرِ**﴾[٣]

وقد أكثر القرآن الكريم الحديث عن الدار الآخرة، وحسابها الدقيق، ونعيمها المقيم،

---

(١) مدخل إلى القرآن الكريم ص ٨٣

(٢) سورة الأنبياء الآية ٤٧

(٣) سورة الشورى الآية ٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعذابها الدائم، وأكثر من الحديث للبشر أنّ حياتهم فوق التراب فترة صغيرة، وأنّ استغراقهم في الأحزان والأفراح خدعة كبيرة، وأنّ المسلك الوحيد الرشيد هو الإيمان بالله واليوم الآخر[١].

وقبل الحديث عن إثبات الجزاء والحساب في المنهج القرآني، تريد أن نعرف أن انكار هذا الموضوع ممتد في الأمم الماضية عبر القرون والأعصر، وأنّ الفلاسفة الطبيعيين أنكروا ذلك، ونريد أن نعرف بوجه عام الشبهات التي يستمسك بها كل منكر للبعث، وليس لدينا بالنسبة للأمم الماضية سجل تاريخي أصدق من القرآن الكريم، فقد حدثنا عن إنكار تكذيب الأمم السابقة ليوم البعث والجزاء ورفضهم لفكرة الجنّة والنار[٢] قال تعالى:﴿ **وقَالُوا أَإِذَا كنَّا عظاماً ورفاتاً أَإِنَّا لمبْعوثُونَ خَلقاً جَدِيداً قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أو حديداً أو خلقاً مّا يكبر في صدوركم فسيقولون من يُعيدُنَا قل الذِي فَطركُم أوّل مرة فَسَيُنْغِضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً** ﴾[٣].

وهؤلاء الذين أنكروا الجنة والنار، والبعث والجزاء قديماً هم الكفرة المنكرون لوجود الله، والفلاسفة الذين أطلق عليهم الغزالي(- ٥٠٥ هـ) اسم "الطبيعيين"، وهم الماديون الذين لا يومنون بما وراء المادة، وينكرون أمور الغيب، يقول الغزالي - رحمه الله - (- ٥٠٥ هـ) «الطبيعيون قوم أكثروا بحثهم في عالم الطبيعة، وعن عجائب الحيوان والنبات، وأكثروا الخوض في علم التشريح أعضاء الحيوانات فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى، وبدائع حكمته ما اضطروا معه إلى الاعتراف بفاطر حكيم مطلع على غايات الأمور ومقاصدها، ولا يطالع علم التشريح وعجائب منافع الأعضاء مُطالع إلاّ يحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير المباني لبنية الحيوان لا سيما الإنسان إلاّ أنّ هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة، ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم في قوام قوى الحيوان به، فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضاً وأنها تبطل بطلان مزاجه فينعدم ثم إذا انعدم فلا يعقل إعادة المعدوم كما زعموا، فذهبوا إلى أنّ النفس تموت ولا تعود فجحدوا الآخرة، وأنكروا الجنّة والنّار، والحشر والنشر والقيامة والحساب، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب، ولا للمعصية عقاب فانحل عنهم

(١) محمد الغزالي- المحاور الخمسة في القرآن الكريم ص ١٤٨
(٢) ينظر زاهر عواض الألمعي- مناهج الجدل في القرآن - ط٣ مطابع الفرزدق الرياض ١٤٠٤ هـ - ص٣٠٩.
(٣) سورة الإسراء الآية ٤٩-٥١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اللجام وانهمكوا في الشهوات انهماك الأنعام »[١].

وقال الراغب الأصفاني: «لم ينكر أمر المعاد والنشأة الأخرى إلاّ جماعة من الطبيعيين، أهملوا أفكارهم، وجهلوا أقدارهم، وشغلهم عن التفكير في مبدئهم ومنشئهم شغفهم بما زين لهم من حب الشهوات» ثم يقول في الرد عليهم:« فلو لم يكن للإنسان غايةً ينتهي إليها غير هذه الحياة الخسيسة المملوءة نصباً وهماً وحزناً، ولا يكون بعدها حال مغبوطة لكان أخس البهائم أحسن حالاً من الإنسان»[٢].

ومن الطوائف الإنسانية التي أنكرت الجزاء الأخروي لاعتمادها على دلائل العقل، ومعطيات المادة طائفة تدعي تناسخ الأرواح، وهي من الطوائف التي لم تستسغ تأجيل الحساب والجزاء إلى حياة أخرى بعد هذه الحياة، فرأت أن الروح تنتقل من جسد إلى جسد، فتنال جزاءها فيه، فإن كانت الروح خيِّرة حلت في جسد تجد فيه راحة ونعيماً، وإن كانت آثمة حلّت في جسد تلقى فيه البلاء والمشقة، وهذه الطائفة القائلة بالتناسخ تنكر أن تكون هناك حياة أخرى يلقى فيها الإنسان جزاءه[٣]، ولكن نقول في الردّ عليها بأنه لا بد من دار يُجازى فيها المحسن والمسيء، فيطمئن المحسن إلى إحسانه، ويشقى المسيء بإساءته، وهذا هو منطق العدل الإلهي الذي يؤمن به العقل، وترتاح له النفس .

وشُبه الفلاسفة الطبيعيين، وأهل التناسخ المنكرين تردّها الأدلة العقلية والنقلية التي تثبتُ اليوم الآخر، وتقرّر الجزاء والحساب، والجنة والنّار، « فالبعث في نظر القرآن أمر لا بد منه يسوى فيه حساب المحسنين والمسيئين بعد هذه الدنيا، وقد فرض العقل الإنساني التناسخ فرضاً، واعتسفه إعتسافاً، وتقبله وآمن به وليس بين يديه شاهد يشهد له، أو دليل يدلّ عليه، وما ذاك إلاّ أنّه رأى الحياة الدنيا لا تضع موازين العدل بين الناس، ولا تأخذ للمظلوم حقه من ظالمه»[٤].

---

(١) المنقذ من الضلال - تحقيق عبدالحليم محمود - ط دار النصر القاهرة - ص ٧٦، ٧٧.

(٢) عبدالكريم الخطيب- تفسير القرآني للقرآن ج٢ ص٩٤٩

(٣) نفسه ج٢ ص٩٥٤،٩٥٥ (٤) نفسه ج٢ ص٩٥٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد ردّ القرآن الكريم رداً مقنعاً على منكري البعث والجزاء، وبسط من الأدلة والبراهين ما يكفي لإقامة الحجة على كل مكابر ومعاند[١] وردّ على كل الأسئلة والشبه التي أثارها المنكرون، وكانت غايته هي مزج هذه العقيده بالعقول والقلوب .

ومن جملة الأسئلة التي أثارها بعض المنكرين هي لماذا لا يعجل الله الجزاء للإنسان في هذه الحياة الدنيا حتى يكون أثره ظاهراً في الحياة أمام الناس تتمثل فيه الموعظة والعبرة، ويحصل به النفع لما يظهر من جزاء أمام العيان، وقد أجاب الله سبحانه عن هذا السؤال بقوله: **﴿ ولَوْ يؤاخذُ اللّهُ الناسَ بما كسبوا ما تَرَك على ظَهْرِهَا من دَابة ولكن يؤخرهم إلى أجلٍ مُسَمىً فإذا جَاءَ أجَلُهم فإنّ اللّهَ كَان بِعباده بَصِيراً﴾**[٢] وقال أيضاً: **﴿ ولو يعجّل الله للنّاس الشرّ استعجالهم بِالخَير لقُضِيَ إِلَيْهِم أجلُهُم فنذرُ الذين لا يرجون لقاءنا فِي طغيانهم يَعْمَهُونَ ﴾**[٣].

لقد شاءت إرادة الله أن يكون الجزاء أخروياً في الأجل المسمى الذي وعد الله به عباده، ولا يخلف الله الميعاد ، وأن يكون هناك حساب وعقاب، وجنّة، ونار، ولا قيمة لكلّ تلك الأصوات المنادية بتعجيل الجزاء في هذه الحياة الدنيا.

« إن الإنسان- وهكذا شاء الله له- ليس مخلوقاً لهذه الدنيا وحدها وليست حياته كحياة الحيوان تنتهي على هذه الأرض بنهاية عمره فيها ، وإنّما الإنسان في منزلة هي عند الله أكرم وأشرف مما على هذه الأرض من كائنات، إنّه خليفة الله على هذه الأرض، فإذا أدى مدة خلافته فيها انتقل إلي عالم آخر غير هذا العالم، ونزل داراً أخرى غير هذه الدار هي أخلد وأبقى .

وليس الموت الذي ينزل بالناس إلاّ وقفة على طريق الحياة الأبدية واستعداداً لدخول عالم جديد غير هذا العالم الذي كانوا فيه ... وإذا كانت هناك حياة أخرى، فمن الطبيعي أن ينقل إليها الإنسان بما حصّل في حياته الأولى، وما جمع من خير أو شر، وعمل من حسن أو قبيح،

---

(١) زاهر عواض الألمعي- مناهج الجدل في القرآن ص ٣١٤ وما بعدها

(٢) سورة فاطر الآية ٤٥

(٣) سورة يونس الآية ١١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فانتقال الإنسان من هذه الدنيا لا يقطعه عما كان له فيها من عمل بل إن عمله كله سيصحبه إلى عالمه الجديد كما ينتقل من بيت إلى بيت، ومن بلد إلى بلد نقلة إقامة واستقرار»[١].

وإن العقل ليدرك أنّ الإنسان لا يمكن أن تتّسع دنياه لكل ما صنع وغرس، وأنّه لا بدّ له من حياة وراء هذه الحياة يجني فيها ما غرس في حياته الدنيا، ومن هنا فقد جعلت الشريعة الإسلامية للنّاس أن يحيوا حياتين معاً الحياة الدنيا، والحياة الآخرة، وأن يعملوا لهما جميعا[٢].

فالبعث الأخروي، والجنّة والنّار في نظر القرآن أمر لا بدّ منه، بل إنّه يعد الآخرة الحياة الحقيقية التي سيحياها الإنسان، قال تعالى:﴿ **وَمَا هَٰذِهِ الحياةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾[٣] قال الزمخشري (-٥٣٨هـ) في تفسير الآية :« أي ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة خالدة لا موت فيها فكأنّها في ذاتها حياة»[٤].

ونعود الآن بعد أن استعرضنا أهمية عقيدة البعث والجزاء في التصور الإسلامي، وبيّنا موقف المنكرين وأهل التناسخ من هذه العقيدة، وكيف ردّ القرآن الكريم عليهم في إثبات هذه العقيدة، نعود الآن إلى النظرة العامة للقرآن الكريم إلى هذا الموضوع وحجم المادة المعروضة فيه، وطريقة عرضها.

لقد ذُكر في السابق أنّ القرآن الكريم يهتم اهتماماً كبيراً بتقرير حقيقة البعث والجزاء، والجنّة والنّار، وهدف إلى ترسيخ هذه العقيدة في القلوب، « فالحساب في اليوم الآخر ضروري حتى تعرف كلّ نفس ما قدمت من خير أو شر، وعلى قدر هذا الخير أو الشر الذي سلكته يكون حسابها »[٥].

---

(١) عبدالكريم الخطيب- التفسير القرآني للقرآن ج٢ ص٩٤٥، ٩٤٦.
(٢)عبدالكريم الخطيب- التفسير القرآني للقرآن ج٢ ص ٩٤٨، ٩٤٩.
(٣) سورة العنكبوت الآية ٦٤.
(٤) الكشاف ج٣ ص٤٦٣.
(٥) محمد أحمد عبدالقادر- عقيدة البعث والآخرة في الفكر الإسلامي - ط دار المعرفة الجامعية - ص ٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والحقيقة أنّ القرآن الكريم أراد أن يؤكد في أذهان البشر حقيقة واقعة عن الجنّة ومتعها ونعيمها وأحوالها، وعن النّار وعذابها وشدّتها وأهوالها، حتى يتسنى للإنسان أن يقف على صورة قريبة من ذلك، ولا بدّ أن تكون هذه الصورة من جنس ما يعرفه، وأن يكون التشبيه من واقع ما يعلمه، وأن يكون المثل مّما مرّ به(١).

ويأخذ النعيم والعذاب، والجنّة والنّار حيّزاً كبيراً في القرآن الكريم فمشاهد القيامة تتوزع في معظم سور القرآن، وإن كانت كثرتها بالسور المكية، وقد تحتوي السورة الواحدة أكثر من مشهد واحد، يطول أو يقصر تبعاً للغرض الديني في السياق»(٢).

فحجم المادة المعروضة إذن كبيرة جداً، وذلك لأهمية هذا الموضوع وقيمته في التصور الإسلامي ونظرته إلى الكون والحياة والإنسان وعلاقتهم باللّه سبحانه، قال سيد قطب: « لقد عنى القرآن بمشاهد القيامة: البعث والحساب، والنعيم والعذاب،فلم يعد ذلك العالم الآخر الذي وعده النّاس بعد هذا العالم الحاضر، موصوفاً فحسب، بل عاد مصوراً محسوساً، وحياً متحركاً، وبارزاً شاخصاً، وعاش المسلمون في هذا العالم عيشة كاملة، رأوا مشاهده، وتأثروا بها، وخفقت قلوبهم تارة، واقشعرت جلودهم تارة، وسرى في نفوسهم الفزع مرة، وعاودهم الإطمئنان أخرى، ولفحهم من النّار شواظ، ورف إليهم من الجنّة نسيم، ومن ثم باتوا يعرفون هذا العالم تمام المعرفة قبل اليوم الموعود »(٣).

وهذا الذي يشير إليه سيد قطب من أنّ طريقة التصوير من أبرز طرق العرض لمشاهد القيامة، فقد عرضت بهذه الطريقة المشاهد حيّة منتزعة من عالم الأحياء وإنّها حاضرة اليوم تراها العين، وتحسّها النفس، والأمثلة على ذلك كثيرة في كتاب"مشاهد القيامة في القرآن"، ونضيف إلى ذلك أنّ طريقة التصوير ليست هي الطريقة الوحيدة البارزة في عرض مشاهد الجزاء الأخروي بل هناك طريقة التقابل حين يعرض الشيء وما يقابله، فيعرض النعيم وما يقابله من عذاب، وتعرض مشاهد الجنّة وما يقابلها من مشاهد النّار، وتعرض النماذج البشرية المتقابلة، كل فريق له صفات ووجهة متوجه إليها، وهذه الطريقة حاسمة في أداء المعاني،

(١) التهامي نقرة- عقيدة البعث في الإسلام- ط٢ دار القلم : تونس - ص١١٠ .
(٢) سيد قطب- مشاهد القيامة في القرآن - ط٢ دار المعارف : مصر - ص ١٠.
(٣) نفسه ص ٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعرض الأغراض .

ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبيَضُّ وجوهٌ وتسودُّ وجوهٌ فـأمَّا الذينَ اسْوَدَّت وُجُوهُهم أكَفَرْتُم بَعْدَ إيمانِكم فـذُوقُوا العَذَابَ بما كُنْتُم تَكْفُرُون وأمَّا الذينَ ابيضَّتْ وُجُوهُهُم فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[١] ففي هذا المشهد نرى منظراً متقابلاً، نرى وجوهاً مسودة ووجوهاً مبيضة، ولا بدّ أنّنا نعرف الآن لمن الوجوه المسودة ولمن الوجوه المبيضة، وهو مشهد حسي، ولكنّه منبعث عن تأثر نفسي ألقى ظله على الوجوه فابيضت، وعلى تلك الوجوه فاسودت[٢]، وطريقة المقابلة حاسمة في عرض الصورتين المختلفتين لأهل الجنة وأهل النّار، وفي ذلك تمييز واضح بين الفريقين، ويُجازي الله كل فريق بما يستحق من جزاء أو عقاب.

وقال تعالى: ﴿ وسِيقَ الذِينَ كَفَرُوا إلَى جَهَنَّم زُمَراً حَتَّى إذَا جَاؤُهَا فُتِحَت أبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُم خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأتِكُم رُسُلٌ مِنْكُم يَتْلُونَ عَلَيْكُم آيَاتِ رَبِّكُم ويُنْذِرُونَكُم لِقَاءَ يَوْمِكُم هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ العَذَابِ عَلَى الكَافِرِينَ قِيلَ أدْخُلُوا أبواب جَهَنَّم خالدين فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى المُتَكبرِّين وسِيقَ الذِينَ اتَّقَوا رَبَّهُم إلَى الجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إذَا جَاؤُهَا وَفُتِحَت أبْوَابُهَا وقَالَ لَهُم خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُم طِبْتُم فَادْخُلُوهَا خَالِدِين وَقَالُوا الحَمْدُ لِلهِ الذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأوْرَثَنَا الأرضَ نَتَبوأ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أجرُ العَامِلِين ﴾[٣].

هذه الآيات كما هو ملاحظ قائمة على المقابلة بين صورتين من صور الجنة والنّار، ففي الصورة الأولى يتوجه الفريق الأول إلى النّار ﴿ وسِيقَ الذِينَ كَفَرُوا إلَى جَهَنَّمَ زُمراً ﴾ يتوجهون إليها وتفتح لهم أبواب النّار بسرعة، وتذكرهم خزنة النّار بما حدث لهم في الدنيا من تكذيب الرُسل، ويعترفون هم باستحقاقهم للنّار والعذاب، أما في الصورة الثانية فقد وُجه الفريق الثاني إلى الجنّة حتى إذا وصلوا إليها إستقبلهم خزنتها بالسلام والثناء، "سلام

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٦ ، ١٠٧

(٢) سيد قطب - مشاهد القيامة في القرآن ص ٢٠٤

(٣) سورة الزمر الآية ٧١ ، ٧٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عليكم طبتم فادْخُلوهَا خَالِدِين "، وتكلمت ألسنتهم بالحمد والدعاء،" الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ مِنَ الجنّة حَيْثُ نَشاء " .

ونماذج هذا التقابل بين الجنّة والنّار، وأهل الجنّة والنّار، كثيرة جداً في القرآن الكريم، ولا يمكن استيعابها في هذا الموضوع وقد اكتفينا بعرض مثالين فقط، وسوف نعرض بعض الأمثلة من سورة التوبة فيما سيأتي من بيان.

قال تعالى في سورة التوبة: ﴿ **وَعَدَ اللّهُ المنافِقِينَ والمُنافِقَاتِ والكفارَ نار جهنم خالدين فِيهَا هِيَ حَسْبُهُم وَلَعَنهم اللّهُ وَلَهُم عَذابٌ مُقيمٌ** ﴾[1] وقال في مقابل ذلك: ﴿**وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنّات تجري مِنْ تَحْتِها الأنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَساكِنَ طيّبةٍ فِي جنّاتِ عَدْنٍ ورضوانٌ مِنَ الله أكْبَر ذلِك هُوَ الفَوْزُ العَظِيْم**﴾[2].

في الآيتين صورتان من صور التقابل بين النعيم والعذاب، والجنّة والنار، فالآية الأولى تعد المنافقين والكفار وعيداً سيّئاً هو النّار، أما الآية الثانية فتعد المؤمنين وعداً حسناً هو الجنّة وما فيها من نعيم مقيم، بل إنّ الله تعالى أضاف لهم على غرار الجنّة رضوانه بما يسعد نفوسهم ويفرح قلوبهم.

ويستفاد من الآيتين أنّ الله سبحانه ولحكمة يراها هو- أجّلَ العذاب للكفار والمنافقين ومن لفّ لفهم من الحياة الدنيا إلى الآخرة، وأجل النعيم الكامل للمؤمنين كذلك من الحياة الدنيا إلى الآخرة، وفي ذلك كمال العدل والإنصاف، فالمنافقون والكفار استحقوا عذاب الله بما صدر منهم من كفر بالله، ومحاربة لله ورسوله، وأمر بالمنكر ونهي عن ا لمعروف، وتخلف عن الجهاد في سبيل الله، أما الطرف الآخر وهم المؤمنون فقد استحقوا نعيم الله بما وفقهم الله إلى إيمان به وبرسوله، وباتباعهم أوامر الله، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وقيامهم بمقتضيات التوحيد المحض في أتم صوره .

---

(١) سورة التوبة الآية ٦٨

(٢) سورة التوبة الآية ٧٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وطريقة المقابلة التي يختارها السياق القرآني هنا هي التي أبرزت هذه المعاني، وأقامت الأشياء على أساس من الضدية للتمييز بين مصير الحق، ومصير الباطل في اليوم الآخر.

وقال تعالى: ﴿ لكنِ الرَّسولُ والذينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِم وَأَنْفُسِهِم وأُولئِكَ لَهُم الخَيْرَاتِ وأُولئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ أَعدَّ اللَّهُ لَهُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأنهار خَالِدينَ فِيهَا ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ وَجاءَ المعذِّرُونَ من الأعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُم وقعد الذِينَ كَذَبوا اللّهَ ورَسولَهُ سَيُصِيب الذِينَ كَفَروا مِنْهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1].

تتحدث هذه الآيات عن صنفين متقابلين من الناس، ولكلّ صنف طبيعته وجزاؤه، أمّا الصنف الأول من الناسّ فهو الرسول والذين آمنوا معه الذين نهضوا بتكاليف العقيدة، وادعوا واجب الإيمان، وعملوا للعزة التي لا تنال بالقعود بل بالجهاد والقتال، فهؤلاء وعدهم اللّه بأنّ لهم الخيرات، خيرات الدنيا والآخرة، في الدنيا لهم العزة ولهم الكرامة ولهم المغنم ولهم الكلمة العالية وفي الآخرة لهم الجزاء الأوفى، ولهم رضوان اللّه الكريم" وأولئك هم المفلحون "[2].

أما الصنف الثاني من النّاس فهم المنافقون الذين كفروا باللّه وناصبوه العداوة والبغضاء، وتخلفوا عن الجهاد مع الرسول صلى اللّه عليه وسلم، هؤلاء ينتظر الذين كفروا منهم عذاب أليم، أمّا الذين يتوبون ولا يكفرون فمسكوت عنهم لعلّ لهم مصيراً غير هذا المصير.

وطريقة العرض في الآيات تعتمد على المقابلة بين الجنّة ونعيمها والنّار وعذابها، فقد قابلت بين الجنة وما أعدّ اللّه فيها للرسول والذين آمنوا معه الذين قاموا بتكاليف العقيدة، وبين النّار وما أعدّ اللّه فيها للمنافقين الكفار الذين كفروا باللّه وتخلفوا عن الجهاد.

---

(١) سورة التوبة الآية ٨٨ ، ٩٠

(٢) سيد قطب – في ظلال القرآن ج ٣ ص ١٦٨٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع :

المقابلة وقضايا السياسة والاقتصاد :

أ – المقابلة بين الجهاد والقعود عنه.

ب– المقابلة بين الفقر والغنى.

جـ– المقابلة بين العدل والظلم.

د – المقابلة بين الاجتماع والفرقة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ - المقابلة بين الجهاد والقعود عنه :

الجهاد في اللغة من الجَهد والجُهد وهو الطاقة والمشقة[١]، وهو مصدر جاهد جهاداً ومجاهدة إذا بالغ في قتل عدوه، وفي الاصطلاح هو بذل الجهد في مدافعة الشرّ واستجلاب الخير، وعندما يطلق الجهاد يتجه إلى الجهاد في المعركة بالنفس والمال[٢].

وقال ابن تيمية رحمه الله (- ٧٢٨ هـ): «الجهاد هو بذل الوسع -وهو القدرة- في حصول محبوب الحقّ، ودفع ما يكرهه الحق»، وقال في موضع آخر «وذلك لأنّ الجهاد حقيقته الاجتهاد في حصول ما يحبّه الله من الإيمان والعمل الصالح، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان»[٣].

والجهاد في سبيل الله فرض من فروض الشريعة الإسلامية، وهو وسيلة من وسائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو ذروة سنام الإسلام، وهو من أخصّ ما تتميّز به الأمة الإسلامية، «فبه رسخت دعائم دعوة الإسلام، وانتشرت في أرجاء المعمورة، واندحرت جحافل الشرك، وبلغت هذه الأمة ذروة المجد، وتسنمت قمة العزة، ورهبها القاصي والداني، وأقامت شريعة الله في أرضه، وبنت الحضارة المثالية الفاضلة التي لا تعهد لها البشرية مثيلاً»[٤].

لقد حفل القرآن الكريم بالدعوة إلى الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿ **وجاهِدُوا في اللّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُم وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُم فِي الدِينِ مِنْ حَرَج** ﴾[٥] وقال تعالى أيضاً: ﴿ **ولْتَكُن مِنْكُم أُمَّةٌ يَدْعُون إِلَى الخَيرِ وَيَأْمُرُونَ بالمعروفِ وَيَنْهَوْن عَنِ المُنْكَرِ وأولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ** ﴾[٦].

---

(١) الفيروز آبادي - بصائر ذوي التمييز - ج ٢ - ص ٤٠١.

(٢) أحمد شلبي - الجهاد والنُظم العسكرية في التفكير الإسلامي - ط ٢ مكتبة النهضة الإسلامية: القاهرة، ١٩٧٤م - ص ٢٣.

(٣) الفتاوى - ج ١٠ - ص ١٩١، ١٩٢.

(٤) ينظر عبدالله القادري - الجهاد في سبيل الله - ط ١ دار المنارة: جدة، ١٩٨٥م - ج ١ - ص ٨.

(٥) سورة الحج / الآية ٧٨.

(٦) سورة آل عمران / الآية ١٠٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال ابن قيم الجوزية - رحمه الله - (- ٧٥١ هـ): «فحق جهاده أن يجاهد العبد نفسه ليُسلم قلبه ولسانه وجوارحه لله ليكون كلّه لله وبالله لا لنفسه ولا بنفسه، ويجاهد شيطانه بتكذيب وعده ومعصية أمره، وارتكاب نهيه، فإنه يعد الأماني ويمني الغرور ويعد الفقر، ويأمر بالفحشاء، وينهى عن التقى والهدى، والعفة والصبر والأخلاق والإيمان كلّها فجاهده لتكذيب وعده ومعصية أمره، فينشأ من هذين الجهادين قوة وسلطان، وعدّة يجاهد بها أعداء الله في الخارج بقلبه ولسانه ويده وماله لتكون كلمة الله هي العليا»[١].

وقال ابن تيمية (- ٧٢٨ هـ) في هذا المعنى: «إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامه بالجهاد هو من أعظم المعروف الذي أمرنا الله به، ولهذا قيل: ليكن أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر غير منكر، وإذا كان هو من أعظم الواجبات والمستحبات، فالواجبات والمستحبات لابدّ أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة إذ بهذا بعثت الرسل ونزلت الكتب، والله لا يحب الفساد بل كل ما أمر به فهو صلاح، وقد أثنى الله على الصلاح والمصلحين والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذم المفسدين في غير موضع»[٢].

ولأهمية الجهاد في الشريعة الإسلامية فقد وردت آيات كثيرة تحثّ النّاس عليه، وتحذر من القعود عنه، وفي القرآن أيضاً آيات وفصول كثيرة فيها إسهاب تارة واقتضاب تارة أخرى في صدد الوقائع الجهادية، ولكن الأسلوب المميّز لها جميعها هو عدم قصد سرد الوقائع سواء من حيث الكليات أو من حيث الجزئيات وإنّما هدفت إلى التنبيه والموعظة والتهدئة والتسلية والتنديد والحثّ حسب مقتضى ظروف الوقائع ومقتضى حكمة التنزيل، وفيها معالجات روحية وتلقينات بليغة مستمرة المدى للمسلمين في كل ظرف[٣].

واهتمام القرآن بهذا الموضوع له طابع الدعوة إلى الممارسة التطبيقية، والسلوك العملي، ولا يعطي القرآن أي اهتمام إلى الجدل حول الماهيات وحدود المصطلحات، بل هو مهتم بكل ما يراه مصلحة للعباد في دينهم وأمور دنياهم، وهذا الموضوع هو من أركان الإسلام الأساسية في

---

(١) زاد المعاد - ج ٣ - ص ٨.

(٢) الفتاوى - ج ٢٨ - ص ١٢٦.

(٣) محمد دروزة - الجهاد في سبيل الله في القرآن والحديث - ط دار اليقظة: دمشق، ١٩٧٥م - ص ١٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سبيل تحقيق مقتضى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لقد شرع الله تعالى الجهاد لإخراج النَّاس من الظلمات إلى النور من جهة، ولتكون كلمة الله هي العليا من جهة ثانية، ولحماية المسلمين من أن يفتنوا في دينهم، أو تستباح حرماتهم وتحتل أرضهم من جهة ثالثة، وكل هذه الأمور يجب أن تستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولا يمكن استمرار تحقيقها إلاّ باستمرار الجهاد في سبيل الله[١].

إنّ غاية الجهاد هي لتحقيق الوحدانية ومقتضياتها في الأرض، ونشر الخير والعدل وإقامة موازين الحق بين الناس، قال تعالى: ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ** ﴾[٢] وهذه الآية بيّنت الغاية من القتال والجهاد وهي ألاّ يوجد شيء من الفتنة في الدين[٣]، وهذه الفتنة هي سبب كل شرّ أو مكروه يقع الناس فيه.

وقد أثار المستشرقون وأعداء الإسلام شبهات كثيرة حول الجهاد وعدوه من أسباب الضرر والفساد في الأرض، وعدّوه تعدياً على الناس بالسيف وحملهم بالإكراه على اعتناق الإسلام، وكيف وظاهر الإسلام وباطنه جميعاً سلم وسلام، فاسمه "الإسلام" مشتق من السلام والسلامة والسلم، وشارات التحية بين أتباعه، ومن أتباعه السلام والرحمة والبركة، أما شريعته وأحكامه فكلها قائمة على اليسر والرحمة والسلام بين الإنسان ونفسه، وبينه وبين الناس جميعاً، وحقاً إنّ الإسلام قد دعا أتباعه إلى الحذر من العدو، والإعداد للحرب، والأخذ بأسباب القوة، وذلك لأن الإسلام دين واقعي، يعايش الحياة في أعدل أحوالها ويستقي من أعذب عيونها، وأصفى مواردها، وليس مجرد أحكام ومقررات نظرية، يتمثلها الناس ولا يحققونها، ويتصورونها ولا يتعاملون بها، أشبه بما وقع في تصورات الفلاسفة وخيالات الشعراء ان يتعدّ بها أصحابها في أحلام يقظتهم، فإنهم لم يمسكوا منها بشيء إذ هم فتحوا أعينهم على الحياة وواقعها[٤].

---

(١) ينظر عبدالله القادري - الجهاد في سبيل الله - ص ١٠٧.
(٢) سورة البقرة / الآية ١٩٣.
(٣) محمد رشيد رضا - تفسير المنار - ج ٢ - ص ٢١١.
(٤) عبدالكريم الخطيب - التفسير القرآني للقرآن - ج ٢ - ص ٦٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويمكن أن نرد على أولئك الرافضين لفكرة الجهاد التي جاء بها الإسلام وحثّ عليها القرآن بأن نقول إن قولكم بأنّ الإسلام دين قام على السيف «دعوى كاذبة مضلة يراد بها النيل من المسلمين ودولتهم كما يراد بها النيل من الإسلام وشريعته.. إنّها دعوة خبيثة مسمومة، يراد بها أن تنهزم في نفس المسلم معاني العزّة والقوة، لأنّه إن أراد أن يسقط تلك الدعوى الباطلة، ويدفع هذه التهمة الظالمة، كان أقرب سبيل إليه هو أن يتجرد من كل سلاح، وأن يتعرى من كل قوة.. وما حاجته إلى السلاح إن كان السلاح سبّة تدين دينه، وتريه منه أنّه دين بداوة وهمجية، وشريعة غاب، يحكم مجتمعها التناطح بالقرون، والتقاتل بالمخالب والأنياب»[١].

ونضيف على ذلك بأن «المرء مهما كانت نحلته وهواه حينما يتمعن في ما جاء في مبادىء الجهاد الإسلامي وإجرائياته وأهدافه الرامية إلى ضمان الدعوة إلى دين الله، وسبله القويمة ومنع تعطيلها والدفاع عن المنضوين إليها والمقصورة على مقابلة المعتدين عليها وعليهم بالمثل، مع منح كلّ إنسان حرية الاحتفاظ بدينه وممارسته لطقوسه وسائر أشغاله المشروعة بدون عدوان على الآخرين، والآمرة بعدم مبادأة أحد بالعدوان بسبب دينه وتصرفاته المشروعة البريئة من الظلم والبغي، وبالكف عن كل من كف لسانه ويده عن الإسلام والمسلمين وبقبول ظواهر المسالمة منه، وبالجنوح إلى السلم مع من يجنح إليها من الأعداء المحاربين، سواء كان ذلك قبل نشوب حرب معهم أو بعدها، وبالكف عن كلّ من ينتهي من موقف عدائه بالإسلام أو بالخضوع أو بالصلح وبالعفو عن كلّ ما يرتكبه العدو إذا ما انضوى إلى الإسلام واعتباره أخاً للمؤمنين، وبالوفاء بالعهد وعدم الغدر فيه، وبدعوة الأعداء إلى الإسلام أو الخضوع أو الصلح قبل إنشاب الحرب معهم، وبعدم قتل غير المحاربين من نساء وأطفال وشيوخ، وبعدم التمثيل بالقتلى وبعدم قصد الغنائم ونهب الأموال في إنشاب الحرب مع الأعداء وعدم إجبار أحد بذلك على الدخول في الإسلام، وبعدم قصد الإبادة والاكتفاء بالإثخان والاستعاضة عن القتال بالاستعداد والإرهاب وباطلاق سراح أسرى الحرب بالمن والفداء دون إيجاب قتلهم واسترقاقهم الخ.. مما هو ملموح في آيات القرآن وأحاديث الرسول صلّى الله عليه وسلم، ثم يتمعن فيما قامت عليه حروب بني إسرائيل من المبادىء المسجلة في

(١) عبدالكريم الخطيب - التفسير القرآني للقرآن - ج ٢ - ص ٦٥٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أسفارهم التي تعتبر كلّ من عداهم أعداء يحل لهم دماءهم وأموالهم واستعبادهم بدون سابق عداء واستفزاز وعدوان»[١].

إنّ الجهاد في القرآن وفي الشريعة بعامة له غاياته السامية وأهدافه النبيلة في تحرير الإنسان من عبادة البشر أو الأوضاع، إلى عبادة الله وحده، وهو من مقتضيات الصراع بين الخير والشر في هذه الأرض.

لقد أقام الله الحياة على المقابلة الكبرى بين الحق والباطل، وجعل الصراع بينهما سنّة من سنن الله الاجتماعية، تمحيصاً لأهل الحق ودحضاً للباطل وأهله، وصيانة لمتعبدات الدين حتى تظل راية التوحيد عالية خفاقة يستظل بها المؤمنون بالله، ويجدون في كنفها أمن النفس، وراحة القلب، ومتعة الإيمان[٢].

فمن الحكمة ومن الواجب إذن أن يقيم الإسلام أتباعه في الحياة على طريق بين الخير والشر، وهم في هذا الطريق مدعوون إلى التعامل مع الخير، ثمّ هم في الوقت نفسه مطالبون بتجنب الشر والأشرار، وأخذ حذرهم منه، ومنهم جميعاً[٣].

والجهاد هو الوسيلة الفعّالة لإحقاق الحق ودحض الباطل، «فالحق يحتاج إلى من يظهره بأنه حقّ، وإذا كان كلّ ماعدا الحق باطلاً وضلالاً فإن الأصل الذي تقره العقول أن تتعاون البشرية كلّها على إظهار الحقّ وهيمنته وعلى طرد الباطل والضلال، لأنّ سعادة الخلق في ظهور الحقّ وهيمنته في الأرض وشقاءهم في ظهور الضلال والباطل وهيمنتهما، ولو أن أغلب الناس تعاونوا على إظهار الحقّ وطرد الباطل لذابت القلة الضالة واضمحل شرّها»[٤].

وإظهار الحق ودحض الباطل لا يظهران إلاّ بالجهاد ووسائل الدعوة والإقناع وإلاّ رجحت كفة الباطل وأهله، وأصبحت الحياة خاضعة لسلطانه وسلطان أوليائه من البشر والطواغيت قال ابن تيمية -رحمه الله- (- ٧٢٨ هـ) «إذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد ومقصوده هو

(١) محمد عزة دروزة - الجهاد في سبيل الله في القرآن والحديث - ص ١٧٨، ١٧٩.
(٢) عبدالله القادري - الجهاد في سبيل الله - ص ٨.
(٣) عبدالكريم الخطيب - التفسير القرآني للقرآن - ج ٢ - ص ٦٥٣.
(٤) عبدالله القادري - الجهاد في سبيل الله - ص ٥٥٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، فمن امتنع من هذا قوتل باتفاق المسلمين»[١] وقال أيضاً: «وكلمة الله اسم جامع لكلماته التي تضمنها كتابه، وهكذا قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾[٢] فالمقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب أن يقوم الناس بالقسط في حقوق الله وحقوق خلقه ثم قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾[٣] فمن عدل عن الكتاب قوّم بالحديد ولهذا كان قوام الدين بالمصحف والسيف، وقد روي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نضرب بهذا - يعني السيف - من عدل عن هذا يعني المصحف»[٤].

وأهمية الجهاد في سبيل الله ليست خاصية القرآن وحده بل هي من خصائص الكتب المنزّلة أيضاً، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[٥].

فقد ذكرت الآية الكريمة أن الجهاد من صفات المؤمنين في كل الأزمان وعلى مر العصور، وأنّه وعد مكتوب في الكتب السماوية المنزّلة، وهذا الوعد هو صفقة بين الله والمؤمنين، سلعتها الجنة، وبائع السلعة الله الخالق المعبود، ومشتريها المؤمنون، وثمنها الأنفس والأموال لمقارعة أعداء الله في كل زمان، وقد سجل كل هذا في الكتب السماوية وفي القرآن الكريم، وهو أمر باق إلى يوم القيامة.

ونمضي الآن مع سورة التوبة لدراسة طريقة استخدامها لأسلوب المقابلة في عرض قضية

---

(١) الفتاوى - ج ٢٨ - ص ٣٥٤.
(٢) سورة الحديد / الآية ٢٥.
(٣) سورة الحديد / الآية ٢٥.
(٤) الفتاوى - ج ٢٨ - ص ٢٦٣ - ٢٦٤.
(٥) سورة التوبة / الآية ١١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجهاد وما يقابله من قعود وتخلف عنه، قال تعالى: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾[١].

هذه الآيات تقابل في مضمونها بين الجهاد والقعود عنه، وبين المؤمنين المجاهدين وفضلهم عند الله، وبين المتخلفين الذين اعتبروا المساجد وخدمة الحجيج أفضل أجراً وأحسن عملاً عند الله، وقبل الحديث عن أسلوب التقابل لابد أن نتحدث عن القيَم الدينية والمعنوية التي أفرزها هذا الأسلوب في الأداء، فأول قيمة دينية أنّه لا وجه للمقابلة بين الجهاد وبين أي عمل آخر حتى ولو كان عملاً متعلقاً ببيت من بيوت الله هو أفضل البيوت عنده، وأفضل خدمة عنده وهي خدمة الحجيج، قال ابن قيم الجوزية (- ٧٥١ هـ): «فأخبر سبحانه وتعالى أنّه لا يستوي عنده عمّار المسجد الحرام،وهم عمّاره بالاعتكاف والطواف والصلاة، هذه هي عمارة مساجده المذكورة في القرآن، وأهل سقاية الحاج، لا يستوون هم وأهل الجهاد في سبيل الله، وأخبر أن المجاهدين أعظم درجة عنده، وأنّهم هم الفائزون، وأنّهم أهل البشارة بالرحمة والرضوان والجنّات، فنفى التسوية بين المجاهدين وعمّار المسجد الحرام مع أنواع العبادة، مع ثنائه على عمّاره بقوله: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾[٢] فهؤلاء هم عمّار المساجد ومع هذا فأهل الجهاد أرفع درجة عند الله منهم»[٣].

لقد قابلت الآيات بين المؤمنين المجاهدين والقاعدين المتخلفين، وبعد هذه المقابلة جاء نفي التسوية بينهما في ميزان الحق والعدل، و«لما كان نفي استواء الفريقين ونفي اهتداء الظالمين إلى الحكم الصحيح في موضوع المفاضلة بينهما وإن اقتضيا بمعونة السياق تفضيل فريق المؤمنين المجاهدين على فريق السدنة والسقائين - لا يعرف أحد كنه هذا الفضل ولا درجة أهله

(١) سورة التوبة / الآية ١٩، ٢٠.

(٢) سورة التوبة / الآية ١٨.

(٣) طريق الهجرتين - ط قطر - ص ٦٢٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عند الله تعالى وكان ذلك مما يتشرف له التالي والسامع بينه تبارك اسمه بياناً مستأنفاً يتضمن الرد على المؤمنين الذين تنازعوا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الأعمال بعد الإسلام أفضل فقال ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ** ﴾... أي أعظم درجة وأعلى مقاماً في الفضل والكمال في حكم الله، وأكبر مثوبة في جوار الله من أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام الذين رأى بعض المسلمين أنّ عملهم أفضل القربات بعد هداية الإسلام[١].

والقيمة الأخرى التي يمكن أن تستفاد من المقابلة بين المؤمنين المجاهدين وغيرهم من القاعدين لخدمة المساجد وإعمار البيوت وخدمة الحجيج أنّ ميزان الله هو الميزان وأن تقديره هو التقدير، فالله يهتم باخلاص العمل لوجهه الكريم، وأن يكون صواباً موافقاً للشرع، وهؤلاء القاعدون لم يكونوا يملكون من نوايا العبادة الخالصة لله شيئاً، ولذلك جاءت الموازنة بينهم وبين المؤمنين المجاهدين لتجعلهم في مرتبة أدنى من المرتبة التي ظن الناس أنهم بها هم الفائزون، قال سيد قطب: «إنما يتوجه القلب وتعمل الجوارح، ثم يكافىء الله على التوجه والعمل بالهداية والوصول والنجاح، هذه هي القاعدة في استحقاق عمارة بيوت الله، وفي تقويم العبادات والشعائر على السواء يُبيّنها الله للمسلمين والمشركين، فما يجوز أن يسوى الذين كانوا يعمرون الكعبة ويسقون الحجيج في الجاهلية، وعقيدتهم ليست خالصة لله، ولا نصيب لهم من عمل أو جهاد، لا يجوز أن يسوى هؤلاء لمجرد عمارتهم للبيت وخدمتهم للحجيج - بالذين آمنوا إيماناً صحيحاً وجاهدوا في سبيل الله وإعلاء كلمته ﴿ **أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ** ﴾[٢].

والآيات كما هو ملاحَظ تعتمد على طريقة المقابلة في العرض، فقد قابلت بين نموذجين من النماذج البشرية، النموذج الأول هم أولئك الذين قعدوا عن تكاليف الإيمان والجهاد، واعتبروا أن عمارة المسجد الحرام وخدمة الحجيج هي من أفضل الأعمال عند الله، أما النموذج الثاني فهم المؤمنون المجاهدون الذين أخلصوا عبادتهم لله، فهذان النموذجان المتقابلان تقابل

(١) محمد رشيد رضا - تفسير المنار - ج ١٠ - ص ٢١٩، ٢٢٠.

(٢) في ظلال القرآن - ج ٣ - ص ١٦١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تضاد واختلاف من حيث العمل وإخلاصه، ومن حيث الجزاء والثواب الذين ينتظراهما، قال عنهما الله سبحانه ﴿ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ فالمقابلة من هذا الجانب قد أفرزت جانب الحق وميّزته عن الباطل، وجعلت المفاضلة على أساس صحة العمل والإخلاص فيه لوجه الله وحده، وجعلت فضل الجهاد عند الله أفضل من العقود والتخلف عنه حتى ولو كان لأمر فيه مصلحة كعمارة المساجد وسقاية الحجيج. قال ابن تيمية - رحمه الله - (-٧٢٨ هـ): «الجهاد سنام العمل وقد انتظم سنام جميع الأحوال الشريفة ففيه سنام المحبة.. وفيه سنام التوكل والصبر وفيه الهداية، وفيه حقيقة الزهد في الحياة الدنيا وفي الدار الآخرة... وفيه حقيقة الإخلاص فإن الكلام فيمن جاهد لا في سبيل الرياسة ولا في سبيل المال ولا في سبيل الحمية، وهذا لا يكون إلاّ لمن قاتل ليكون الدين كلّه لله، ولتكون كلمة الله هي العليا وأعظم مراتب الإخلاص تسليم النفس والمال للمعبود »[١].

وقال تعالى في سورة التوبة: ﴿ لا يَسْتَأْذِنُكَ الذِينَ يُؤمنون بالله واليوم الآخر أن يُجاهِدُوا بأمْوالِهِم وأنْفُسِهِم واللّهُ عَلِيمٌ بالمتّقِين إنّما يَسْتَأْذِنُكَ الذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ واليَوْمِ الآخِرِ وارْتَابَتْ قُلُوبُهُم فَهُم فِي رَيْبِهِم يَتَرَدَّدُونَ وَلَوْ أَرَادُوا الخُرُوجَ لأعدُّوا لَهُ عُدَّةً ولكن كَرِهَ اللّهُ انْبِعاثَهُم فَثَبَّطَهُم وقِيل اقْعُدُوا مَعَ القَاعِدِين ﴾[٢].

سورة التوبة هي الفاضحة والكاشفة لجميع أنواع النفاق الظاهرة والباطنة، وهذه الآيات في سياق بيان الفرق بينهم وبين المؤمنين في أمر الجهاد.

والآيات كما هو ملاحَظ تعقد مقابلة بين نموذجين من النّاس، النموذج الأول هم المنافقون الذين تخلّفوا عن الجهاد وقعدوا عنه، والنموذج الثاني هم المؤمنون الذين جاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم وكانوا مثالاً رائعاً لأهل الحق والتقوى.

والآيات حين تختار طريقة المقابلة في العرض فذلك لتأدية المعاني والقِيَم الدينية والفكرية التي تتميّز بها الأشياء، فمن هذه القِيَم أنّ المؤمن الصادق يختلف اختلافاً كبيراً عن

(١) الفتاوى - ج ٢٨ - ص ٤٤١، ٤٤٢.
(٢) سورة التوبة / الآية ٤٤ - ٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المنافق الكافر حينما يتعلق الأمر بقضايا الجهاد، فمن صفات المؤمن أنّه لا يستأذن في الخروج أو القعود كراهة أن يجاهد بل إذا أمره الرسول بشيء ابتدر إليه، وكان الاستئذان في ذلك الوقت علامة النفاق[١] أما المنافق فيفضل الاستئذان والقعود.

وهذه الآيات تقرّر القواعد التي يمتاز بها الفريقان، فريق المؤمنين وفريق المنافقين، فالقاعدة الأولى التي لا تخطىء هي أنّ المؤمنين الذين يؤمنون بالله ويعتقدون بيوم الجزاء لا ينتظر أن يؤذن لهم في أداء فريضة الجهاد ولا يتلكؤون في تلبية داعي النفرة في سبيل الله بالأموال والأرواح، بل يسارعون إليها خفافاً وثقالاً كما أمرهم الله، طاعة لأمره، ويقيناً بلقائه وثقة بجزائه وابتغاء رضاه، وإنهم ليتطوعون تطوعاً فلا يحتاجون إلى من يستحثهم فضلاً عن الإذن لهم[٢] والقاعدة الثانية التي لا تخطىء أيضاً أن المنافقين هم المترددون في الخروج الملتمسون للأعذار لعل عائقاً من العوائق يحول بينهم وبين النهوض بواجب الجهاد وفرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والسبب في ذلك راجع إلى عدم إيمانهم بالله وخلو قلوبهم من التقوى واليقين.

وقال عبدالكريم الخطيب في تفسيره: «الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً صادقاً لا يطلبون الإذن لأنفسهم بالتخلف عن القتال، ذلك أنّهم - مع الأعذار القائمة معهم - لا يجعلون من تلك الأعذار حاجزاً يحجزهم عن أخذ حظّهم من الجهاد في سبيل الله، فإذا دعا الداعي إلى الجهاد كانوا في مقدمة المستجيبين له، حتى إذا نطقت حالهم عن أنّهم بهذه الأعذار التي معهم من مرض، أو صغر، أو شيخوخة أو نحو هذا لن يتمكنوا من الانتظام في صفوف المجاهدين رحمة بهم، وتخفيفاً من مئونتهم على المسلمين كان ذلك مما يحزنهم، ويبعث الحسرة والأسى في نفوسهم.. أمّا الذين في قلوبهم مرض ونفاق، فإنّهم لا يعجزهم العثور على العلل والمعاذير التي يقدمونها للنبيّ والمسلمين، لتكون مبرراً لتخلّفهم عن الجهاد، فهؤلاء هم الذين يجيئون إلى النبيّ بأعذارهم الكاذبة ويستأذنونه في التخلف»[٣].

---

(١) ينظر أبوحيان الأندلسي - تفسير البحر المحيط - ج ٥ - ص ٤٢٧.

(٢) سيد قطب - في ظلال القرآن - ج ٣ - ص ١٦٦٢.

(٣) التفسير القرآني للقرآن - ج ٢ - ص ٧٨٢، ٧٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنّ هذه القيَم المستفادة من الآيات قد أدّاها السياق القرآني معتمداً على أسلوب المقابلة الذي أقام تضاداً بين نموذجين من النماذج البشرية، كل ذلك لغايات نبيلة هي تمييز الطيّب من الخبيث، والتفريق بين الحق والباطل،وتفضيل الجهاد والمجاهدين، وذم القعود والقاعدين.

وقال تعالى: ﴿ وإذَا أُنْزِلَت سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ القَاعِدِينَ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الخَوالِفِ وطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِم فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ لَكِن الرسولُ والذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِم وأَنْفُسِهِم وأُولَئِكَ لَهُمُ الخَيْرَاتُ وأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾[1].

في هذه الآيات مقابلة بين الجهاد والقعود عنه، وفيها «بيان بحالة المنافقين العامة في أمر الجهاد بالمال والنفس الذي هو أقوى آيات الإيمان بالله ورسوله وما جاء به، وما يقابله من حال المؤمنين الصادقين فيه، وما بين الحالين من التضاد في العمل والأثر في القلب اللذين هما مناط الجزاء»[2].

قال أبوحيان في البحر المحيط: «لما ذكر أنّ أولئك المنافقين اختاروا الدعة وكرهوا الجهاد، وفرّوا من القتال، وذكر ما أثر ذلك فيهم من الطبع على قلوبهم، ذكر حال الرسول والمؤمنين في المثابرة على الجهاد وذلك ما لهم من الثواب»[3].

وهذه الآيات كالتي سبقتها تميّز بين نموذجين من البشر، نموذج المنافقين، ونموذج المؤمنين، وتبين مواقفهم المتباينة تجاه الجهاد وتكاليفه، ولكن هذه الآيات تكشف عن وجه آخر من وجوه المنافقين وتفضح طائفة أخرى من طوائفهم وهم أصحاب الرياسة والسيادة والقدرة فيهم، هؤلاء المنافقون ﴿ إذَا أُنْزِلَتْ سُورَة أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ﴾ أي إذا أنزل قرآن يحمل إلى المؤمنين أمراً من الله سبحانه وتعالى يذكّرهم بالإيمان بالله، ويدعوهم إلى الجهاد مع رسول الله ﴿ استَأْذَنَكَ أولو الطَّوْلِ مِنْهُم وقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ القَاعِدِينَ ﴾ أي بادر أصحاب الطول هؤلاء إلى التحلل من هذا الأمر بالاعتذار إلى رسول

(١) سورة التوبة / الآية ٧٦ – ٨٨.
(٢) محمد رشيد رضا – تفسير المنار – ج ١٠ – ص ٥٨١.
(٣) تفسير البحر المحيط – ج ٥ – ص ٤٨٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الله، واستئذانه في أن يعفيهم من إجابة هذه الدعوة، والجهاد في سبيل الله[١].

قال سيد قطب: «إنهما طبيعتان، طبيعة النفاق والضعف والاستحذاء، وطبيعة الإيمان والقوة والبلاء، وإنهما خطتان: خطة الالتواء والتخلف والرضى بالدون، وخطة الاستقامة والبذل والكرامة»[٢].

فإذا كان المنافقون وأصحاب الطول فيهم قد نكصوا على أعقابهم ورضوا بأن يكونوا مع الخوالف والقاعدين فإن الرسول صلّى الله عليه وسلم والمؤمنون جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، فهذان طرازان مختلفان تمام الإختلاف وهما متقابلان تقابل تضاد في الأصل والموقف والمآل، وقد حرص السياق القرآني على التفريق بين هذين الطرازين في الصفات والأفعال والأقوال كلّ ذلك لكي يصفي النموذج الإيماني ويهيئه إلى الجزاء الأخروي الذي يستحقه وهو الفوز بالجنة "فأُولَئِكَ لَهُمُ الخَيْرَاتُ" خيرات الدنيا والآخرة، في الدنيا لهم العزة ولهم الكرامة ولهم المغنم ولهم الكلمة العالية، وفي الآخرة لهم الجزاء والرضوان وأولئك هم المفلحون، أما الطراز الآخر وهو النفاق فقد وضّح السياق القرآني طبيعة النفاق والمنافقين، وبيّن الصفات التي يتخلّقون بها، والمواقف المتخاذلة التي يقفونها حين يحين وقت الشدّة، كلّ هذا لبيان أنّ طبيعة النفاق متكررة في كلّ عصر وزمان، وأنّها هي سبب الهزيمة والفساد في صفوف الأمة الإسلامية.

وبعد الحديث عن بعض القِيَم التي تفيدها الآيات نخلص إلى أنّ هذا السياق القرآني أيضاً يفضل أسلوب المقابلة في عرض هذه القِيَم والأفكار فقد جاءت المقابلة واضحة صريحة بين نموذجين متباينين، نموذج النفاق ﴿ **استَأْذَنَك أولو الطَّوْلِ مِنْهُم وقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ القَاعِدِين** ﴾ ونموذج الإيمان ﴿ **لكِن الرسولُ والذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِم وأَنْفُسِهِم** ﴾، وكانت الغاية من عقد هذه المقابلة بيان المعنى في أحسن صوره، وتمييز الحق من الباطل، إذ بعرض الشيء وضده تتميّز وتتوضّح الأشياء.

---

(١) عبدالكريم الخطيب - التفسير القرآني للقرآن - ج ٢ - ص ٨٦١.

(٢) في ظلال القرآن - ج ٣ - ص ١٦٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب - المقابلة بين الفقر والغنى :

الفَقْرُ والفُقْرُ ضد الغنى[١]، والفقير عند العرب المحتاج. قال تعالى: ﴿ **أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ** ﴾[٢] أي المحتاجون إليه.

وقد ورد لفظ الفقر في القرآن الكريم في أربعة مواضع: أحدها: قوله تعالى: ﴿**لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ**﴾[٣] أي الصدقات لهؤلاء الذين حبسوا أنفسهم على الجهاد. والموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ** ﴾[٤]. والموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ** ﴾[٥]. والموضع الرابع: قوله تعالى: ﴿ **رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** ﴾[٦].

«الصنف الأول خواص الفقراء، والثاني فقراء المسلمين خاصهم وعامّهم، والثالث الفقر العام لأهل الأرض كلّهم غنيهم وفقيرهم، مؤمنهم وكافرهم، والرابع الفقر إلى الله المشار إليه بقوله: "اللهم أغنني بالافتقار إليك".

والفقراء الموصوفون في الآية الأولى يقابلهم أصحاب الجِدَة - أي الغنى - ومن ليس محصراً في سبيل الله، ومن لا يكتم فقراً وضعفاً، فمقابلهم أكثر من مقابل الصنف الثاني، والصنف الثاني لا مقابل لهم بل الله وحده الغني، وكل ما سواه فقير إليه»[٧].

وأما الصنف الرابع فهو الفقر إلى الله، وحقيقته ألاّ تكون لنفسك ولا يكون لها منك شيء بحيث تكون كلّك لله، وهذا الفقر الذي يشيرون إليه لا ينافيه الجِدَة والأملاك، فقد كان

---

(١) ابن منظور - لسان العرب مادة (فقر).
(٢) سورة فاطر / الآية ١٥.
(٣) سورة البقرة / الآية ٢٧٣.
(٤) سورة التوبة / الآية ٦٠.
(٥) سورة فاطر / الآية ١٥.
(٦) سورة القصص / الآية ٢٤.
(٧) الفيروز آبادي - بصائر ذوي التمييز - ج ٤ - ص ٢٠٤، ٢٠٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رسل الله وأنبياؤه -صلوات الله وسلامه عليهم- في ذروة الفقر مع جدّتهم وملكهم، كإبراهيم الخليل عليه السلام كان أبا الضّيفان وكانت له الأموال والمواشي، وكذلك كان سليمان وداود، وكذلك كان نبينا صلّى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾[١] وكانوا أغنياء في فقرهم، فقراء في غناهم[٢].

وللفقر أسماء وصفات ورد بعضها في القرآن الكريم والبعض الآخر في كتب اللغة ولابدّ من الإشارة إلى بعضها فمن ذلك: عدم، حاجة، جلّة، مسكنة، عسرة، ضيقة، عيلة، مترية، خصاصة، إملاق، إعواز، ضر، بؤس، حرمان، مسمغة، مخمصة، إقتار، افتقار، اقواء، سغب[٣].

وأما الغنى فهو عدم الحاجة بالكلية، وليس ذلك إلاّ لله تعالى، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾[٤]، ويكون الغنى بعامة بمعنى قلة، وفي هذا المعنى قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾[٥].

قال الخازن (- ٧٢٥ هـ): «يعني فقيراً فأغناك بمال خديجة بالغنائم، وقيل أرضاك بما أعطاك من الرزق، وهذه حقيقة الغنى، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: "ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس" والعَرَضُ بفتح العين والراء المال»[٦].

فالفقر وضده الغنى من الثنائيات التي اهتم بها القرآن في بعض آياته، إذ هي من القضايا التي تهمّ الإنسان منذ وجوده على هذه الأرض، وذلك لارتباط حياة الإنسان بمجموعة من الحاجات الضرورية التي يحتاجها في عيشه، وهذه الحاجات لا غنى للإنسان عنها، وقد فطر الله الإنسان على البحث على ما ينفعه ودفع ما يضره، وسخره وأمده بالوسائل والطاقات

---

(١) سورة الضحى / الآية ٨.
(٢) الفيروز آبادي - بصائر ذوي التمييز - ص ٢٠٦.
(٣) جمال علي حسن - الفقر في الشعر الجاهلي - رسالة ماجستير الجامعة الأردنية سنة ١٩٩٣م - ص ١.
(٤) سورة لقمان / الآية ٢٦.
(٥) سورة الضحى / الآية ٨.
(٦) تفسير الخازن المسمى لباب التأويل - ط المكتبة التجارية الكبرى: مصر - ج ٧ - ص ٢١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الضرورية كي يحقق وجوده، ويلبي رغباته الجسدية والروحية، فالإنسان في حركته إنّما يسعى إلى عمارة الأرض وفق المنهج الذي يختاره، وهو بذلك في سعي دائم إلى جمع ما يحتاجه من رزق، وهو في حركة دؤوبة، وعمل مستمر للابتعاد عن دائرة الفقر التي قد تقيده وتمنع حركته، وهو يرنو دائماً إلى الغنى الذي قد يحقق حاجاته ويلبي طموحاته، وهذه الحركة الدائبة للإنسان هي جبلّة فطر الله الناس عليها لتحقيق عمارة الأرض، قال تعالى: ﴿ **هُوَ الذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وإِلَيْهِ النُشُور** ﴾[١].

فالآية واضحة وصريحة في أنّ الطبيعة مائدة الله المبسوطة أمام الإنسان مهما كان دينه واتجاهه ومبدؤه لكي يرتزق منها ويتناول من طيّباتها[٢].

والغنى في تصور البشر ليس مشكلة تحتاج إلى دراسة وعلاج، ولكنّها في المنهج القرآني تعد من المشكلات التي تحتاج إلى نظر وعلاج مثلها مثل الفقر، أما المشكلة الحقيقية التي لا تختلف حولها المناهج البشرية والسماوية فهي الفقر، «فقد عرفت الإنسانية الفقر والفقراء منذ أزمنة ضاربة في أغوار التاريخ، وحاولت الأديان والفلسفات منذ القدم أن تحل مشكلة الفقر، وتخفّف من عذاب الفقراء.. حيناً عن طريق الوصايا والمواعظ والترغيب والترهيب، وتارة عن طريق التحليق النظري في عالم مثالي لا تفاضل فيه ولا طبقات ولا فقر ولا حرمان، وهو عالم يرسم على صفحات الكتب لا في واقع الناس، وأبرز مثَل لذلك جمهورية أفلاطون، قبل بضعة قرون من ميلاد المسيح، وطوراً عن طريق حركات متطرفة تريد معالجة الانحراف الواقع بانحراف أشدّ منه»[٣].

ومشكلة الفقر تبقى من القضايا الاقتصادية المسيطرة على عقول الناس وقلوبهم، وقد اتخذها بعضهم وسيلة من الوسائل التي تؤثر في الناس لأهداف ومقاصد بعيدة عن المنهج الإلهي الصحيح، وذلك راجع لأهمية الفقر في حياة الناس ولخطورته على مذاهبهم وتصوراتهم الفكرية على غرار مذاهبهم ومواقفهم العملية.

---

(١) سورة الملك / الآية ١٥.

(٢) محمد الغروي - الفقراء في ظل الرأسمالية الماركسية والإسلام - ط دار التعارف: بيروت - ص ٨٠.

(٣) يوسف القرضاوي - مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام - ط دار العربية: بيروت - ص ٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقبل الحديث عن منهج القرآن الكريم في تناول مشكلة الفقر والغنى لابدّ أن نقف عند الفلسفة الاقتصادية الحديثة وبعض المذاهب الفكرية القديمة لنرى مواقفها من الفقر بالذات باعتباره هو مشكلة المشكلات ونقف عند نظرتها إلى الحل الأمثل لمعالجة هذه المشكلة الخطيرة.

أ - موقف بعض المتصوّفين والرهبان من المقدّسين للفقر :

إنّ نظرة بعض المتصوّفين والمتزهدين من العُبّاد إلى الحياة بأنها كلّها فساد، والدنيا كلّها شرّ وبلاء، والخير كلّ الخير في التعجيل بفناء هذا العالم جعلها تقف من الفقر موقفاً غريباً إذ لا ترى هذه الطائفة فيه شراً يجب الخلاص منه، ولا مشكلة يطلب لها العلاج، بل هو نعمة من الله يسوقها إلى عباده، وإلى من يحب بالذات لكي يبقى متعلقاً بالله وحده، زاهداً في الدنيا ومتاعها بخلاف الغنى الذي يطغي ويلهي عن العبادة وعن التعلق بالله سبحانه، «وقد وجد في الأديان الوثنية والأديان السماوية من يدعو إلى هذه الدعوة، ويمجد الفقر ويقدّسه، لأنّه وسيلة لتعذيب الجسد، وتعذيب الجسد وسيلة لترقية الروح، وشاع هذا عند بعض متصوفة المسلمين بتأثير الثقافات الأجنبية التي شابت الثقافة الإسلامية الأصيلة، وكدرت صفاءها، كالصوفية الهندية، والمانوية الفارسية، والرهبانية المسيحية ونحوها من الملل الدخيلة على حياة المسلمين»[١].

وهذه النظرة تخالف الفطرة السليمة، وتخالف المنطق البشري الصحيح وتخالف كل تعاليم الأديان السماوية التي لم يشبها تحريف ولا تبديل.

ب - موقف بعض الجبريين الذين يخالفون الطائفة الأولى في نظرتها إلى الفقر ولكنهم يرون أن الفقر قضاء وقدر من السماء لا يجدي معه العلاج، ففقر الفقير، وغنى الغني بمشيئة الله تعالى وقدره، ولو شاء الله لجعل الناس كلّهم أغنياء، و «العلاج الذي يقدّمه هؤلاء لمشكلة الفقر ينحصر في وصيتهم للفقراء أن يرضوا بالقضاء، ويصبروا على البلاء، ويقنعوا بالعطاء، فالقناعة كنز لا يفنى، وثروة لا تنفد، والقناعة عندهم هي الرضا بالواقع على أي

---

(١) يوسف القرضاوي - مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام - ط دار العربية: بيروت - ص ١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حال»[١].

والملاحَظ على هذه الطائفة أنّها لا تهتم بالأغنياء من حيث توجيه النصح لهم بالإنفاق، وإنّما جل اهتمامها بالفقراء وما هم فيه من بلاء وشرّ.

جـ - موقف بعض الفلسفات الاقتصادية الحديثة مثل الرأسمالية والاشتراكية الشيوعية، فالرأسمالية ترى أن الفقر شرّ من شرور الحياة، وخطر من الأخطار التي تهدد حياة الإنسان، لكن المسؤولية على هذا الفقر لا يتحملها المجتمع والنظام الحاكم بل هي مسؤولية الفرد نفسه «وهذه النظرة هي نظرة الرأسمالية الخالصة التي سادت أوروبا في مطالع العصر الحديث.. ولاشك أنّ الفقراء في مجتمع هذا شأنه، وتلك فلسفته أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، ولا حق لهم يطالبون به، ولا سند لهم يعتمدون عليه، ولا عجب أن تميّزت هذه الرأسمالية في أول ظهورها وعنفوانها بالقسوة البالغة، والأنانية المفرطة، لا ترحم صغيراً، ولا تحنو على أنثى، ولا تشفق على ضعيف، ولا تنظر بعين العطف إلى فقير أو مسكين»[٢].

والرأسمالية بهذا المنظور لم تستطع أن تحلّ مشكلة الفقر بل إنّما عمّقت الفارق بين غنى الأغنياء وفقر الفقراء لأنّها حمّلت الفقير وحده مسؤولية فقره، وأما نظرة الاشتراكية الشيوعية فهي على النقيض تماماً من نظرة الرأسمالية إذ ترى أن القضاء على الفقر لا يمكن إلاّ بالقضاء على طبقة الأغنياء، ومصادرة أموالهم، وحرمانهم من ثرواتهم من أي وجه جاءت، وفي سبيل ذلك يجب أن تقضي طبقة الفقراء على طبقة الأغنياء، وتبقى الكلمة الأخيرة للطبقة الكادحة أو ما يسمى بالطبقة العاملة "البروليتاريا"، «ولم يكتف دعاة هذا المذهب بتحطيم طبقة الأغنياء، ومصادرة ما ملكوا، فذهبوا إلى محاربة مبدأ "الملكية" الخاصة نفسه، وتحريم التملك على الناس أيّاً كان مصدره، وبخاصة الأرض والمصانع والآلات ونحوها مما يسمى "ثروات الإنتاج"»[٣].

---

(١) يوسف القرضاوي - مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام - ط دار العربية: بيروت - ص ١٠.
(٢) نفسه - ص ١٢.
(٣) نفسه - ص ١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونظرة الاشتراكية إلى الفقر تخالف كذلك الفطرة البشرية السوية، ولم تحل مشكلة الفقر أبداً، بل إنّها عمّقتها في المجتمع وأوجدت طبقة اجتماعية واحدة كادحة تسعى دون جدوى للقضاء على الفقر.

ويختلف موقف القرآن والإسلام بعامة من الفقر اختلافاً كبيراً عن جميع هذه المواقف البشرية، «فالفقر في الإسلام يعد مشكلة يجب حلّها بل آفة خطرة تستوجب المكافحة والعلاج، ويبيّن أنّ علاجه مستطاع وليس محاربة للقدر ولا للإرادة الإلهية، وهو يرفض نظرة الذين يقدّسون الفقر، ويرحّبون بمقدمه، ويعدّون الغنى ذنباً عجلت عقوبته. ويرفض نظرة الذين يعدّون الفقر قدراً محتوماً لا مفر منه، ولا علاج له إلاّ الرضا والقناعة، ويرفض نظرة الذين يقتصرون في علاج الفقر على جانب الإحسان والتصدق الاختياري وحده، وهو كذلك ينكر نظرة الرأسمالية المطلقة إلى الفقراء وحقوقهم على الأغنياء وعلى الدولة، ويتجاوز بعلاجه الترقيعات التي أدخلتها الرأسمالية المعدلة وما شابهها من أنظمة. كما يرفض بشدة نظرة الذين يحاربون الغنى وإن كان مشروعاً، والملكية وإن كانت حلالاً، ويرون علاج الفقر في تحطيم طبقة الأغنياء، وإيقاد تنور الصراع بينهم وبين الفقراء، وسائر الطبقات الأخرى»[١].

إن القرآن الكريم جاء بمنهج الوسطية والعدل في كلّ شيء، وهو في هذه القضية بالذات يرى أن الغنى نعمة يمتن بها الله على عباده، ويطالب بشكرها، وأداء حقها، قال تعالى: ﴿ووجدك عَائِلاً فَأَغْنَى﴾[٢] وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُم عَيْلَةً فسوفَ يُغنيكم اللّهُ مِنْ فضلِهِ إِنْ شَاء إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[٣].

ففي الآية الأولى إمتنان من الله تعالى على رسوله بالغنى بعد الفقر والغنى كي يستغني عن الناس في مشاق الدعوة وتكاليف الجهاد، وفي الآية الثانية وعد من الله للمؤمنين بالغنى بعد الفقر إن هم أطاعوه وامتثلوا لأوامره، وفي هاتين الآيتين وغيرها من الآيات ما يفيد بأن القرآن يرى في الغنى نعمة من الله سبحانه، يجب على المرء أن يسعى إليه

---

(١) يوسف القرضاوي - مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام - ص ٤٠، ٤١.
(٢) سورة الضحى / الآية ٨.
(٣) سورة التوبة / الآية ٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويطلبه، وفي النصوص الإسلامية ما يفيد ذلك، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(١).

فهذه الآية تحثّ على طلب الرزق، وابتغاء الغنى بعد أداء الواجبات الدينية، وجاءت صيغة هذه الدعوة بالأمر الذي يفيد الوجوب ويجعل من هذا الأمر فرضاً من الفرائض.

وكما أن القرآن الكريم قد جعل من الغنى نعمة من النعم الإلهية فإنّه في الجانب المقابل قد جعل الفقر نقمة على الإنسان وحياته، ومشكلة من المشكلات الخطيرة التي يجب التصدي لها وعلاجها قبل أن تفتك بالفرد ثم المجتمع، فخطورته تأتي من عدّة نواحي أولها: أنّ الفقر خطر على التصور والعقيدة، فالفقير قد يتسرب إليه الشك في عدالة السماء لما يرى في نفسه من بؤس وشقاء، وما يراه من حوله من غنى وترف، وهذا الانحراف في العقيدة قد يدعوه إلى الكفر بالله، والسخط على قضاء الله. وثانيها: أن الفقر خطر على السلوك والأخلاق لأن الفقير المحروم كثيراً ما يدفعه بؤسه إلى سلوك ما لا ترضاه الفضيلة والخُلُق الكريم. وثالثها: أن الفقر خطر على الفكر الإنساني لأن الفقير الذي لا يجد ضرورات الحياة وحاجاتها لا يستطيع أن يفكر تفكيراً سليماً وبخاصة إذا فقد التصور الصحيح والعقيدة السليمة. ورابعها: أنّ الفقر خطر على الأسرة والمجتمع، فنجد أنّ الفقر قد يكون مانعاً من أكبر الموانع التي تقف أمام أداء الواجبات الأسرية مثل الزواج وطلب العفاف بل قد يكون سبباً في حصول الفساد الأسري مثل الطلاق وغيره، وقديماً في الجاهلية قتل الآباء أولادهم خشية الفقر. والفقر كذلك خطر على المجتمع وتماسكه وأمنه، وهو خطر على سيادة الأمة وحريتها واستقلالها، فالبائس المحتاج لا يجد في صدره حماسة للدفاع عن وطنه، والذود عن حرمات أمته، فإن وطنه لم يطعمه من جوع ولم يأمنه من خوف، وأمته لم تمد إليه يد العون لتنشله من الشقاء(٢).

إنّ نظرة أولئك الذين يظنون أنّ القرآن يحبّذ الفقر ويندب إليه، ويكافيء على البؤس

---

(١) سورة الجمعة / الآية ١٠.

(٢) ينظر تفصيل ذلك في مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، يوسف القرضاوي، ص ١٨ - ٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والحرمان، ويكره الثروة والغنى وجمع الأموال هي نظرة خاطئة مردودة لا تعبّر عن الموقف القرآني الصحيح الذي - كما ذكر في السابق - دعا إلى مقت الفقر، ومحاربة الحالات التي تسوق الإنسان إلى الذلّ والحاجة والمهانة[١].

ويبقى أن نذكر الآن أنّ الحكمة من ثنائية الفقر والغنى التي جعلها الله في الحياة بين الناس، وفضّل على أساسها بعضهم على بعض وجعل بعضهم فوق بعض درجات هي للإبتلاء والاختبار ولمعرفة الخبيث من الطيّب في الجزاء الأخروي، قال تعالى: ﴿ **واللّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُم عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِم عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُم فَهُمْ فِيهِ سَوَاء أَفَبِنِعْمَةِ اللّهِ يَجْحَدُونَ** ﴾[٢].

وقال الفيروزآبادي (- ٨١٧ هـ): «اعلم أنّ الفقر والغنى ابتلاء لعبده كما قال تعالى: ﴿ **فأمّا الإنسان إذا ما ابتلاه ربّه فأكرمه ونعّمه فيقول ربّي أكرمَنِ وأمّا إذا ما ابتلاه فقَدَرَ عليه رزقَهُ فيقولُ ربّي أهَانَن كلا** ﴾[٣] أي ليس كلّ من أعطيته ووسّعت عليه فقد أكرمته، ولا كلّ من ضيقت عليه وقترت عليه الرزق فقد أهنته، والإكرام أن يكرم العبد بطاعته ومحبته ومعرفته، والإهانة أن يسلبه ذلك، ولا يقع التفاضل بالغنى والفقر بل بالتقوى، وقال بعضهم: هذه المسألة محال أيضاً من وجه آخر، وهو أن كلاً من الغني والفقير لابدّ له من صبر وشكر، فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر، بل قد يكون قسط الغني من الصبر أوفى، لأنّه يصبر عن قدرة، فصبره أتمّ من صبر من يصبر عن عجز، ويكون شكر الفقير أتمّ، لأن الشكر هو استفراغ الوسع في طاعة الله، والفقير أعظم فراغاً بالشكر من الغنيّ، وكلاهما لا يقوم قائمة إيمانه إلاّ على ساق الصبر والشكر»[٤].

فحكمة الابتلاء هي التعليل القرآني الواضح لقضية التفريق بين النّاس في الغنى والفقر، وهي الحكمة التي علّل بها القرآن الوجود الإنساني كلّه. قال تعالى: ﴿ **الذِي خَلَقَ**

---

(١) ينظر محمد الغروي - الفقراء في ظل الرأسمالية والماركسية والإسلام - ص ٧٨.
(٢) سورة النحل / الآية ٧١.
(٣) سورة الفجر / الآية ١٥ - ١٧.
(٤) بصائر ذوي التمييز - ج ٤ - ص ٢٠٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموتَ والحَيَاةَ لِيَبْلُوكُم أَيُّكُم أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ العَزِيزُ الغَفُورُ ﴾[١].

ونمضي الآن مع سورة التوبة وتناولها لهذه القضية الهامة في جانب من آياتها ونبدأ بقوله تعالى: ﴿ يا أَيُّها الذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا المُشْرِكُونَ نَجَس فَلاَ يَقْرَبُوا المَسْجِدَ الحَرامَ بَعدَ عامِهِم هذَا وإِنْ خِفْتُم عَيْلَةً فسوفَ يُغْنِيكُم اللّهُ مِنْ فَضْلِه إِنْ شَاء إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ حكيمٌ ﴾[٢].

ففي هذه الآية حديث عن الفقر والغنى في صورة متقابلة متضادة، فالعَيْلَةُ هي الفقر الذي خشي منه المؤمنون بعد منع المشركين من الحج والقرب من المسجد الحرام، والغنى هو الرزق الذي وعد الله به المؤمنين بعد تنفيذ أمره، قال ابن عباس: «كان المشركون يجيئون إلى البيت ويجيئون معهم بالطعام يتجرون فيه، فلمّا نهوا أن يأتوا البيت قال المسلمون فمن أين لنا الطعام، فأنزل الله ﴿ إِنْ خِفْتُم عَيْلَة ﴾ ..الخ قال: فأنزل الله عليهم المطر وكثر خيرهم حين ذهب المشركون عنهم»[٣].

فوَعْدُ الله بالغنى للمؤمنين قد تحقق بعد منع المشركين من دخول بيت الله الحرام مباشرة، وكان هذا الغنى من فضل الله على العرب خاصة وعلى المسلمين عامة، فقد «أغنى سائر المسلمين جميع أنواع الغنى، فتح لهم البلاد، وسخّر لهم العباد، فكثرت الغنائم والخراج، ومهّد لهم سبل المِلك والمُلك وكان نصيب مكة نفسها من ذلك عظيماً بكثرة الحاج وأمن طرق التجارة»[٤].

والقيمة الاقتصادية التي يمكن أن تستفاد من الآية أنّ وعد الله بالغنى بعد تنفيذ الأمر لا يعني ترك الأسباب الداعية إلى العمل والتحرك نحو الغنى، فمن سننه تعالى الاجتماعية العمل والسعي والأخذ بالأسباب الموجبة لجلب الرزق. وفي هذا مقتضى التوكل عليه تعالى، ومنه سبحانه التوفيق والإعانة، فلهذا يجب الأخذ بالأسباب الكسبية، والقيام بالعمل المؤدي

---

(١) سورة الملك / الآية ٢.

(٢) سورة التوبة / الآية ٢٨.

(٣) محمد رشيد رضا - تفسير المنار - ج ١٠ - ص ٢٧٨.

(٤) نفسه - ج ١٠ - ص ٢٧٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلى إبعاد الفقر.

وقد فهم المؤمنون الأوائل هذا الوعد فلم يمنعهم ذلك من العمل والسعي والجهاد حتى حقق الله لهم وعده بالغنى، وأبعد عنهم الفقر، وفتح لهم البلاد، وقد أغناهم الله بأن هدى للإسلام أهل تبالة وجُرَش من بلاد اليمن، فأسلموا عقب ذلك، وكانت بلادهم بلاد خصب وزرع فحملوا إلى مكة الطعام والميرة، وأسلم أيضاً أهل جُدّة وبلدهم مرفأ ترد إليه الأقوات من مصر وغيرها، فحملوا الطعام إلى مكة، وأسلم أهل صنعاء من اليمن، وبلدهم تأتيه السفن من أقاليم كثيرة من الهند وغيرها »[١].

والآية الكريمة حين تقابل بين الغنى والفقر بهذا الأسلوب الذي يعد من أبسط صيغ المقابلة إنّما تهدف إلى طمأنة نفوس المؤمنين من هذا الجانب الخطير وهو الجانب الاقتصادي الذي يتعلق به مصير الفرد والمجتمع، وتهدف كذلك إلى الدعوة إلى محاربة الفقر والسعي إلى اجتثاثه وقلعه، واعتباره من الآفات الخطيرة التي تهدّد المجتمع المسلم، كما أنّها تهدف إلى أمر عقدي يتعلق بقدرة الله سبحانه وأنّه يملك وحده مفاتيح الغنى، وأنّه القادر على إعانة المؤمنين في سعيهم الحثيث إلى محاربة الفقر، فهو الذي يملك الأسباب وهو العليم الحكيم، أي عليم بما يكون من مستقبل أمر البشر في الغنى والفقر، حكيم فيما يشرعه لهم من أمر ونهي، وهو وحده المستحق للعبادة والخضوع.

وقال تعالى في سورة التوبة: ﴿ **وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُم مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ** ﴾[٢].

هذه الآية تتحدث عن نماذج من البشر يُعرفون بالخداع والنفاق، ويعرفون بتناقض السلوك لديهم حسب الوضع والظرف، فهم في بداية أمرهم من أهل الفقر والبؤس فيقيمون صلة مع الله ويتقربون إليه بالطاعة والدعاء، وبعد أن يستجيب الله لهم ينسون تكاليف العقيدة،

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور - تفسير التحرير والتنوير - ج ١٠ - ص ١٦١.

(٢) سورة التوبة / الآية ٧٥، ٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومقتضيات الدين.

قال سيد قطب: «من المنافقين من عاهد الله لئن أنعم الله عليه ورزقه، ليبذلنّ الصدقة، وليصلحن العمل، ولكن هذا العهد إنّما كان في وقت فقره وعسرته، في وقت الرجاء والطمع، فلمّا أن استجاب الله له ورزقه من فضله نسي عهده، وتنكر لوعده، وأدركه الشح والبخل فقبض يده، وتولى معرضاً عن الوفاء بما عاهد، فكان هذا النكث بالعهد مع الكذب على الله فيه سبباً في التمكين للنفاق في قلبه، والموت مع هذا النفاق»[١].

وهذا النموذج من البشر الذي تعرض له الآية لا يستقر على رأي وموقف بل هو مذبذب في عقيدته وتصوره، مذبذب في سلوكه وأخلاقه، ولذلك عقدت هذه الآية مقابلة بين صورته في حالة الفقر والإملاق، وصورته في حالة الغنى واليسر، وهما صورتان متقابلتان متناقضتان تكشفان عن طبيعة النفاق والمنافقين.

فالآية إذن تقابل بين الفقر والغنى في صورة من صورهما لدى البشر، وهي تكشف لنا عن طبيعة بعض النفوس البشرية التي يجعل منها الفقر مثالاً صادقاً للصلة بالله، والتقرب إليه بالدعاء والصلاة، وأعمال البرّ لعلّه يكشف السوء، ويغيّر الحال، ويمنّ بالنعمة والغنى، حتى إذا أنجز الله وعده، وقَبِلَ دعاءه، ومنّ عليه بالرزق والمال والولد، تغيّرت نفسه، وانقلبت حاله، وبخل بما لديه من مال، بل إنّه قد يتحلل من الصلة التي تربطه بالله، والعلاقة التي تربطه بالمسلمين.

---

(١) في ظلال القرآن - ج ٣ - ص ١٦٧٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جـ - المقابلة بين العدل والظلم :

العدل خلاف الجَوْر، يقال: عدل عليه في القضية فهو عادل وبسط الوالي عدله ومعدلته ومعدلته، وفلان من أهل المعدلة أي من أهل العدل، ورجل عدل أي رضا ومقنع في الشهادة(١).

والعدل ضربان: مطلق يقتضي العقل حسنه، ولا يكون في شيء من الأزمنة منسوخاً، ولا يوصف بالاعتداء بوجه، نحو الإحسان إلى من أحسن إليك، وكفّ الأذية عمّن كفّ أذاه عنك، وعدل يعرف كونه عدلاً بالشرع ويمكن أن يكون منسوخاً في بعض الأزمنة كالقصاص وأروش الجنايات وأصل مال المرتد.. وهذا النحو هو المعني بقوله ﴿ **إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾(٢) فإن العدل هو المساواة في المكافأة إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ، والإحسان أن يقابل الخير بأكثر منه، والشرّ بأقل منه(٣).

والظلم في اللغة وضع الشيء في غير موضعه المختص به إمّا بنقصان أو بزيادة، وإمّا بعدول عن وقته أو مكانه، والظلم في الاصطلاح يقال في مجاوزة الحق الذي يجري مجرى نقطة الدائرة، ويقال فيما يَكْثُر وفيما يقل من التجاوز، ولهذا يستعمل في الذنب الكبير، وفي الذنب الصغير(٤).

والظلم ثلاثة أنواع: الأول: ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه: الكفر والشرك والنفاق، قال تعالى: ﴿ **إنّ الشركَ لظلمٌ عظِيمٌ** ﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿ **فَمَنْ أظلمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً** ﴾(٦).

الثاني: ظلم بينه وبين الناس، وهو المقصود في قوله تعالى: ﴿ **وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ** ﴾

---

(١) الفيروزآبادي - بصائر ذوي التمييز - ج ٤ - ص ٢٨.
(٢) سورة النحل / الآية ٩٠.
(٣) الراغب الأصفهاني - مفردات ألفاظ القرآن - ص ٥٥٢.
(٤) نفسه - ص ٥٣٨.
(٥) سورة لقمان / الآية ١٣.
(٦) سورة الأنعام / الآية ٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلى قوله تعالى: ﴿ **إنّه لا يحبّ الظالمين** ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿ **إنّما السبيلُ عَلى الذينَ يَظْلِمُونَ النّاسَ** ﴾[٢].

الثالث : ظلم بينه وبين نفسه ، وهو المقصود في قوله تعالى: ﴿**فمنهم ظالمٌ لنفسِهِ**﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿ **ومن يفعلْ ذَلِك فقد ظلم نفسه** ﴾[٤].

وكلّ هذه الثلاثة في الحقيقة ظلم للنفس، فإن الإنسان في أول ما يهمّ بالظلم فقد ظلم نفسه، فإذاً الظالم أبداً مبتدىء في الظلم، ولهذا قال تعالى: ﴿ **وما ظلمهم اللّهُ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾[٥] وقال تعالى: ﴿ **ولو أنّ للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً** ﴾[٦] فإنّه يتناول الأنواع الثلاثة من الظلم، فما أحد كان منه ظلمٌ ما في الدنيا إلاّ ولو حصل له ما في الأرض ومثله معه لكان يفتدي به[٧].

وقضية العدل والظلم هي من الثنائيات التي اهتم بها القرآن الكريم وتناولها في كثير من المواضع، وقد أقام التشريع الإسلامي كلّه على أساس مبدأ العدل بين الناس، وقد أمر الله سبحانه بالعدل في كثير من الآيات[٨] قال تعالى: ﴿**إنّ اللّهَ يأمُرُ بالعَدْلِ والإحْسَانِ وإيتـــاءِ ذِي القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ والبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلّكُم تَذَكّرُون**﴾[٩].

فالعدل الذي أمر به الله في هذه الآية هو «القيام على طريق الحق في كل أمر، فمن أقام وجوده على العدل استقام على طريق مستقيم فلم ينحرف عنه أبداً، ولم تتفرق به السبل إلى

---

(١) سورة الشورى / الآية ٤٠.
(٢) سورة الشورى / الآية ٤٢.
(٣) سورة فاطر / الآية ٣٢.
(٤) سورة البقرة / الآية ٢٣١.
(٥) سورة النحل / الآية ٣٣.
(٦) سورة الزمر / الآية ٤٧.
(٧) الراغب الأصفهاني - مفردات ألفاظ القرآن - ص ٥٣٧، ٥٣٨.
(٨) عبدالحق الشكيري - التنمية الاقتصادية في المنهج الإسلامي - ط ١ رئاسة المحاكم الشرعية: قطر، ١٩٨٨ - ص ٦٩، ٧٠.
(٩) سورة النحل / الآية ٩٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غايات الخير.. ومن اتبع العدل بالإحسان نما الخير في يده، وطابت مغارسه التي يغرسها في منابت العدل، وقد جاء الأمر بالعدل والإحسان مطلقاً ليحتوي العدل كلّه، ويشمل الإحسان جميعه فهو عدل عام شامل، حيث يعدل الإنسان مع نفسه، فلا يجوز عليها بإلقائها في التهلكة، وسوقها إلى مواقع الإثم والضلال.. ويعدل مع النّاس فلا يعتدي على حقوقهم، ولا يمد يده إلى ما ليس له، ويعدل مع خالقه، فلا يجحد فضله ولا يكفر بنعمته، ولا ينكر وجوده وقيومته عليه، وعلى كل موجود »(١).

وقد نهى الله سبحانه في مقابل أمره بالعدل عن الفحشاء والمنكر والبغي، والبغي هو الجور والظلم وهو مجانب للعدل والإحسان.

وقال تعالى أيضاً: ﴿ **إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تحكموا بالعدل إنَّ الله نِعمّا يعظكم به إنّ الله كان سميعاً بصيراً** ﴾(٢).

قال الشوكاني (- ١٢٥٥ هـ): «هذه الآية من أمهات الآيات المشتملة على كثير من أحكام الشرع، لأنّ الظاهر أنّ الخطاب يشمل جميع النّاس في جميع الأمانات، وقد روي عن علي وزيد بن أسلم وشهر بن حوشب أنّها خطاب لولاة المسلمين، والأول أظهر، وورودها على سبب كما سيأتي لا ينافي ما فيها من العموم، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما تقرر في الأصول، وتدخل الولاة في هذا الخطاب دخولاً أولياً، فيجب عليهم تأدية ما لديهم من الأمانات وردّ الظلامات، وتحري العدل في أحكامهم... والعدل هو فصل لحكومة على ما في كتاب الله سبحانه وسنّة رسوله صلّى الله عليه وسلم، لا الحكم بالرأي المجرد، فإن ذلك ليس من الحق في شيء إلاّ إذا لم يوجد دليل لتلك الحكومة في كتاب الله ولا سنّة رسوله، فلابأس باجتهاد الرأي من الحاكم الذي يعلم بحكم الله سبحانه، وبما هو أقرب إلى الحقّ عند عدم وجود النص»(٣).

---

(١) عبدالكريم الخطيب - التفسير القرآني للقرآن - ج ٣ - ص ٣٥٠.

(٢) سورة النساء / الآية ٥٨.

(٣) تفسير فتح القدير - ج ١ - ص ٧١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فغاية الشريعة الإسلامية تطبيق المنهج القرآني الذي يدعو إلى العدل وتطبيقه بين الناس، قال ابن قيم الجوزية (- ٧٥١ هـ): «إن الله سبحانه وتعالى أرسل رسله، وأنزل كتبه، ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به الأرض والسماوات، فإذا ظهرت أمارات العدل، وأسفرت -بأي طريق كان- فثمّ شرع الله ودينه، والله سبحانه أعلم وأحكم»(١).

فالعدل مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتصور الإسلامي العام، وبقضية الوحدانية التي عرضنا لها في فصل سابق، فالإسلام هو العدل بعينه، وهو دين الحق الذي أنزله خالق الكون وربّه لهداية الإنسان، فإقامة العدل بين الناس، وتحديد ما هو العدل، وما هو الظلم والجور إنّما هو من شأن خالق الإنسان وربه، ولا حق لمن سواه في أن يضع للناس مقياساً للعدل والظلم، إذ الإنسان ليس مالكاً لنفسه ولا حاكمها حتى يحق له اختيار معيار للعدل من تلقاء نفسه، لأن مكانته في العالم ليست إلاّ أنّه عبد مملوك لله تعالى، والإنسان مهما كانت له شخصية بارزة، ومهما بذل الكثير من الجهود في اختيار طريق للعدل لا يستطيع الوصول إليه أبداً، وذلك لأن محدودية علم الإنسان، وقصور فكره، واستيلاء أهوائه وعصبياته على عقليته لا مناص منها في حال من الأحوال، فليس من الممكن أن يضع الإنسان لنفسه نظاماً يتجرد من نقائصه البشرية ويحقق العدل الحقيقي بمعنى الكلمة، وربّما شوهدت في بداية الأمر مظاهر العدالة في هذا النظام ليس من العدل في شيء، فكلّ نظام وضعه الإنسان ثبت نقصه وقصوره في آخر الأمر»(٢).

فالعدل الاجتماعي الذي يدعو إليه القرآن الكريم هو حق من حقوق الوحدانية قال سيد قطب: «الإسلام دين الوحدة بين العبادة والمعاملة، والعقيدة والشريعة، والروحيات والماديات، والقِيَم الاقتصادية والقِيَم المعنوية، والدنيا والآخرة، والأرض والسماء، وعن تلك الوحدة الكبرى تصدر تشريعاته وفرائضه، وتوجيهاته وحدوده، وقواعده في سياسة الحكم وسياسة المال، في توزيع المغانم والمغارم، وفي الحقوق والواجبات، وفي ذلك الأصل الكبير تنطوي سائر

---

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية - ص ١١٢.

(٢) المودودي أبوالأعلى - العدالة الاجتماعية حقيقتها وسبيل تحقيقها - ط مكتبة دار البيان: الكويت - ص ١٠، ١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأجزاء والتفصيلات، وحين ندرك هذا الشمول في طبيعة النظرة الإسلامية للألوهية والكون والحياة والإنسان، ندرك معها الخطوط الأساسية للعدالة الاجتماعية في الإسلام. فهي قبل كلّ شيء عدالة إنسانية شاملة لكل جوانب الحياة الإنسانية ومقوماتها، وليست مجرد عدالة اقتصادية محدودة، وهي إذن تتناول جميع مظاهر الحياة وجوانب النشاط فيها، كما تتناول الشعور والسلوك، والضمائر والوجدانات، والقِيَم التي تتناولها هذه العدالة ليست القِيَم الاقتصادية وحدها، وليست القِيَم المادية على وجه العموم، إنّما هي هذه ممتزجة بها القِيَم المعنوية والروحية جميعاً»[١].

إنّ العدل الاجتماعي الذي يسعى إليه القرآن الكريم من خلال ربطه بالعقيدة هو أن يكون كل فرد من الأفراد، وكل أسرة من الأسر وكل قبيلة من القبائل وكل أمة من الأمم على حظ مناسب من الحرية، وكون كلّ مجتمع من المجتمعات العديدة على خط من سيادة بعضها على بعض سداً لباب الظلم والعدوان، واستخداماً لمختلف الأفراد والمجتمعات فيما تقتضيه المصالح الاجتماعية[٢].

إنّ من خصائص العدل الذي يدعو إليه القرآن الوسطية والاعتدال، فهو لا يهتم بالقِيَم الروحية على حساب القِيَم المادية، ولا يطغى القِيَم المادية على حاجات الروح، ونحن إذا نظرنا إلى المسيحية مثلاً نجد أنّها صبّت جلّ اهتمامها على الروح، ولم تقم للمادة وزناً، أما الفكر الشيوعي فكان على النقيض من ذلك حين نظر إلى الإنسان من خلال حاجاته المادية وحدها، وألغى جميع القيم الروحية، أمّا القرآن الكريم فقد وازن بين المادة والروح، ونظر إلى الإنسان على أنّه وحدة لا تنفصل فيها حاجاته الروحية عن حاجاته المادية[٣].

وإنّ العدالة الإجتماعية التي جاء بها القرآن متأثرة بالتصور الإسلامي، والعقيدة الدينية، وإنّ طبيعة نظرة القرآن إلى الحياة الإنسانية تجعل العدالة الاجتماعية عدالة إنسانية شاملة لكل مقومات الحياة الإنسانية، ولا تقف عند الماديات والاقتصاديات، وأنّ القيم في

---

(١) العدالة الاجتماعية في الإسلام - ط ٦ مطبعة عيسى البابي الحلبي: القاهرة، ١٩٦٤م - ص ٢٨.

(٢) المودودي - العدالة الإجتماعية حقيقتها وسبيل تحقيقها - ص ١٥، ١٦.

(٣) سيد قطب - العدالة الاجتماعية في الإسلام - ص ٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذه الحياة المادية معنوية في الوقت ذاته[١].

وقبل الحديث عن الأسس التي قام عليها العدل الإجتماعي في القرآن سنتحدث عن بعض خصائص العدل الإجتماعي الإسلامي من خلال عقد مقارنة بينه وبين العدل الذي تدعو إليه الشيوعية، وتدعي أنّها تستطيع تحقيقه بين الناس.

(أ) ينظر القرآن الكريم إلى قضية العدل نظرة شمولية، ويرى «أنّ الظلم المنصب على الإنسان لا يقتصر على حجب حاجاته البيولوجية الأساسية فحسب، بل يتجاوزها إلى مظالم أخرى أصعب وأعتى، وأشد تعقيداً، منها: حجب حريته، وكبت تعبيره الذاتي، ووقف مطامحه، وسمو تفرده... وبينما ينظر الإسلام إلى الإنسان كسيّد حر على الأرض مستخلَف فيها لإعمارها وتطويرها بملء إرادته، وإلى الأرض والطبيعة والعالم كأرضية مسخّرة سننها ونواميسها وطاقاتها المذخورة للإنسان كي يحقق هدفه ذاك، نجد أن الشيوعية - كنتيجة لمنطلقها المادي الصرف - تحصر مدى (العدل) في تنفيذ مطالب الإنسان المادية فحسب، وتغفل، بل تقف - حرصاً منها على تنفيذ وحماية سمتها الطبقية ونزعتها الجماعية - بمواجهة سائر المطالب الأخرى روحية ونفسية وفكرية ووجدانية وإجتماعية»[٢].

(ب) وينظر القرآن إلى تحقيق العدل من خلال حماية المؤسسة الاجتماعية وهي الأسرة التي تعد إحدى أساسيات نموّ المجتمع وتكوينه وتطويره بينما نجد «الشيوعية تسعى إلى تدميرها وتفكيكها وإلغائها، فتدمّر على المرأة - بهذا أنثويتها وحقوقها العاطفية والنفسية والاجتماعية المترتبة على تكوينها ذاك، وتستل من الطفل كل أسباب تربيته الصحيحة، ونموّه الطبيعي السليم، وتفقد الرجل أعزّ ما يطمح إليه من الاستقرار إلى شريك في الحياة، وسكن إلى عطفه وحنانه»[٣].

(جـ) وينظر القرآن إلى تأكيد العدل الذي لا يميل ولا يتحيّز ولا ينحرف باتجاه عاطفة أو هوى أو مصلحة أو جماعة، قال تعالى: ﴿ **يا أيّها الذين آمَنُوا كُونُوا قوّامِينَ لِلّهِ**

(١) سيد قطب - العدالة الإجتماعية في الإسلام - ص ٣٤.
(٢) عماد الدين خليل - العدل الإجتماعي - ط مؤسسة الرسالة - ص ١٥.
(٣) نفسه - ص ١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شهداءَ بالقِسْطِ ولاَ يَجْرِمَنَّكُم شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى ألاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أقربُ لِلتَقْوَى واتَّقُوا اللّهَ إنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[١] وقال تعالى: **﴿ إنّ الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾**[٢]، و «بينما يلزم المسلمين برفض مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة"، واعتماد القِيَم الأخلاقية والإنسانية خلال حركتهم صوب أهدافهم **﴿ فَلِذَلِكَ فادْعُ واستَقِمْ كَمَا أُمِرتَ ولا تَتَّبع أهواءَهم، وقُلْ آمنتُ بِما أنزلَ اللّهُ مِنْ كِتَابٍ وأمرتُ لأعدلَ بَيْنَكُم ﴾**[٣]... نجد الماركسية تلتزم عدلاً نسبياً يميل مع الهوى، ويقيس الأمور بمقياس طبقي محدود إذا جاز لنا أن نسمي ذلك عدلاً، وتضيع في غمار هذه النسبية المتغيِّرة والطبقية الضيقة، صيحات المظلومين ومغتصبي الحقوق من كل جنس وفئة ولون، كما نجد الماركسية تلتزم المبدأ الماكيافللي المعروف "الغاية تبرر الوسيلة" وتعتمد أشد الأساليب اللاأخلاقية للوصول إلى أهدافها »[٤].

(ء) والقرآن الكريم بواسطة عدله يدعو إلى حرية التعبير عن طاقات الإنسان وإمكاناته الخلاّقة على مستوى الروح والمادة، بينما تجد الماركسية والشيوعية ترغم الفرد على أن يتشكل وفق القالب الاجتماعي، وأن يحجر على طاقاته وإمكاناته لكي لا تتفجر إلاّ على طريق "الطبقة الحاكمة"[٥].

(هـ) والعدل في القرآن الكريم يظهر من خلال إقامة يوم الجزاء الذي يحاسَب فيه الإنسان على سعيه وحركته في الحياة حيث لا يظلم أحد، وحيث يرى ويوزن كل جهد وكل نشاط نجد أن الشيوعية تنفي يوم الحساب، وتقصر جزاء الإنسان على الأرض، وما أكثر ما يضيع هذا الجزاء[٦].

(و) والعدل في القرآن يظهر من خلال حرية العقيدة وعدم جبر الناس على اعتناق ما لا

(١) سورة المائدة / الآية ٨.
(٢) سورة النساء / الآية ٥٨.
(٣) سورة الشورى / الآية ١٥.
(٤) عماد الدين خليل – العدل الإجتماعي – ص ١٧، ١٨.
(٥) نفسه – ص ١٩.
(٦) نفسه – ص ٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يؤمنون به، والتزام ما لا يريدونه، وأما الجهاد فهو وسيلة من وسائل تلبية حاجات الإنسان إلى الإقناع والدعوة، ولا يرفع السلاح ويُستباح الدم إلاّ حين تقف الجاهلية حاجزاً أمام طريق الدعوة إلى قلب الإنسان وعقله[١]، أما «الماركسية فإنّها تحصر نطاق الثورة على المستوى الطبقي، وتسفك الدماء لمبررات مادية صرفة، وتقطع أعناق الناس لأسباب "جزئية" تقوم على مجرد التفاوت في مقدار ما يملكه الإنسان من مال»[٢]، وهي تقف أمام حرية الإنسان في اختيار عقيدته وتصوره وتجبره على ابعاد كل ما يمت إلى الدين بصلة.

(ي) ويظهر العدل في القرآن من خلال تحرير الإنسان وجدانياً و «جعله يرفع رأسه باعتزاز، ويرفض أي سلطة في الأرض ولا يخضع إلاّ لله ولا يعبد إلاّ الله، بينما نجد الشيوعية تتحول بأتباعها أكثر فأكثر صوب نوع خطير من التعبّد الوثني، والتخوّف الذي يشل حرية الإنسان وقدرته على الحركة والإبداع، ازاء مؤسسات الدولة والقيادات الحزبية، وإزاء (الزعيم) الذي يبلغ من إعجاب الناس العاديين في المجتمعات الإشتراكية به، وتخوفهم من سلطاته الهائلة الظاهرة والخفية، ويده الباطشة التي تصل كلّ من يلكّ كلمة أو يمارس همسة ضده... وهذا يبلغ بالناس العاديين وبالجماهير عامة إلى حالة من التعبد والتقديس لزعمائهم تفوق في خطورتها كل تجارب الوثنيات والكهانات الجائرة»[٣].

وبعد عقد هذه المقارنة الوجيزة بين العدل الاجتماعي في القرآن والعدل الاجتماعي في نظام من وضع البشر هو النظام الشيوعي، بعد هذا لابد من الإشارة بإيجاز إلى الأسس العامة التي أقام عليها القرآن بناء العدالة الاجتماعية في حدود فكرته الكلية، والتي كان من طبيعتها النظر إلى وحدة الروح والجسد في الفرد، وإلى وحدة المعنويات والماديات في الحياة، وإلى وحدة الروح والجسد بين الفرد والجماعة، ووحدة المصلحة بين الجماعات المختلفة في الأمة الواحدة، ووحدة الغاية بين الأمم الإنسانية، ووحدة الصلة بين الأجيال المتعاقبة على إختلاف المصالح القريبة المحدودة، وهذه الأسس التي أقام عليها القرآن العدل الإجتماعي هي[٤]:

---

(١) عماد الدين خليل - العدل الإجتماعي - ص ٢١.
(٢) نفسه - ص ٢١.
(٣) نفسه - ص ٢١ - ٢٣.
(٤) سيد قطب - العدالة الاجتماعية في الإسلام - ص ٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١- التحرر الوجداني المطلق.

٢- المساواة الإنسانية الكاملة.

٣- التكافل الاجتماعي الوثيق.

فالتحرر الوجداني هو شعور الفرد بحاجته إلى العدل، وإحساسه بأنّه يؤدي إلى طاعة الله، وإلى واقع أسمى، وأساس هذا التحرر هو أن يعبد الله وحده، وأن تنتفي كل أنواع الخضوع والعبادة للبشر[١]، قال تعالى: ﴿ **قل إنّما أدعُو ربّي ولاَ أُشْرِكُ بِهِ أحَداً قل إنّي لاَ أملكُ لكُم ضَراً وَلاَ رَشَداً قل إنّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللّه أحدٌ ولَنْ أجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً** ﴾[٢].

والمساواة الإنسانية هي ثمرة التحرر الوجداني في ظل العبودية لله وهي تحقيق الضمانات الواقعية والقانونية ما يؤكد في نفس الإنسان هذا الشعور، فلن يكون في حاجة لمن يهتف له بالمساواة لفظاً وقد استشعرها في أعماقه معنى، ووجدها في حياته واقعاً[٣]، قال تعالى: ﴿ **يا أيّها النّاسُ إنّا خلقناكم من ذكر وأُنْثَى وجَعَلنَاكم شُعُوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عِنْدَ اللّه أتْقَاكم إنّ اللّه عَلِيمٌ خَبِير** ﴾[٤].

والتكافل الاجتماعي هو أن القرآن قرر مبدأ التبعية الفردية في مقابل الحرية الفردية، وقرر إلى جانبها التبعية الجماعية التي تشمل الفرد والجماعة بتكاليفها، فهناك التكافل بين الفرد وذاته، وبين الفرد وأسرته القريبة، وبين الفرد والجماعة، وبين الأمة والأمم، وبين الجيل والأجيال المتعاقبة أيضاً[٥] قال تعالى: ﴿ **وتَعَاوَنُوا عَلَى البرّ والتقوى ولاَ تعَاوَنُوا عَلَى الإثْمِ والعُدْوَانِ** ﴾[٦].

ويبقى موضوع العدل والظلم من الموضوعات التي تتّسم بالاتساع، ولا نستطيع في هذا

---

(١) سيد قطب - العدالة الاجتماعية في الإسلام - ص ٣٦.

(٢) سورة الجن / الآية ٢٠ - ٢٢.

(٣) سيد قطب - العدالة الإجتماعية في الإسلام - ص ٥١.

(٤) سورة الحجرات / الآية ١٣.

(٥) سيد قطب - العدالة الاجتماعية في الإسلام - ص ٦٣.

(٦) سورة المائدة / الآية ٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البحث أن ندرسه من جوانبه كلّها، فقد اقتصرنا على ذكر بعض العناصر الهامة فيه، وغايتنا الأساسية في هذا البحث هي دراسة طريقة المقابلة التي يعتمد عليها القرآن في عرض قضاياه، ونمضي الآن مع سورة التوبة لبيان هذه الغاية.

قال تعالى: ﴿اشْتَرَوا بآياتِ اللهِ ثَمَناً قليلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِه إنَّهم سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُون لاَ يَرْقُبُون في مُؤْمِن إلاً وَلاَ ذِمَّةً وأُولئِكَ هُمُ المُعْتَدُون فَإنْ تَابُوا وأقامُوا الصَلاةَ وآتَوا الزَكَاةَ فإخْوَانُكُم فِي الدِينِ ونُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُون﴾[١].

هذه الآيات تتحدث عن الظلم البشري في مقابل العدل الإلهي، فالظلم البشري تمثّل في موقف المشركين العدائي للإسلام والمسلمين، فهم قد «استبدلوا بآيات الله الدالة على وجوب توحيده بالعبادة، وعلى بعثه للناس وجزائهم على أعمالهم وعلى الوحي والرسالة وما فيها من الهداية، ثمناً قليلاً من متاع الدنيا وهو ما هم فيه من أسباب المعيشة، وقد صدّوا عن سبيله وأعرضوا عن سبيل الله وما يقتضيه من الوفاء بالعهود، وصدّوا غيرهم وصرفوهم عنه، ثم إنهم من أجل كفرهم وصدودهم لم يرعوا في مؤمن يظهرون عليه ويقدرون على الفتك به رباً يحرم الغدر، ولا قرابة تقتضي الود، ولا ذمة توجب الوفاء ثم وصفوا وصفاً يعبّر عما هم عليه من الظلم والعدوان فقال ﴿ وأُولَئِكَ هُمُ المُعْتَدُون ﴾ والعلّة في اعتدائهم وتجاوزهم هو رسوخهم في الشرك، وكراهتهم للإيمان وأهله، فلا علاج لهم إلاّ بالرجوع عن كفرهم والاعتصام مع المؤمنين بعروة التوحيد والإيمان، وما تقتضيه من الأعمال الصالحة وفضائل الأخلاق[٢].

وأما العدل الإلهي فيتَمثّل في مقابلة الشدّة باللين، والذنب بالتوبة، فقال تعالى: ﴿فإن تابُوا وأقَامُوا الصَلاةَ وآتَوُا الزَكَاةَ فإخْوَانُكُم فِي الدِينِ﴾ وهذا فيه تنبيه لهم على أن تدارك الأمر هيّن عليهم إن هم تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة والتزموا بتكاليف الشريعة، وفرّع على التوبة أنّهم يصيرون إخواناً للمؤمنين، «فناسب أن يفرّع على توبتهم عدم

---

(١) سورة التوبة / الآية ٩ - ١١.

(٢) محمد رشيد رضا - تفسير المنار - ج ١٠ - ص ١٨٦، ١٨٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التعرض لهم بسوء، وقد حصل من مجموع الآيتين أن توبتهم توجب أمنهم وأخوتهم»[١].

وهنا من كمال عدل القرآن الكريم ورحمته بالنّاس حيث أنّه منح للمشرك والكافر فرص إعادة النظر فيما هو فيه، وفرص مراجعة النفس عسى أن ترجع عن الكفر وتدخل في دائرة الإيمان، ومقابلة الآيات بين الظلم والعدل واضحة وبارزة، وهي تهدف إلى بيان صفة هذا النموذج البشري، وبيان العدل الإلهي في معاملة النّاس على اختلاف مشاربهم.

وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِم وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ ولو كَرِهَ الكَافِرُونَ هُوَ الذِي أَرْسَلَ رَسُولَه بِالهُدَى وَدِينِ الحَقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِينِ كُلِّه ولَوْ كَرِهَ المُشْرِكُون ﴾[٢].

وردت هذه الآيات في سياق الحديث عن أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى، فبعد مجيء رسالة الإسلام «أراد هؤلاء أن يطفئوا النور الذي أفاضه الله على البشر بهداية دينه الحق الذي أوحاه إلى موسى وعيسى وغيرهما من رسله ثم أتمه وأكمله ببعثة خاتم النبيين محمد صلّى الله عليه وسلم بالطعن في الإسلام، والصدّ عنه بالباطل، كما فعلوا من قبل بمثل الأقوال في عُزير والمسيح التي لم تتجاوز أفواههم إلى معنى صحيح، وبما ابتدعه الرؤساء له من التشريع، حتى صار التوحيد الذي أمروا به عندهم شركاً، والعبد المربوب رباً، والعابد المألوه إلهاً»[٣].

وإرادتهم هذه وقصدهم إلى إبطال الإسلام، وطمس القرآن ظلم أيّما ظلم، فهو ظلم لله بشركهم به وكفرهم بدينه، وظلم لرسوله بمعاداته ومحاربته وظلم لأنفسهم بتوصيلها إلى المهالك، وإبعادها عن الهدى.

أما العدل الإلهي فيتمثّل في إرادة الله سبحانه وحده وأنّه سينصر دينه، ويبثّ شرعه، ويظهر نوره على الدين كلّه ولو كره المشركون، وهذا العدل هو في مقابل ما صدر من المشركين

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور - تفسير التحرير والتنوير - ج ١٠ - ص ١٢٧.

(٢) سورة التوبة / الآية ٣٢، ٣٣.

(٣) محمد رشيد رضا - تفسير المنار - ج ١٠ - ص ٣٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من ظلم وعدوان، فالصراع بين الحق والباطل هو صراع دائم مستمر، ولكن الغلبة في النهاية هي للحق دائماً، والعدل الإلهي هو هذا الحق الذي يسعى الدين إلى نشره، وهذا الخير الذي جاء به القرآن، وبيّنه الرسول الكريم صلّى اللّه عليه وسلم، فالظلم والباطل لهما جولة ولكن للعدل والحق جولات.

وفي هذه الآيات مقابلة مستفادة من السياق بين الظلم البشري المتمثّل في ظلم أهل الشرك وعداوتهم للإسلام والمسلمين، وبين العدل الإلهي المتمثّل في الحق والنور الإلهي الذي أظهرهما اللّه على الأرض.

وقال تعالى: ﴿**إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُم وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُم كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِين**﴾[١].

جاء ذكر الظلم في هذه الآية في قوله تعالى: ﴿ **فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُم** ﴾ أي «لا تظلموا أنفسكم بالمعاصي في جميع السنة يعني أنّ حرمة الدين أعظم من حرمة الأشهر الأربعة في الجاهلية، ووجه تخصيص المعاصي في هذه الأشهر بالنهي أنّ اللّه جعلها مواقيت للعبادة»[٢].

قال محمد رشيد رضا: «"فلا تظلموا فيهن أنفسكم" الضمير في "فيهن" للأربعة الحرم عند الجمهور، وقيل لجميع الشهور، وظلم النفس يشمل كل محظور ويدخل فيه هتك حرمة الشهر الحرام دخولاً أولياً، فإن اللّه تعالى اختص بعض الأزمنة وبعض الأمكنة بأحكام من العبادات تستلزم ترك المحرمات فيها، والمكروهات بالأولى، لأجل تنشيط الأنفس على زيادة العناية بما يزكيها ويرفع من شأنها، فإن من طبع البشر الملل والسآمة من الاستمرار على حالة واحدة تشقّ عليها، فجعل اللّه العبادات الدائمة خفيفة لا مشقّة في أدائها كالصلوات الخمس

---

(١) سورة التوبة / الآية ٣٦.
(٢) محمد الطاهر بن عاشور - تفسير التحرير والتنوير - ج ١٠ - ص ١٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخ..»[١].

فظلم الأنفس الذي تتحدث عنه الآية هو في ترك الواجبات والاعتداء على حقّ الله في الحاكمية، وفي التحليل والتحريم، أما العدل الذي قابل هذا الظلم فهو في حكمة الله وتدبيره للكون، وجعله للسنن الكونية الذي يعرف بها البشر سُبُل معاشهم، وجعله للأشهر الحُرُم التي تخصّص للعبادة، ويمنع فيها القتال، وتُصَفّى فيها القلوب بين النّاس، وتتوجه بالعبادة الخالصة إلى إله الكون وحده، وهذا هو مقتضى العدل الإلهي الذي نازع فيه البشر مشيئة الله وقدرته فحلّلوا ما حرّمه، وحرّموا ما أحلّه، فظلموا أنفسهم وظلموا الله بمنازعته في خصائصه ومقوماته.

(١) تفسير المنار - ج ١٠ - ص ٤١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(د) المقابلة بين الاجتماع والفرقة :

الاجتماع والجمع ضمّ الشيء بتقريب بعضه من بعض[١] وهو ضد الفُرقة، والاجتماع في مفهومه العام هو نوع من الولاء إلى الجماعة الواحدة تقتضيه الفطرة والشرع لاشباع غريزة الألفة، وتحقيق حاجات النفس إلى التجمع والتعاون،[٢] وهو المقصود في قوله تعالى: ﴿**يا أيُّهَا النَّاسُ إنَّا خَلَقنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وقَبَائِلَ لِتَعارَفُوا**﴾[٣].

فالتعارف هو من الاجتماع الذي يدعو إلى التماسك والارتباط ضمن مجتمع واحد، وضمن قبيلة واحدة، أما الفرقة فتعني الاختلاف والافتراق وحلّ الروابط الجماعية داخل الجماعة الواحدة أو المجتمع الواحد، وهو الذي حذرت منه الرسالات السماوية ودعت إلى نبذه واحتقاره .

وهذه الثنائية هي من الثنائيات الهامة التي اهتم بها القرآن الكريم في آياته وسوره لارتباطها المباشر بحياة النّاس وواقعهم، ولعلاقتها الوطيدة بالقيم الاجتماعية والسياسية التي تربط الإنسان بمجمعه .

ولقد دعا القرآن الكريم إلى الاجتماع والوحدة لأنّهما من طبيعته، وهما ركناها اللذان تقومان عليهما دعوته الدينية العامة الموجهة إلى الناس أجمعين، ولقد استجاب لها المسلمون في أول عهدهم فأكسبتهم قوة وعزّة وغلبة عزّت بها الدعوة الدينية فانتشرت وانتصرت وصدت من عارضها، فتفتحت أمامها الطرق، واتسع لها الأفق، وعمت بلاد من كان يعارضها ويدفعها ويقف في طريقها بما كان له من قوة ومال وجاه ورجال [٤].

ولكن هذا الاجتماع قد وضع له الشرع أسساً تفضي به إلى أن يكون عنصر خير للبشر

---

(١) الفيروزآبادي – بصائر ذوي التمييز – ج ٢ – ص ٣٩٠.

(٢) زكريا المصري – وحدة الأمة الإسلامية على أسس صحيحة وواقعية – ط ١ مؤسسة الرسالة، سنة ١٩٩٢ – ص ٣٥.

(٣) سورة الحجرات / الآية ١٣.

(٤) الوحدة الإسلامية أو التقريب بين المذاهب السبعة – جمع وترتيب عبدالكريم الشيرازي – ط ١ مؤسسة الأعلى: بيروت، ١٩٧٥ – ص ١٤٢.(

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يحميهم من عدوهم الأول وهو الشيطان الرجيم ويحول دون استغلال الشيطان وعملائه من البشر لما جبل عليه الإنسان من الشهوات المختلفة: شهوة الجاه أو المال أو الجنس أو اتباع الهوى أو التقليد فيرسم له الطريق الصحيح الذي يوصله إلى دار السلام في الدنيا والآخرة .

« فوضع الله لهذا التجمع أساساً متيناً وهو التقوى لله تعالى والإيمان به، والإيمان عمل القلب، والتقوى عمل الجوارح، فإذا تلقى القلب عن الله وعملت الجوارح، بما تلقاه القلب فإنّ ذلك سوف يؤدي بالإنسان إلى أن يكون عنصراً صالحاً في التجمع البشري، وأن يكون المجتمع المتلقي عن الله مجتمعاً مثالياً لأن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى »[١].

فقضية الاجتماع كغيرها من القضايا التي تناولناها مرتبطة أساساً في المنهج القرآني بحقائق التصور الإسلامي عن الكون والحياة والإنسان، ولذلك فهي من مقتضيات العقيدة قال تعالى: ﴿ واعْتَصِمُوا بحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً ولا تَفرّقُوا واذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُم إذ كُنتُم أعداءً فألفَ بينَ قُلوبِكم فأصبحتُم بنعمتِهِ إخواناً وكنتُم عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ من النّار فأنقذكُم مِنهَا كذلِكَ يُبيّن اللّهُ لكُم آياتِه لعَلّكُم تَهْتَدُون ﴾[٢].

فجاءت الدعوة إلى الاعتصام والتمسّك بحبل الله الذي يمثل قاعدة التصور الإسلامي، ثم جاء النهي عن التفرق في الدين والإختلاف فيه كما اختلف اليهود والنصارى.. « والعرب وقت نزول هذه الآية لم تكن مجتمعة على الإسلام، ولا مؤتلفة القلوب عليه، وكانت الأوس والخزرج قد اجتمعت على الإسلام، وتألفت عليه بعد العداوة المفرطة والحروب التي كانت بينهم، ولما تقدّم أنّه أمرهم بالاعتصام بحبل الله- وهو الدين - ونهاهم عن التفرق- وهو أمر ونهي بديمومة ما هم عليه إذ كانوا معتصمين ومؤتلفين- ذكرهم بأنّ ما هم عليه من الاعتصام بدين الإسلام وائتلاف القلوب إنّما كان سببه إنعام الله عليهم بذلك، إذ حصل منه تعالى خلق تلك الداعية في قلوبهم المستلزمة بحصول الفعل، فذكر النعمة الدنيوية والآخروية، أمّا الدنيوية فتألف قلوبهم وصيرورتهم إخوة في الله متراحمين بعدما أقاموا متحاربين متقاتلين نحواً من

١) زكريا المصري - وحدة الأمة الإسلامية - ص ٣٥، ٣٦.

(٢) سورة آل عمران / الآية ١٠٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مائة وعشرين سنة إلى أن ألف الله بينهم بالإسلام.. وأما الأخروية فإنقاذهم من النار بعد أن كانوا أشفوا على دخولها »(١).

والقرآن الكريم يهدف من وراء دعوته إلى اجتماع الأمة كلّها على منهج واحد، وتصوّر واحد، وعدم الاختلاف والتفرق فيه، قال تعالى: ﴿ **إنَّ هذِهِ أُمتكم أمةً واحدةً وأنَا رَبُّكُم فاعْبُدُون** ﴾(٢) ،«وقد شبّه النّبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين بأعضاء الجسد الواحد، ولم يكن شيء أبغض إليه بعد الكفر بالله من الاختلاف والتنازع، ولوفي الأمور العادية، ولمّا كان الإختلاف في الفهم والرأي من طباع البشر ﴿ **ولا يَزالُونَ مُخْتَلِفِين إلاّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ولِذَلِكَ خَلَقَهُم** ﴾(٣) خصّ الاختلاف المذموم في الإسلام بما كان عن تفرق أو سبباً للتفرق، وجرى على ذلك السلف الصالح، فحظروا فتح باب الآراء في العقائد وأصول الدين، وحتموا الاعتصام فيهما بالمأثور من غير تأويل، وخصوا الاجتهاد بالأحكام العملية، ولا سيّما المعاملات، وكان بعضهم يعذر كلّ من خالفه في المسائل الاجتهادية ولا يكلّفه موافقته في فهمه »(٤).

وقد كانت عنايته بالاجتماع والوحدة كبيرة لما لهما من أهمية كبيرة في واقع الناس وواقع المجتمعات، وقد عني بإحكام الرابطة بين المسلمين لكي تنمحي الفوارق بينهم، وتختفي فيها الطبقات، ويتساوي فيها جميع الأفراد في منازلهم وحقوقهم وواجباتهم، كما يتساوى الأخوة في الأسرة الواحدة(٥).

وأراد القرآن أن يجعل لهذه «الوحدة وتلك الرابطة مالرابطة الاخوة من القوة والمكانة، والحرص على صيانتها، والبعد بها عن أن نتعرض لمعاول الهدم والتفريق وأسباب الخصومة والنزاع، فنزل قوله في سورة الحجرات ﴿ **إنّما المُؤْمِنُونَ إخوةٌ فاصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُم واتَّقُوا اللّهَ** ﴾(٦) بياناً لمنزلة هذه الرابطة، وإيجاباً لصيانتها بالاصلاح بين أفرادها إذا ما

---

(١) أبوحيان الأندلسي - تفسير البحر المحيط - ج ٣ - ص ٢٨٦، ٢٨٧.

(٢) سورة الأنبياء / الآية ٩٢.

(٣) سورة هود / الآية ١١٨، ١١٩.

(٤) محمد رشيد رضا - الوحدة الإسلامية والأخوة الدينية - ط دار المنار: مصر - ص ١٣٠.

(٥) ينظر الوحدة الإسلامية أو التقريب بين المذاهب السبعة - ص ١٤٢.

(٦) سورة الحجرات / الآية ١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اشتجر بينهم خلاف، أو عصفت فيهم ريح فرقة، وليس أول على مكانتها من أن يعدها الله نعمة يمن بها عليهم، ويدعوهم إلى الحرص عليها، ويحذرهم من الفرقة بعد اعتصامهم بها، إذ يقول في سورة آل عمران: ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ﴾(١) ويقول أيضاً: ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾(٢)(٣).

ويأتي النهي القرآني عن الفرقة دائماً في سياق الدعوة إلى الوحدة ونبذ أسباب الإختلاف في الدين، أو في سياق الدعوة إلى عبادة الله والتمسك بحبله المتين، ومن جملة هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾(٤).

فهذه الآية تبين مسيرة البشر في الحياة وتحولاتهم من الحق إلى الباطل، ومن الاجتماع إلى الفرقة والإختلاف فقد كان النّاس في البداية مجتمعين على الكفر والضلال والشقاء، ليس لهم نور ولا إيمان، فرحمهم الله تعالى بإرسال الرسل إليهم مبشرين من أطاع الله بثمرات الطاعات من الرزق، والقوة في البدن والقلب، والحياة الطيبة، وأعلى ذلك الفوز برضوان الله والجنة، ومنذرين من عصى الله بثمرات المعصية من حرمان الرزق والضعف والإهانة والحياة الضيقة، وأشد ذلك سخط الله والنار و" أنزل معهم الكتاب بالحق" وهو الاخبارات الصادقة، والأوامر العادلة، فكلّ ما اشتملت عليه الكتب الإلهية فهو حق، يفصل بين المختلفين في الأصول والفروع، وهذا هو الواجب عند الاختلاف والتنازع، أن يرد الاختلاف والتنازع إلى الله

---

(١) سورة آل عمران / الآية ١٠٣.

(٢) سورة آل عمران / الآية ١٠٥.

(٣) الوحدة الإسلامية أو التقريب بين المذاهب السبعة - ص ١٤٢، ١٤٣.

(٤) سورة البقرة / الآية ٢١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإلى رسوله، ولولا أنّ في كتابه، وسنّة رسوله فصل النزاع لما أمر بالرد إليهما، ولما ذكر نعمته العظيمة بها نزال الكتب على أهل الكتاب، وكان هذا يقتضي اتفاتهم عليها واجتماعهم أخبر تعالى أنهم بغي بعضهم على بعض، وحصل النزاع والخصام وكثرة الاختلاف، فاختلفوا في الكتاب الذي ينبغي أن يكونوا أولى الناس بالاجتماع عليه، وذلك من بعد ما علموه وتيقنوه بالآيات البينات، والأدلة القاطعات، وضلوا بذلك ضلالاً بعيداً»(١).

فسبب الفرقة التي حصلت وتحصل للناس على مرّ الأزمان والأعصر يعللها القرآن دائماً بكثرة الإختلاف في الكتاب، والتنازع في الدين، وعدم الرد إليهما حين يشتد الخصام والجدال حول القضايا المختلف فيها .

وفي آية أخرى يؤكد القرآن الكريم على أنّ سبب الاجتماع هو في التمسك بالكتاب، وإقامة الدين، والاجتماع على معاني الحقّ والعدل قال تعالى: **﴿ فأقِم وَجْهَكَ للدينِ حَنيفاً فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَر النَّاسَ عَلَيْهَا لا تبديلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلك الدينُ القَيِّمُ ولَكِنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يعلمُون مُنِيبين إليهِ واتَّقُوه وأقِيمُوا الصَّلاةَ ولاَ تَكُونوا من المشركين مِنَ الذينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِم فَرِحُون ﴾**(٢).

و«إقامة الوجه للدين هو اتجاه القاصد إليه بكلّ كيانه من غير التفات إلى شيء غيره.. والخطاب وإن كان خاصاً للنبّي فإنّه عام يدخل فيه كلّ مؤمن... وفطرة الله هي الدين الحنيف وهي الإسلام... وهي ما أودع الله سبحانه وتعالى في الإنسان من قوى عاقلة، وطبيعة سليمة في أصل الخلقة، تقبل الطيب، وتنفر من الخبيث، وهذا هو ملاك أمر الدين، دين الله الذي ارتضاه لعباده، وهذه الفطرة تعرض لها عوارض كثيرة تشوه معالمها، أو تفسد طبيعتها، شأنها في هذا شأن حواس الإنسان، من سمع، وبصر، وذوق، ولمس، وشم، وكما أن لما يعرض للحواس من آفات من الآفات، وذلك بما يحمله رسل الله من آيات الله، وما في هذه الآيات من هدى ونور، وقوله « ولا تكونوا من المشركين » أي ولا تكونوا من الذين فرقوا دينهم باختلافهم

(١) عبدالرحمن بن ناصر السعدي - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان - تحقيق محمد زهري النجار - ط ٢ عالم الكتب: بيروت، ١٩٩٣ - ج ١ - ص ١٩٠.

(٢) سورة الروم / الآية ٣٠ - ٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيه، حتى تفرقوا شيعاً وأحزاباً، لاهم يدينون بالباطل، والباطل وجوه كثيرة، وطرق متشعبة، فبعضهم يعبد هذا الصنم أو ذاك، وبعضهم يعبد النار، وبعضهم يعبد المائكة، ولكل جماعة مع معبودها أسلوب عبادة، وطقوس وصلوات، وهي عند نفسها أنها على الهدى، وأنّ كل ما سواها في ضلال وخسران، وليس هكذا الحقّ فإنّه وجه واحد، وطريق واحد »[١].

فالفرقة التي حصلت للنّاس جاءت بعد بيان الحقّ، وإقامة الدين، وبعد الإجتماع على سنن الهدى والفطرة، وهذه الفرقة التي كثيراً ما يحذر منها القرآن هي سبب الفساد في الأرض، والهلاك بين الشعوب.

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿ **يا أيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا من الطيِّباتِ واعمَلُو صَالِحاً إنّي بما تَعْمَلُونَ عَليمٌ وإنَّ هذِهِ أمتُكم أمةً وَاحِدة وأنا ربُّكم فاتَّقُون فتقطعوا أمرهم بَيْنَهم زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِم فَرِحُون** ﴾[٢].

فقد جاء التوكيد في هذه الآيات على أنّ ملة الإسلام هي ملة واحدة، وأنّ المستحق للعبادة والخضوع هو الله وحده، وعلى أساس هذه القاعدة يجب الاجتماع والوحدة، ولكن الذي أحدثه البشر هو تمزيق هذه الوحدة حين جعلوا دينهم قطعاً وفرقاً منوعة ﴿ **كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِم فَرِحون** ﴾ «أي كل فرقة من فرق هؤلاء المختلفين المتقطعين دينهم، فرح بباطله، مطمئن النفس، معتقد أنه على الحق»[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- (- ٧٢٨ هـ): «فظهر أنّ سبب الاجتماع والألفة جمع الدين، والعمل به كله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما أمر به باطناً وظاهراً، وسبب الفرقة ترك حظ ما أمر العبد به، والبغي بينهم، ونتيجة الجماعة رحمة الله ورضوانه وصلواته، وسعادة الدنيا والآخرة، وبياض الوجوه، ونتيجة الفرقة عذاب الله ولعنته وسواد الوجوه، وبراءة الرسول منهم، وهذا أحد الأدلة على أن الاجتماع حجّة قاطعة، فإنهم إذا اجتمعوا كانوا مطيعين لله بذلك مرحومين، فلا تكون طاعة لله ورحمته بفعل لم يأمر الله به،

(١) عبدالكريم الخطيب - التفسير القرآني للقرآن - ج ٤ - ص ٥١٤ - ٥١٧.
(٢) سورة المؤمنون / الآية ٥١ - ٥٣.
(٣) محمد جمال الدين القاسمي - تفسير القاسمي المسمّى محاسن التأويل - ج ١٢ - ص ٤٤٠٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من اعتقاد أو قول أو عمل، فلو كان القول أو العمل الذي اجتمعوا عليه لم يأمر الله به لم يكن ذلك طاعة لله، ولا سبباً لرحمته»[١].

إن القرآن الكريم إذن يدعو إلى الاجتماع ويحذر من الفرقة، يدعو إلى الاجتماع الذي يحقق إقامة الدين والولاء لله وللمؤمنين، وبناء المجتمع على أساس من التعاون والتضامن، والمحبة والأخوة تحت راية واحدة، وعقيدة واحدة، ويحذّر من الفرقة بين المؤمنين في دينهم وعقيدتهم التي من شأنها أن تضعف قوتهم، وتهدّد كيانهم، وتجرهم إلى المهالك وإلى غضب الله وعذابه.

ووسائل الاجتماع بين المؤمنين من خلال آي القرآن تتحدد في عنصرين أولاً: الولاء المطلق لله ورسوله، و «ذلك بتوحيد الألوهية لله تعالى دون شريك بمعنى أن يفرد الله تعالى بالطاعة والتلقي، بحيث يطرح كلّ أمر أو نهي إذا تعارض مع أمر الله تعالى، واعتقاد وجوب تقديم أمر الله تعالى ورسوله عليه كائناً من كان، والعمل على تحقيق ذلك في إطار القدرة والاستطاعة ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وسْعَهَا ﴾[٢] لأن الاعتقاد لا سلطان لأحد عليه لكونه من أعمال القلوب، ولا يسيطر عليها ولا يعلم ما فيها إلاّ الله تعالى، وأمّا المجال التطبيقي فيتعلق بأعمال الجوارح، وهذه يعتريها من الضغوط المادية والأدبية ما يحول دون تمكنها من القيام بتنفيذ ما تعتقد... ويعتمد الولاء لله تعالى على عنصرين: المحبة والمناصرة ﴿ والذين آمنوا أَشدُّ حُباً لِلّهِ ﴾[٣] ﴿ يا أَيّها الذين آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللّهِ ﴾[٤] ونصرة الله تعالى بالعمل بأحكامه التشريعية والاعتقادية»[٥].

ثانياً: الولاء للمؤمنين الذين ينتمون إلى المبدأ نفسه، وهو «الولاء للمجانسين في المعتقد على مستوى القمة وعلى مستوى القاعدة بالمحبة والمناصرة أيضاً ليصيروا بالولاء

---

(١) الفتاوى - ج ١ - ص ١٦، ١٧.
(٢) سورة البقرة / الآية ٢٨٦.
(٣) سورة البقرة / الآية ١٦٥.
(٤) سورة الصف / الآية ١٤.
(٥) زكريا المصري - وحدة الأمة الإسلامية على أسس صحيحة وواقعية - ص ٦٩، ٧٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جسداً واحداً متفاعلاً متعاطفاً يحس بعضه بأحاسيس بعض»[١].

فالولاء لله والولاء للمؤمنين والمحبة والمناصرة لهما كلّ ذلك من الوسائل الداعية إلى تحقيق الاجتماع بين الناس، والألفة بين أفراد المجتمع، وهو المقصود في قوله تعالى: ﴿واعْتَصِمُوا بحَبْلِ الله جميعاً ولا تَفرّقوا واذكُروا نِعْمة اللهِ عَلَيْكُم إذْ كُنتُم أعداءً فألف بين قُلوبِكُم فأصْبَحتُم بنعمتِهِ إخواناً﴾[٢].

وبعد بيان أهمية الاجتماع في القرآن الكريم بعامة وكيف أن القرآن ربطه بقضايا العقيدة والتصور، وكيف تناوله وبيّن الوسائل الكفيلة بتحقيقه، وكيف أنّه حذّر من الفُرقة ودعا إلى نبذها، نمضي الآن مع سورة التوبة لنقف عند بعض الآيات التي تظهر فيها المقابلة بين الاجتماع والفرقة ونبيّن القِيَم المعنوية والفكرية وغيرها من القِيَم التي يهدف إليها التعبير، وتسعى إليها الآيات.

قال تعالى: ﴿ والّذين اتّخذوا مَسْجِداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بَيْنَ المُؤمِنين وإرْصَاداً لِمَنْ حاربَ اللهَ ورَسُوله مِنْ قبل وليحلفنّ إن أردنا إلاّ الحُسْنَى واللهُ يشهدُ إنّهم لكاذبُون لا تَقُم فِيهِ أبَداً لمسجدٌ أسّس عَلى التَقْوَى مِنْ أوّلِ يَوْمٍ أحقُّ أن تقومَ فِيهِ فيه رجالٌ يحبُّونَ أنْ يَتَطهَّروا والله يُحِبُّ المطَّهِّرين﴾[٣].

نزت هذه الآيات في بيان واقعة حال من مكايد المنافقين للرسول -صلّى الله عليه وسلم- وللمؤمنين، وفيها مقابلة ضمنية بين الاجتماع والفرقة، فالمنافقون قصدوا ببناء مسجد الضرار إلى ايقاع الضرر بالمؤمنين وبثّ الفرقة بين صفوفهم، أما الاجتماع فتظهر صُوره في دعوة القرآن إلى التمسك بالجماعة والصلاة في المسجد الذي أُسّس على التقوى.

وكانت غاية المنافقين من بناء مسجد الضرار أربعة أغراض :

(١) محاولة إيقاع الضرر بالمؤمنين.

(٢) الدعوة إلى تقوية الكفر.

(١) زكريا المصري – وحدة الأمة الإسلامية على أسس صحيحة وواقعية – ص ٧٠.

(٢) سورة آل عمران / الآية ١٠٣.

(٣) سورة التوبة / الآية ١٠٧، ١٠٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(٣) التفريق بين المؤمنين، وبثّ الفرقة والاختلاف بين صفوفهم.

(٤) الانتظار والارصاد لمن حارب الله ورسوله أن يجيء محارباً فيجد مكاناً له في هذا المسجد، ويجد قوماً راصدين مستعدين للحرب معه[١].

إنّ هذا المسجد الذي بناه المنافقون كان سبباً من الأسباب الداعيَة إلى الفرقة بين المؤمنين، ولذلك جاء التحذير القرآن ﴿ لا تَقُم فِيهِ أَبَداً ﴾ للنّهي عن الصلاة فيه، والقرب منه، والدعوة إلى مقاطعته ونبذه، وجاءت الدعوة إلى الوحدة والاجتماع في المسجد الذي أسس على التقوى، ﴿ لمسجدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾ و «التقوى الاسم الجامع لما يرضي الله ويقي من سخطه، أي أنّ مسجداً قصد ببنائه منذ وضع أساسه في أول يوم تقوى الله تعالى باخلاص العبادة له، وجمع المؤمنين فيه على ما يرضيه من التعارف والتعاون على البرّ والتقوى هو أحقّ أن تقوم فيه أيّها الرسول مصلياً بالمؤمنين من غيره، ولاسيّما ذلك المسجد الذي وضع أساسه على المقاصد الأربعة الخبيثة»[٢].

وغاية المقابلة الضمنية بين الاجتماع والفرقة في هذه الآيات على غرار بيان الحق وتمييزه من الباطل، وكشف أهل النفاق ودحض مكايدهم وفضح خططهم الدعوة إلى الاجتماع والوحدة في ظل المسجد الواحد، والعقيدة الواحدة، والتصدي لأسباب الفرقة والاختلاف من أية جهة كانت.

وقال تعالى في آخر سورة التوبة: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُم رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُم عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّم حَرِيصٌ عليكُم بِالْمُؤْمِنِين رؤوف رحيم فَإِنْ تَوَلَّوا فَقُل حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عليهِ توكلتُ وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العظيم ﴾[٣].

لقد جاءت خاتمة هذه السورة آيتين تذكران المؤمنين بالمنّة ببعثة محمد صلّى الله عليه وسل، والتنويه بصفاته الجامعة للكمال، ومن أخصها حرصه على هداهم، ورغبته في إيمانهم ودخولهم في جامعة الإسلام ليكون رؤوفا رحيما بهم ليعلموا أنّ ما لقيه المعرضون عن الإسلام

(١) محمد رشيد رضا - تفسير المنار - ج ١١ - ص ٣٩.

(٢) محمد رشيد رضا - تفسير المنار - ج ١١ - ص ٤٢.

(٣) سورة التوبة / الآية ١٢٨، ١٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من الإغلاظ عليهم بالقول والفعل ما هو إلاّ استصلاح لحالهم[١].

وفي قوله تعالى: ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّم حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ «إلفات للعرب أيضاً إلى ما يحمل الرسول الكريم من مشاعر الحب لقومه، والحَدَب عليه بما لم يعرف إلاّ في الآباء للأبناء وحدبهم عليهم، حتى لقد حمل ذلك الحبّ وهذا الحدب النبيّ الكريم، على أن يبيت مؤرقاً مسهداً موجعاً لخلاف قومه عليه، وتفلتهم من بين يديه، وهو يدعوهم إلى النجاة، وهم يلقون بأنفسهم في مهاوي الهالكين»[٢].

ففي هاتين الآيتين مقابلة ضمنية بين الاجتماع والفرقة، فالاجتماع مستفاد من قوله تعالى: ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّم حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾، والفرقة مستفادة من قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ ﴾، وغاية هذه المقابلة بيان قيمة الرسول صلّى الله عليه وسلم المعنوية والواقعية في حياة المؤمنين، وتوضيح أنّه حريص على الدين وعلى اجتماع الأمة على العقيدة الواحدة، والمبدأ المشترك، أما إذا اختارت الأمة التفرق والاختلاف واتباع الأهواء والشهوات فسيبقى وحده متمسكاً بحبل الله، مقيماً للدين لأنه لا سبيل إلى النجاة إلاّ به.

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور - تفسير التحرير والتنوير - ج ١١ - ص ٧٠.

(٢) عبدالكريم الخطيب - التفسير القرآني للقرآن - ج ٢ - ص ٩٢٥، ٩٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الخامس :

المقابلة وقضايا العلم والفكر :

أ – المقابلة بين العلم والجهل.

ب– المقابلة بين الاجتهاد والتقليد.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ - المقابلة بين العلم والجهل :-

الجهل نقيض العلم، وهو على ثلاثة أضرب :

الأول: خلوّ النفس من العلم، هذا هو الأصل، الثاني: اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه، الثالث: فعل الشيء بخلاف ما حقّه أن يفعل، سواء اعتقد فيه اعتقاداً صحيحاً أو فاسداً كمن يترك الصلاة عمداً، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ **أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾[١]، فجعل فعل الهزو جهلاً[٢].

والعلم هو معرفة المعلوم من الذوات والصفات والمعاني على ما هو عليه، وهو مصدر علم يعلم علماً، وينقسم إلى ضروري ونظري.

فالعلم الضروري هو ما لا يحتاج المرء معه إلى تأمل وتفكر من سائر البدهيات، كمعرفة المحسوسات والمرئيات مما يدرك بالحواس الخمس التي هي السمع والبصر، واللمس، والذوق، والشم.

ونظري وهو ما يحتاج المرء فيه إلى تأمل وإعمال فكر، وسواء ما كان يدرك بالقلب وحده كالغيبيات من وجود الله تعالى والملائكة، أو بالقلب مع الحواس كالواحد نصف سدس الإثني عشر، والشمس أكبر من القمر[٣].

وكلمة "العلم" من أشيع الكلمات المستعملة قديماً وحديثاً، وازدادت شيوعاً في عصرنا الحالي بحيث أصبحت جزءاً من الثقافة العامة التي تفتخر بها كلّ أمة من الأمم، ومع ذلك كلّه فإنّ كلمة "العلم" مازال يكتنفها الغموض والإبهام، وقليل من النّاس من يدرك ما هو "العلم"، وعموماً فكلمة "العلم" في دور من أدوارها تطلق على ما يضاد الجهل بنوع محدود من المعارف، فإذا نظرنا إلى حال هذه الكلمة عند العرب - مثلاً - في حال جاهليتهم فقد كانت تطلق على ما ينافي الجهل بمعارف الجاهليين المحدودة، وكانت لا تتعدى الشعر

---

(١) سورة البقرة / الآية ٦٧.

(٢) الفيروزآبادي - بصائر ذوي التمييز - ج ٢ - ص ٤٠٦.

(٣) أبوبكر جابر الجزائري - العلم والعلماء - ط دار الكتب السلفية: القاهرة - ص ١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والكهانة، والقيافة، والخطابة، فلمّا ظهر الإسلام كان يراد من العلم ما ينافي الجهل بما ظهر في المعارف الجديدة وهي الكتاب والسنّة وأخبار الملاحم، ولمّا ازدادت معارف العرب صارت تطلق على ما ينافي الجهل بما ظهر من المعارف الجديدة كالفقه والتفسير وشرح السنّة والتاريخ وطبقات رواة الحديث والنّحو، ثمّ انتشرت العلوم الكونية فيهم فصار يستعملها كل فريق فيما هو متمكن فيه فاتسع مدلولها اتساعاً يناسب اتساع مجالات المعارف الجديدة(١).

وأصبحت كلمة "العلم" تعني اليوم مجموع المعارف المؤيدة بالدلائل الحسية، وجملة النواميس التي اكتشفت لتعليل حوادث الطبيعة تعليلاً مؤسساً على تلك النواميس الثابتة، ولا تستعمل إلاّ مفردة، ومع ذلك فقد تطلق على مجموع المعارف في فرع خاص من المعارف، وفي هذه الحالة يطلق بها التخصيص فيقال علم الكيمياء وعلم الفلك مثلاً، وقد يعتريها الجمع فيقال العلوم الكونية، والعلوم الرياضية(٢).

و «جملة القول فإن العلم هو محاولة لاكتشاف العالم المحسوس، ومعرفة العلاقات المتداخلة والمنسقة للحقائق، ذلك أنّ الحقائق المنعزلة لا تقيم علماً، ومن ثمّ فلابدّ من اكتشاف الصلة بينهما وبين بعضها البعض»(٣).

فالعلم أصبح في العصر الحاضر جزءاً من ثقافة الأمة، وأصبح معلماً من معالم المدنية والتحضر، وفي مقابل ذلك أصبح الجهل دليلاً على التخلّف، وغدا منافياً لقيم الحضارة والتقدم، وأصبحت الأمم تعطي أهمية بالغة للعلم من حيث طلبه وتوفير وسائله والإنفاق عليه، وسعت في مقابل ذلك إلى محاربة الفقر بكل الوسائل الممكنة لاقتناعها بالدور الذي أصبح يؤديه "العلم" في بناء المجتمعات بناء قوياً متيناً.

وقبل الحديث عن ثنائية "العلم" و"الجهل" في القرآن الكريم لابدّ من الإشارة إلى قضية

---

(١) حسين رشوان - العلم والبحث العلمي دراسة في مناهج العلوم - ط ٣ المكتب الجامعي الحديث: الاسكندرية - ١٩٨٧م - ص ١١.

(٢) نفسه - ص ١٢.

(٣) نفسه - ص ١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هامة أثارت جدلاً عند بعض الدارسين والمفكرين قديماً وحديثاً وهي علاقة العلم بالدين، وهل تتنافى حقيقة قيم العلم مع قيم الدين؟ وما هي الصورة الحقيقية لهذه القضية في الشريعة الإسلامية؟

وشبهة القائلين بتنافر العلاقة بين العلم والدين تستند إلى أنّ الأفكار المتطورة الحديثة تؤكد أنّ "الحقيقة" ليست إلاّ ما يمكن فحصه وتجربته علمياً، وقد قام "الدين" على "حقيقة" لا سبيل إلى مشاهدتها وفحصها علمياً، وبعبارة أخرى إن التفسير الديني للأحداث والوقائع لا يمكن إثباته بالوسائل العلمية، فهو باطل لا حقيقة له، ويترتب على هذا القول «أن الدين تفسير زائف لوقائع حقيقية»(١).

والردّ على هذا الزعم يرتكز على أنّ «قضية الخلاف المزعوم بين العلم والدين هي من أهمّ القضايا الوافدة إلى البلاد الإسلامية، وهي قضية لم يعرفها علماء المسلمين وفلاسفتهم وأطباؤهم القدماء، وجميع المشتغلين منهم بقضايا العلم وقضايا الدين، وإنّما عرفها بعض المسلمين المعاصرين الذين ليس لهم إلمام بالثقافة الإسلامية، بعد اتصالهم بالعالم الغربي المسيحي الذي شغلته هذه القضية منذ بدء النهضة الأوروبية الحديثة، وظهور بعض الحقائق والنظريات العلمية التي تخالف النصوص الدينية المسيحية أو تناقضها، إذ أنّ الدين في صورته المحرّفة عندهم غير عقلي ولا علمي، وطبيعي أن يحتدم الصراع عندهم بين رجال الدين ورجال العلم احتداماً بالغاً، وخاصةً بعد هجوم الكشوف العلمية على الطبيعة وأسرارها، وتسخير قواها في التكوين والتخريب»(٢).

فالبحث في علاقة الدين بالعلم هو بحث غريب على الفكر الإسلامي أصلاً، لأنّ تربته الأصلية التي وجد فيها هي "أوروبا" حيث احتدم الصراع بين رجال الكنيسة، ورجال الدين، ومنه انبثق ذلك الفصام بين العلم والدين والذي قاد "أوروبا" إلى اتخاذ موقف معارض للدين، أمّا في بلاد الإسلام فلم يبحث هذا الموضوع أصلاً لغرابته ومخالفته لمبادىء القرآن الكريم، وروح الدين الإسلامي.

---

(١) العلم والإيمان في الإسلام - مجموعة من الباحثين - ط وزارة الشؤون الثقافية: تونس، ١٩٧٥م - ص ٩٣.
(٢) نفسه - ص ٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فمن الدلائل القاطعة على أنّ موضوع العلم وموضوع الدين واحد، أنّ القرآن جعل الاعتماد الأكبر على الفكر في الإيمان بالله الخالق، ومعرفة صفاته سبحانه، وفي استمداد ذلك من الكون المادي، كما يعتمد العلماء الماديون على الفكر في فهم الطبيعة، واستخراج قوانينها، وتقرير حقائقها، وكشف أسرارها، وقد بيّن القرآن الكريم أنّ الكون المادي الذي نراه هو من العرش العظيم لله الخالق، ونحن نراه رأي العين، ونوقن منه يقين القلب، بعد جزم العقل بوجود الله، ووحدانية ذاته الأقدس، متجلياً ذلك كلّه فيما خلق وما أبدع. ومن لا يستنبط من الكون ناموسه الأكبر، وسره الأعظم الذي يدلّ على خالقه الأوحد فهو حقيق بألاّ يوصف بالعلم أو الفكر.

«فالقرآن الكريم جعل أساس الإيمان بالدين هو الفكر، وأساس العلم كذلك هو الفكر، ولذلك اعتمد عليه القرآن في توصيل حقائقه إلى النفوس فقال تعالى: ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً لَعَلَّكُم تَعْقِلُونَ** ﴾ فمن يهدر العقل، ولا يعترف به في مجال الدين فقد أهدر أعظم أدوات القرآن في التوجيه للإيمان، وسلك به مسلك الأديان الأخرى التي لا تعتمد إلاّ على الوجدان والمشاعر، وعدم وضوح الرؤية العقلية للحقيقة الدينية الأولى»(١).

ومن الأدلة كذلك على عدم التفريق بين العلم والدين في الإسلام «أنّ القرآن يحتفي بالمادة في بيان سُنن الله فيها وأسرارها، ويحثّ على اكتشاف أبعادها ومخبآتها، ويرى العقل أنّ المادة ليست شيئاً تافهاً أو حقيراً، أو سجناً للروح، أو مناقضة لها.. وطبيعي أن يكون الاحتفاء ممثلاً في العلم التام، وبجزئياتها وسننها وقوانينها. ومادامت هي من عرش ربنا ومن معالم الطريق إلى معرفته، إذن يكون العلم بها جزءاً لأنّه مفتاح رؤية الطريق إلى معرفة الله - عزّ وجل - معرفة علمية»(٢).

وبعد بيان أنّه لا تناقض بين "العلم" والدين في نظر القرآن الكريم، يأتي الحديث عن الموضوع الهام الذي نريد التركيز عليه في هذه الدراسة، وهو "العلم" ومفهومه في المنهج القرآني، ثم نقف بعد ذلك عند الأهمية الخاصة التي يوليها القرآن لموضوع "العلم"، وكيف

---

(١) العلم والإيمان في الإسلام - مجموعة من الباحثين - ط وزارة الشؤون الثقافية: تونس، ١٩٧٥م - ص ٨٦.
(٢) نفسه - ص ٨٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قابل بينه وبين "الجهل".

العلم في المفهوم القرآني يشمل ثلاثة أنواع :

الأول: وهو العلم المكتسب وهو من أعظم المميّزات التي وهبها الله للإنسان، وهو مبني على مسلمات البداهة، والفطرة التي فطر الله الناس عليها، ومبني كذلك على قدرة العقل على إثبات الحقائق بالبرهان، كقوانين الرياضيات، وكاليقين العقلي الجازم بحتمية وجود الخالق، إلى آخر الحقائق الدينية والكونية العقلية كوحدانية الخالق في خلقه، وأبديته في ذاته، وحتمية إحاطة علمه وقدرته بكل شيء، وكعدله ورحمته.

وهذا النوع من "العلم" هو المراد في قوله تعالى: ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ والملائكةُ وأولُوا العِلْمِ قائماً بالقِسْطِ لا إلهَ إلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ** ﴾[١]، وفي قوله تعالى: ﴿ **والراسِخُونَ في العلم يقولون آمَنَّا بهِ كلٌ من عند ربِّنَا** ﴾[٢].

و «هذا النوع من العلم هو أعظم مقامات الإنسان، لأنّه يجعله شاهداً - مع الله الكبير المتعالي، ومع ملئه الأعلى على أعظم حقيقة عقلية ودينية وكونية وهي وحدانية الله تعالى، وقيوميته على الوجود كلّه بالقسط، وعلى عزّته وقوّته وحكمته»[٣]، «فالراسخون في العلم الذين بلغ من علمهم أن يعرفوا مجال العقل، وطبيعة التفكير البشري، وحدود المجال الذي يملك العمل فيه بوسائله الممنوحة، أما هؤلاء فيقولون في طمأنينة وثقة ﴿ **آمنّا بهِ كلٌ مِنْ عِنْدِ ربِّنَا** ﴾ وهم يطمئنون إليه بفطرتهم الصادقة الواصلة، ثمّ لا يجدون من عقولهم شكاً فيه كذلك، لأنّهم يدركون أنّ من العلم ألاّ يخوض العقل فيما لا مجال فيه للعلم، وفيما لا تؤهله وسائله وأدواته الإنسانية لعلمه»[٤].

الثاني: هو العلم المبني على التجارب الحسيّة في الطبيعة، وعلى النظر والتأمل في كلّ ما خلق، وعلى استخلاص قوانين التكوين والهدم والتسخير لقوى الطبيعة[٥]، وهو المستَفاد

(١) سورة آل عمران / الآية ١٨.

(٢) سورة آل عمران / الآية ٧.

(٣) العلم والإيمان في الإسلام - لمجموعة من المؤلفين - ص ٨٧، ٨٨.

(٤) سيد قطب - في ظلال القرآن - ج ١ - ص ٣٧٠.

(٥) العلم والإيمان في الإسلام - مجموعة من المؤلفين - ص ٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِن عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[١].

«ولا يخفى أنّ النوع الأول من المفاهيم القرآنية للعلم، وهو الحكم العقلي هو في الواقع وراء كل علم مستنبط من المشاهدة والتجارب الحسيّة، لأنّه هو الذي يستخدمه الفكر لادراك الحقائق الحسية، والنِسَب والعلاقات بين الأشياء، والتمييز بينها، وتصنيفها، واستخراج قوانينها وأسرارها، لأنّ الحقائق والقوانين الطبيعية لا تنطق بذاتها، ولا تخرج إلى عالم الألفاظ وحدها، وإنّما يستخرجها الفكر الإنساني ويصحبها، ليبرزها ويظهرها في علم الصيغ والألفاظ، ويقننها ويسجلها في سجل العلوم والحقائق الثابتة في ميراث الإنسانية كلّها»[٢].

والعلم المقصود في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِن عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ هو العلم الذي لا يحصّل إلاّ بالبحث الجاد، والنظر المتأمل، والعقل الدارس المفكر في خلق السماوات والأرض، وما في السماوات والأرض، فمعرفة الله أولاً ثم الخشية منه ثانياً[٣].

والنوع الثالث من العلم في المفاهيم القرآنية «هو العلم عن طريق الوحي الإلهي للأنبياء، وهو بمعنى آخر علم الشرع، ولا يأتي عن طريق معاناة الحواس أو العقل في إدراكهما الحقائق الحسية أو العقلية، كما هو الشأن في النوعين السابقين الأول والثاني من العلم، وإنّما يأتي كما قلنا عن طريق الوحي الإلهي إلى الروح الإنساني الممثل في الأنبياء والمرسلين.

فهو فيض من علم الله سبحانه ونوره الكاشف، ينزّله على قلب النبيّ بحقائق بعضها من الغيب المعجب من العقول، كأخبار البعث والقيامة والحشر والحساب والجنّة والنار والملأ الأعلى، وبعضها من عالم التجارب والوقائع والشرائع والنظم في هذه الحياة الدنيا كأخبار الأمم السالفة، وكأنباء المستقبل، وكالأحكام الصحيحة في الاجتماع والسياسة والاقتصاد والشريعة، وكل أولئك ينزل بوحي الله للرسول ليعلمه ويبلغه إلى النّاس حقائق مضيئة هادية تكسب المؤمنين علماً ويقيناً لم يبذل عقل الرسول ولا عقول المؤمنين جهداً في معاناة الوصول

---

(١) سورة فاطر / الآية ٢٨.

(٢) العلم والإيمان في الإسلام - مجموعة من المؤلفين - ص ٨٨.

(٣) عبدالكريم الخطيب - التفسير القرآني للقرآن - ج ٤ - ص ٨٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إليه»[١].

فمن هذه المفاهيم الثلاثة "للعلم" في المنهج القرآني يستنتج أنّ مدلول "العلم" في القرآن ليس قاصراً على العلم الديني - كما يظن بعض النّاس - بل إنّه يتسع فيشتمل على كل المعارف الدينية والدنيوية، يدلّ على ذلك أنّ القرآن قد جعل "العلم" بالله، وصفاته وأفعاله أعلى المعارف، وأرقى ما يصل إليه الإنسان عن طريقين: عن طريق العلم بالوحي الذي بعث به الأنبياء، وهو المعبر عنه "بالأمر"، وعن طريق العلم بالكون وأسراره ومسخراته، وهو المعبّر عنه "بالخلق"، قال تعالى: ﴿ **الله الذي خَلَقَ سبعَ سماواتٍ ومن الأرضِ مثْلَهُنَّ يتنزّلُ الأمرُ بَيْنَهنَّ لتعلمُوا أنّ اللّهَ على كُلّ شيءٍ قدير وأنّ اللّهَ قد أحاطَ بكلّ شيءٍ علماً** ﴾[٢] فدلّ على أنّ علم النّاس بربّهم وصفاته وأفعاله غاية وسيلتها العلم بخلق السماوات والأرض والعلم بما يتنزّل بينهما من الوحي[٣].

«ولهذا لم يوصد الإسلام باب العلم، ولم يقف به عند حدّ معيّن لزمان معيّن، ولم يحدّد للعلم نظريات تعتبر وحياً لا يجوز البُعد عنه، بل فتح آفاق التجدد والبحث، وحثّ على طلب المزيد ﴿ **وقل ربِّ زدني علماً** ﴾ وأخبر بأنّه سيوجد ما لا علم لهم به ﴿ **ويَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُون** ﴾ وحذّر من الاغترار مما حُصّل من علم فيحول ذلك بينهم وبين طلب المزيد، ﴿ **وما أوتيتم من العِلْم إلاّ قليلاً** ﴾ وكان هذا القول تعقيباً على سؤالهم عن الروح وهي من أسرار الله في الخلق، وليست من قبيل "الأوامر" الدينية»[٤].

لقد حارب القرآن الكريم الجمود العلمي، وحثّ على النظر والاستدلال، وطلبِ الحقيقة الصادقة بأدلتها المقنعة للعقول، قال تعالى ﴿**الذينَ يَسْتَمِعُونَ القولَ فيتبعُونَ أَحْسَنَهُ**﴾[٥]، كما حارب القرآن الجمود العقلي، وهو آفة من الآفات التي تتسرب إلى النفوس فتجعلها تقف أمام الحقائق موقفاً معانداً ومكابراً ورافضاً لكل أنواع الحجج

(١) العلم والإيمان في الإسلام - مجموعة من المؤلفين - ص ٨٩.
(٢) سورة الطلاق / الآية ١٧.
(٣) عبدالمجيد صبح - العلم والإيمان - ط ١ دار الوفاء: المنصورة، ١٩٨٤ - ص ٣٤، ٣٥.
(٤) نفسه - ص ٣٦، ٣٧.
(٥) سورة الزمر / الآية ١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والبراهين، قال تعالى: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُم لا يعقلون شيئاً ولا يَهْتَدونَ ﴾[١].

إنّ الحديث عن أهمية العلم في القرآن الكريم يقودنا إلى تقرير هذه الحقيقة، وهي أنّه لا يوجد دين من الأديان، ولا مذهب من المذاهب اهتم بالعلم وحضّ عليه، وبالغَ في رفع منزلته، وجعله سبب الفلاح في الآخرة، والنجاح في الدنيا كاهتمام القرآن به، وقد فاضل القرآن بين العلم والجهل فقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوي الذينَ يَعْلَمُونَ والذينَ لا يَعْلَمُونَ إنّما يتذكّر أولُوا الألبَابِ ﴾[٢] «والمقصود من الآية إثبات عدم المساواة بين الفريقين، وعدم المساواة يكنّى به عن التفضيل، والمراد تفضيل الذين يعلمون على الذين لا يعلمون... أي لا يستوي الذين لهم علم فهم يدركون حقائق الأشياء على ما هي عليه، وتجري أعمالهم على حسب علمهم، أما الذين لا يعلمون فلا يدركون الأشياء على ما هي عليه بل تختلط عليهم الحقائق، وتجري أعمالهم على غير انتظام، كحال الذين توهموا الحجارة آلهة، ووضعوا الكفر موضع الشكر»[٣].

وعن هذه المقابلة بين "العلم" و"الجهل" استفاد "محمد الطاهر بن عاشور القيم" المعنوية التالية[٤]: أولاً: الاهتداء إلى الشيء المقصود نواله بالعمل به، وهو مقام العمل، فالعالم بالشيء يهتدي إلى طرقه فيبلغ المقصود بيسر وفي قرب، ويعلم ما هو من العمل أولى بالإقبال عنه، وغير العالم به يضل مسالكه، ويضيع زمانه في طلبه، فإمّا أن يخيب في سعيه، وإمّا أن يناله بعد أن تتقاذفه الأرزاء وتنتابه النوائب، وتختلط عليه الحقائق، فربّما يتوهم أنّه بلغ المقصود حتى إذا انتبه وجد نفسه في غير مراده، ومثله قوله تعالى: ﴿والذينَ كَفَرُوا أعْمَالُهُم كسرابٍ بقيعةٍ يَحْسَبُه الظمآن ماءً حتّى إذا جاءَه لَمْ يَجِدْهُ شيئاً﴾ ومن أجل هذا شاع تشبيه العلم بالنور، والجهل بالظلمة.

ثانياً: هو مقام السلامة من نوائب الخطأ ومزلات المذلات، فالعالم يعصمه علمه من

---

(١) سورة البقرة / الآية ١٧٠.

(٢) سورة الزمر / الآية ٩.

(٣) محمد الطاهر بن عاشور - تفسير التحرير والتنوير - ج ٢٣ - ص ٣٤٨، ٣٤٩.

(٤) نفسه - ج ٢٣ - ص ٣٤٩، ٣٥٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذلك، والجاهل يريد السلامة فيقع في التهلكة. فإن الخطأ قد يوقع في الهلاك من حيث طلب الفوز، ومَثَلُه قوله تعالى: ﴿ فَمَا رَبِحَت تِجارَتُهم ﴾ إذ مثّلهم بالتاجر خرج يطلب فوائد الربح من تجارته فآب بالخسران، ولذلك يشبه سعي الجاهل بخبط العشواء، ولذلك لم يزل أهل النصح يسهلون لطلبة العلم الوسائل التي تقيهم الوقوع فيما لا طائل تحته من أعمالهم.

ثالثاً: مقام أنس الانكشاف فالعالم تتميّز عنده المنافع والمضار وتنكشف له الحقائق فيكون مأنوساً بها واثقاً بصحة إدراكه وكلّما انكشفت له حقيقة كان كمن لقي أنيساً بخلاف غير العالم بالأشياء فإنّه في حيرة من أمره حين تختلط عليه المتشابهات فلا يدري ماذا يأخذ وماذا يدع، فإن اجتهد لنفسه خَشِيَ الزلل، وإن قلّد خشي زَلَل مقلّده، وهذا المعنى يدخل تحت قوله تعالى: ﴿ كلّما أضَاءَ لَهُم مَشَوا فيه وَإِذَا أظْلَم عَلَيْهِم قَامُوا ﴾.

رابعاً: مقام الغنى عن النّاس بمقدار العلم والمعلومات، فكلّما ازداد علم العالم قَوِي غناه عن النّاس في دينه ودنياه.

خامساً : الالتذاذ بالمعرفة، وقد حصر فخر الدين الرازي اللذة في المعارف وهي لذة لا تقطعها الكثرة.

سادساً: صدور الآثار النافعة في مدى العمر مما يكسب ثناء النّاس في العاجل، وثواب الله في الآجل، فإنّ العالم مصدر الإرشاد، والعلم دليل على الخير وقائد إليه، قال تعالى: ﴿قل هل يَسْتَوِي الذيْنَ يَعْلَمُونَ والذين لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

فهذه المقابلة التي يعقدها القرآن الكريم بين "العلم" و"الجهل" لها قيمة فكرية كبيرة هي بيان مكانة العلم في حياة النّاس، وأهميته في بناء العقائد وتكوين المجتمعات.

وسنزيد هذا الموضوع وضوحاً لبيان منهج القرآن الكريم في تناول قضية "العلم" ونتعرض لبعض القِيَم الفكرية والدينية المستفادة من الآيات القرآنية، فمن ذلك ما يلاحظ في القرآن من مفاضلة بين المؤمنين بالعلم والجهاد، وجعلهما معاً سياجاً لحماية المجتمع[١]، قال تعالى: ﴿

(١) عبدالمجيد صبح – العلم والإيمان – ص ٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وما كَانَ المؤمِنُونَ لِيَنْفِروا كافة فلولاً نَفَر مِن كلّ فِرْقَةٍ مِنْهُم طائفة ليتفقَهُوا في الدينِ ولينذِرُوا قومَهم إذا رجَعُوا إليْهِم ﴾[١]، وسنتحدث عن قِيَم هذه الآية فيما بعد.

ويلاحظ كذلك أنّ القرآن يعطي مكانة خاصة للعلماء قال تعالى: ﴿ يرفَعُ اللّهُ الذينَ آمَنُوا مِنكُم والذينَ أوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾[٢] فهذا الربط بين العلم والإيمان، وهذه المنزلة العظيمة للعلم يرجعان إلى طبيعة "العلم" «الذي شأنه في هذا شأن الإيمان في رفع إنسانية الإنسان، وإعلاء منزلته، فالإيمان هو في حقيقته علم، والعلم في حقيقته إيمان، وإن إيماناً لا يقوم على علم هو إيمان هزيل باهت لا يؤثر أثراً، ولا يطلع زهراً ولا ثمراً، وإنّ علماً لا يفتح للعقل والقلب طريقاً إلى الإيمان، ولا تنقدح منه شرارات مضيئة، تضيء للإنسان طريقه إلى الله هو نار تحرق، أو دخان يعمي، ويزكم الأنوف، ويخنق الصدور، وقد جمعت الآية الكريمة بين الإيمان والعلم، وجعلت كلاً منهما صفة لموصوف.. وذلك أنّ من النّاس من يبدأ الطريق بالعلم ثم يقوده هذا العلم إلى الإيمان، ومنهم من يبدأ الطريق بالإيمان ثم يقوده الإيمان إلى العلم»[٣].

وقد بلغ من حفاوة الإسلام بالعلم أن جعله سبباً للإيمان بالله، قال تعالى: ﴿ وإن أحدٌ مِنَ المُشْرِكِينَ استَجَارَكَ فَأجِرْهُ حتّى يَسْمَعَ كلامَ اللهِ ثمّ أبلغه مأمَنَهُ ذلك بأنّهم قومٌ لا يَعْلَمُونَ﴾[٤].

قال أبوحيان في "البحر المحيط": «في هذه دلالة على أنّ النظر في التوحيد أعلى المقامات، إذ عصم دم الكافر المهدر الدم بطلبه النظر والاستدلال وأوجب على الرسول أن يبلغه مأمنه، وفيها دليل على أنّ التقليد غير كاف في الدين»[٥].

ومما هو واضح الدلالة على أهمية العلم في القرآن أنّه جعله وسيلة الإقرار بوحدانيته، قال

(١) سورة التوبة / الآية ١٢٢.
(٢) سورة المجادلة / الآية ١١.
(٣) عبدالكريم الخطيب - التفسير القرآني للقرآن - ج ٥ - ص ٨٣٣.
(٤) سورة التوبة / الآية ٦.
(٥) البحر المحيط - ج ٥ - ص ٣٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تعالى: ﴿ **شهدَ اللّهُ أنّه لا إلَهَ إلاّ هُوَ والملائكةُ وأولُو العِلم** ﴾[١] «استشهد بأولي العلم دون غيرهم من البشر، على أجَلّ مشهود عليه وهو التوحيد، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة الملائكة»[٢].

وجعل القرآن "العلم" سبباً لادراك أسرار الكون، قال تعالى: ﴿ **مَثَلُ الذين اتخذُوا من دُونِ اللّه أولياء كمثلِ العَنْكَبُوتِ اتّخذت بيتاً وإنّ أوهَن البيوتِ لبيتُ العنكبوت لو كانوا يَعْلَمُون إنّ اللّه يَعْلَم مَا يَدْعُون من دونهِ من شيء وهو العَزيزُ الحَكيم وتلك الأمثالُ نَضْرِبُهَا للنّاسِ وما يعقِلُها إلاّ العَالِمُون** ﴾[٣].

والقرآن الكريم هو أحد المصادر الهامة التي حاربت "الجهل"، واعتبرته خطراً على العقيدة والتصور، وعاملاً من عوامل الصد عن الحق، وقد أكثر القرآن من تنبيه النّاس على علّة استعصاء البشر عن قبول الحق الذي يفضون به إليهم، هو ما ران على قلوبهم وعقولهم بسبب جهلهم[٤]، قال تعالى في ذمّ أهل الجهل: ﴿ **ذلك بأنّهُم قَوْمٌ لا يعلمون** ﴾ وقوله أيضاً: ﴿ **ذلكَ بِأنّهم قوم لا يَعْقِلُونَ** ﴾، وقد حذّر الله أنبياءه من الجهل فقال لنبيّه محمد صلّى الله عليه وسلم: ﴿ **فَلاَ تكونَنّ من الجَاهِلِين** ﴾[٥] وقال لنبيّه نوح: ﴿ **إنّي أعظكَ أن تكونَ من الجَاهِلِينَ** ﴾[٦].

وكما جعل القرآن العلم وسيلة الإيمان، جعله شرطاً في صحة القول والعمل، فلا يعتبران إلاّ به، فهو مقدّم عليها، لأنّه مصحح للنية المصحّحة للعمل، قال تعالى: ﴿ **فاعْلَم أنّهُ لا إلَهَ إلاّ اللّهُ واستغفر لذنبك** ﴾[٧].

قال البخاري: «بدأ بالعلم - أي حيث قال: فاعلم - وأنّ العلماء هم ورثة الأنبياء ورّثوا

---

(١) سورة آل عمران / الآية ١٨.
(٢) عبدالمجيد صبح - العلم والإيمان - ص ٢٧.
(٣) سورة العنكبوت / الآية ٤١ - ٤٣.
(٤) عبدالمجيد صبح - العلم والإيمان - ص ٢٨.
(٥) سورة الأنعام / الآية ٣٥.
(٦) سورة هود / الآية ٤٦.
(٧) سورة محمد / الآية ١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العلم، من أخذه أخذ بحظ وافر»[١].

والنتيجة التي يمكن أن نصل إليها هي أن العلم والإيمان في القرآن الكريم طريقان إلى حقيقة واحدة، ومن ثمّ وجب أن يتعاونا وأن نبني أحدهما على الآخر، «فالعلم يدعو إلى الإيمان، والإيمان يدعو إلى العلم، ولا يوجد بينهما تنافر، بل بينهما تضافر، وإذا وهمنا وجود تنافر بين العلم والإيمان، فليبحث الباحثون عن علته في أنفسهم، وسوف يجدون العلة من زيغ أهوائهم، أو من ضلال فكرهم، وسوف يظل العلم الرشيد والإيمان الصحيح من بعد ذلك، ومن قبله صديقين، وخليلين مؤتلفين»[٢].

ونمضي الآن مع سورة "التوبة" لنرى تناولها لقضية "العلم" و"الجهل" ولنقف عند آيتين من آياتها فيهما حديث عن هذه الثنائية، ونبدأ بقوله تعالى: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[٣].

هذه الآية فيها مقابلة واضحة بين "العلم" و"الجهل"، فالعلم متمثل في قوله تعالى: ﴿**حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ**﴾ أي أنّ كلام الله يحمل العلم الذي يحتاجه المشركون لتصحيح عقائدهم، أما الجهل فمتمثل في قوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾، وغاية هذه المقابلة إبراز مجموعة من القِيَم الفكرية والدينية، والتي نذكر منها أولاً:- إنّ سبب الأمر بإجارة المستجير المشرك ليطلب علم الكتاب هو أنّه معدود في أهل الجهل، لأنّ المشركين عامة لم يكن لهم علم بالكتاب ولا بالإيمان، فكان منهم أن أعرضوا عن الدين بجهل وعصبية، وصدوا المؤمنين عن سبيل الله، وغرتهم قوتهم، «فإذا كان شعورهم بضعفهم لصدق وعد الله بنصر المؤمنين عليهم قد أعدهم للعلم بما كانوا يجهلون، وطلبوا الأمان لأجل ذلك، أو لغرض آخر يترتب عليه امكان تبليغهم الدعوة، واسماعهم كلامه - عز وجل - وهو الحجة البالغة والشفاء لما في الصدور لمن سمعه باستقلال فكر»[٤].

(١) ابن حجر العسقلاني - فتح الباري بشرح صحيح البخاري - تحقيق عبدالعزيز بن باز - ط دار الفكر: بيروت، ج ١ - ص ١٥٩، ١٦٠.
(٢) عبدالمجيد صبح - العلم والإيمان - ص ١١٦.
(٣) سورة التوبة / الآية ٦.
(٤) محمد رشيد رضا - تفسير المنار - ج ١٠ - ص ١٨٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانياً: يستفاد من هذه الآية قيمة فكرية هامة وهي أنّ "العلم" لابدّ أن يقوم على النظر والاستدلال، وأنّ التقليد غير كاف في العلم، قال الفخر الرازي (- ٦٠٦ هـ): «اعلم أنّ هذه الآية تدل على أنّ التقليد غير كاف في الدين، وأنّه لابدّ من النظر والاستدلال، وذلك أنّه لو كان التقليد كافياً، لوجب أن لا يمهل هذا الكافر، بل يقال له إمّا أن تؤمن، وإمّا أن نقتلك فلمّا لم يقل له ذلك، بل أمهلناه وأزلنا الخوف عنه، ووجب علينا أن نبلغه مأمنه، علمنا أنّ ذلك إنّما كان لأجل أنّ التقليد في الدين غير كاف، بل لابدّ من الحجّة والدليل فأمهلناه وأخرناه ليحصل له مهلة النظر والاستدلال، إذا ثبت هذا فنقول ليس في الآية ما يدلّ على مقدار هذه المهلة كم يكون، ولعلّه لا يعرف مقداره إلاّ بالعرف، فمتى ظهر على المشرك علامات كونه طالباً للحقّ، باحثاً عن وجه الاستدلال، أمهل وترك ومتى ظهر عليه كونه معرضاً عن الحقّ دافعاً للزمان بالأكاذيب لم يلتفت إليه»[١].

ثالثاً: في الآية «تنويه بمعالي أخلاق المسلمين وغض من أخلاق أهل الشرك وأن سبب ذلك الغضّ، الإشراك الذي يفسد الأخلاق، ولذلك جعلوا قوماً لا يعلمون دون أن يقال بأنّهم لا يعلمون، للإشارة إلى أنّ نفي العلم مطرّد فيهم، فيشير إلى أن سبب اطراده فيهم هو نشأته عن الفكرة الجامعة لأشتاتهم، وهي عقيدة الإشراك»[٢].

رابعاً: العلم في كلام العرب، بمعنى العقل وأصالة الرأي، وأنّ عقيدة الشرك مضادة لذلك[٣]، ولذلك فالعلم الحقيقي في مفهوم القرآن هو معرفة الإيمان من مصدره الحقيقي وهو كتاب الله، ولهذا سيبقى الإنسان جاهلاً إن لم يعرف الحقّ بهذه الوسيلة.

ويبقى الهدف الأساسي لهذه المقابلة هو بيان فضل العلم حين يطلب بصدق ووفاء، وذم "الجهل" الذي يقود صاحبه إلى الشرك والهلاك.

وقال تعالى أيضاً في سورة التوبة: ﴿ **وما كانَ المُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ من كلّ فرقةٍ منهم طائفةٌ لِيَتَفَقَّهُوا في الدِّين ولِيُنْذِرُوا قَوْمَهُم إذا رَجَعُوا**

(١) تفسير الفخر الرازي - ج ١٥ - ص ٢٢٨.
(٢) محمد الطاهر بن عاشور - تفسير التحرير والتنوير - ج ١٠ - ص ١٢٠.
(٣) نفسه - ج ١٠ - ص ١٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[١].

تعد هذه الآية الكريمة من الآيات الواضحة الدلالة على طلب العلم، وعدّه في مرتبة واحدة مع الجهاد، خشية أن ينتشر الجهل في المجتمع الإسلامي، وتعم به البلوى، وفي الآية تقابل بين العلم وذلك في قوله تعالى: ﴿ **فلولاَ نَفَرَ من كلّ فرقةٍ طائفةٌ ليتَفَقَّهُوا في الدين** ﴾ وبين معنى الجهل التي قد يستفاد من قوله تعالى: ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة** ﴾ لأنّ النفير الكامل هو سبب للجهل وانتشاره، والآية الكريمة تفيد قيماً فكرية ودينية سنتحدث عن بعضها، قال أبوحيان في "البحر المحيط": «والذي يظهر أنّ هذه الآية إنّما جاءت للحض على طلب العلم والنفقة في دين الله، وأنّه لا يمكن أن يرحل المؤمنون كلهم في ذلك، فتعرى بلادهم منهم، ويستولي عليها وعلى ذراريهم أعداؤهم، فهلا رحل طائفة منهم للتفقه في الدين، ولانذار قومهم»[٢].

وتفيد الآية أيضاً قيمة دينية وهي «وجوب تعميم العلم والتفقه في الدين والاستعداد لتعليمه في مواطن الإقامة، وتفقيه النّاس فيه على الوجه الذي يصلح به حالهم، ويكونون به هداة لغيرهم، وإنّ المتخصصين لهذا التفقه بهذه النيّة لا يقلّون في الدرجة عند الله عن المجاهدين بالمال والنفس لإعلاء كلمة الله والدفاع عن الملة والأمة، بل هم أفضل منهم في غير الحال التي يكون فيها الدفاع فرضاً عينياً»[٣].

ومما يستفاد من قيَم فكرية في هذه الآية أنّ العلم مقصد من مقاصد الإسلام الكبيرة، وهو من أنواع الجهاد الهامة لتماسك الأمة ووحدتها الفكرية، «فإذا كان من مقاصد الإسلام بثّ علومه وآدابه بين الأمة، وتكوين جماعات قائمة بعلم الدين وتثقيف أذهان المسلمين كي تصلح سياسة الأمة على ما قصده الدين منها، من أجل ذلك عقب التحريض على الجهاد بما يبيّن أنه ليس من المصلحة تمخض المسلمين كلهم لأن يكونوا غزاة أو جنداً، وأن ليس حظ القائم بواجب التعليم دون حظ الغازي في سبيل الله من حيث إنّ كليهما يقوم بعمل لتأييد الدين،

---

(١) سورة التوبة / الآية ١٢٢.

(٢) البحر المحيط - ج ٥ - ص ٥٢٦.

(٣) محمد رشيد رضا - تفسير المنار - ج ١١ - ص ٧٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهذا يؤيده بتوسع سلطانه وتكثير أتباعه، والآخر يؤيده بتثبيت ذلك السلطان وإعداده لأن يصدر عنه ما يضمن انتظام أمره وطول دوامه، فإن اتساع الفتوح وبسالة الأمة لا يكفيان لاستبقاء سلطانها إذا هي خلت من جماعة صالحة من العلماء والساسة وأولي الرأي المهتمين بتدبير ذلك السلطان»[١].

وقال الفخر الرازي (- ٦٠٦ هـ) في تفسيره: «دلّت الآية على أنّه يجب أن يكون المقصود من التفقه والتعلّم دعوة الخلق إلى الحقّ، وإرشادهم إلى الدين القويم، والصراط المستقيم، لأنّ الآية تدلّ على أنّه تعالى أمرهم بالتفقه في الدين، لأجل أنّهم إذا رجعوا إلى قومهم أنذروهم بالدين الحقّ، وأولئك يحذرون الجهل والمعصية، ويرغبون في قبول الدين، فكلّ من تفقه وتعلّم لهذا الغرض كان على النهج القويم، والصراط المستقيم، ومن عدل عنه وطلب الدنيا بالدين كان من الأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً»[٢].

وهذه الآية يمكن أن يستفاد منها قِيَم أخرى كثيرة تتعلق بالاجتهاد والتقليد، وقد أرجأنا القول فيه للمبحث الذي سيأتي، ويبقى أن نشير إلى أنّ هذه الآية صريحة الدلالة على أهمية العلم وطلبه، وعلى خطر الجهل وضرره، وهي من الآيات العظيمة في كتاب الله تعالى.

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور - تفسير التحرير والتنوير - ج ١١ - ص ٥٩.

(٢) تفسير الفخر الرازي - ج ١٦ - ص ٢٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب - المقابلة بين الإجتهاد والتقليد :

الاجتهاد في اللغة بذل الوُسع في طلب الأمر، وهو افتعال من الجهد وهو الطاقة[١] ومعناه اللغوي يدور حول المشقة وبذل الوسع والطاقة في طلب أمر من الأمور، فمن طلب أمراً ما دون أن يتحمّل في طلبه مشقة، ويبذل طاقة لا يكون قد اجتهد فيه[٢].

ومعنى الاجتهاد اصطلاحاً وثيق الصلة بمعناه لغة، فهو لا يخرج عن بذل المجتهد جهده وطاقته في طلب الحكم وتعيين مراد الله، وإن كان الأصوليون والفقهاء وأهل الحديث لم يتفقوا على تعريف واحد له، فقد اختلفوا في هذا اختلافاً كثيراً، لكنّ هذا الاختلاف لا يصل إلى درجة التعارض والتناقض، بل يعود إلى زيادة قيد أو شرط، أو اطناب في تعريف وإيجاز في آخر[٣].

ويُعرَّف الاجتهاد عند بعض الأصوليين بأنّه: «بذل الطاقة في تحصيل حكم شرعي عقلياً كان أو نقلياً، قطعياً كان أو ظنياً»[٤].

ويمتاز هذا التعريف عن غيره بالوضوح والبيان، وبأنّه عام يتناول الاجتهاد في القطعيات وغيرها، كما أنّه يشمل الاجتهاد الجماعي، والاجتهاد الفردي[٥].

فالاجتهاد عملية عقلية وفق ضوابط خاصة تتوخى استنباط الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية، فالمجتهد ينظر في الأدلة النصية كالقرآن والسنة، أو يستهدي روح الشريعة ومقاصدها ويبذل جهده في سبيل التعرف على الحكم الشرعي[٦].

وأمّا التقليد فهو الصورة المخالفة للاجتهاد فهو يعني أخذ القول دون دليل أو برهان، قال ابن قيم الجوزية (- ٧٥١ هـ): «التقليد ثلاثة أنواع، أحدها: الإعراض عما أنزل الله وعدم

---

(١) ابن منظور - لسان العرب مادة (جهد).
(٢) محمد الدسوقي - الاجتهاد والتقليد في الشريعة الإسلامية - ط ١ دار الثقافة: قطر، ١٩٨٧م - ص ١٧.
(٣) نفسه - ص ١٨.
(٤) نادية العمري - الاجتهاد في الإسلام - ط ٣ مؤسسة الرسالة: بيروت، ١٩٨٥م - ص ٢٧.
(٥) نفسه - ص ٢٧، ٢٨.
(٦) محمد الدسوقي - الاجتهاد والتقليد في الشريعة الإسلامية - ص ١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الالتفات إليه اكتفاء بتقليد الآباء، الثاني: تقليد من لا يعلم المقلّد أنّه أهل لأن يؤخذ بقوله، الثالث: التقليد بعد قيام الحجة، وظهور الدليل على خلاف قول المقلّد، والفرق بين هذا وبين النوع الأول أن الأول قلّد قبل تمكنه من العلم والحجّة، وهذا قلّد بعد ظهور الحجّة له، فهو أولى بالذم ومعصية الله ورسوله»[١].

والتقليد مذموم في القرآن الكريم، وقد عبّر عنه بالآبائية التي تعني اتباع الآباء أو من لهم رأي أو سلطة دون دليل أو برهان، قال تعالى: ﴿ **وإذا قيلَ لهم اتّبعُوا ما أنْزَلَ اللّه قَالُوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءَنَا أولو كان آباؤهم لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً ولا يَهْتَدُونَ** ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿ **وإذا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إلى مَا أَنْزَلَ اللّهُ وإلى الرسولِ قَالُوا حَسْبُنَا ما وَجَدْنَا عليه آباءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آباؤهُم لا يعلمون شيئاً ولاَ يَهْتَدُونَ** ﴾[٣].

فهذه الآيات وغيرها فيها ذمّ لمن أعرض عمّا أنزله الله إلى تقليد الآباء، وهذا القدر من التقليد هو ما اتفق السلف والأئمة الأربعة على ذمّه وتحريمه[٤]، و «إنّ في تحريم التقليد وتصريح الكتاب العزيز بأنّ الله تعالى لا يقبله، ولا يعذر صاحبه به في الآخرة لتأكيداً شديداً لإيجاب العلم الاستقلالي الاستدلالي في الدين»[٥].

وأما الاجتهاد فقد عبّر عنه القرآن الكريم "بالبرهانية" أي الدعوة إلى اتباع الدليل والبرهان في التوصل إلى الحقيقة، وترك التقليد المذموم الذي يقود إلى الجهل والعصبية، قال تعالى: ﴿ **قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُم إنْ كنتم صَادِقِين** ﴾[٦] وقال أيضاً: ﴿ **ومن يَدْعُ مع اللّه إلهاً آخر لا برهانَ له بهِ فإنّما حسابُهُ عند ربّه** ﴾[٧].

---

(١) إعلام الموقّعين عن ربّ العالمين - تحقيق طه عبدالرءوف سعد - ط دار الجيل: بيروت - ج ٢ - ص ١٨٧.
(٢) سورة البقرة / الآية ١٧٠.
(٣) سورة المائدة / الآية ١٠٤.
(٤) ابن قيم الجوزية - إعلام الموقعين عن ربّ العالمين - ج ٢ - ص ١٨٨.
(٥) محمد رشيد رضا - تفسير المنار - ج ١ - ص ١١٤.
(٦) سورة البقرة / الآية ١١١.
(٧) سورة المؤمنون / الآية ١١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال أهل التفسير: «إنّ القرآن قرر لنا قاعدة لا توجد في غير القرآن من الكتب السماوية، وهي أنّه لا يقبل من أحد قول لا دليل عليه، ولا يحكم لأحد بدعوى ينتحلها بغير برهان يؤيدها، ذلك أن الأمم التي خوطبت بالكتب السالفة لم تكن مستعدة لاستقلال الفكر، ومعرفة الأمور بأدلتها وبراهينها، ولذلك اكتفى منهم بتقليد الأنبياء فيما يبلغونهم وإن لم يعرفوا برهانه، فهم مكلّفون أن يفعلوا ما يؤمرون به سواء عرفوا لماذا أمروا أم لم يعرفوا، ولكن القرآن يخاطب من أنزل عليه بمثل قوله: ﴿ **قل هذه سبيلي أدعو إلى اللهِ على بَصيرةٍ أنَا ومَن اتَّبَعَني** ﴾، وقد فسّروا البصيرة بالحجّة الواضحة، ويستدل على قدرة الله وإرادته وعلمه وحكمته ووحدانيته بالآيات الكونية، وهي كثيرة جداً في القرآن، وبالأدلة النظرية والعقلية كقوله: ﴿ **لو كان فِيهِمَا آلهةٌ إلاّ اللهُ لَفَسَدتَا** ﴾ وغير ذلك، ويستدل على الأحكام بما يترتب عليها من نفي المضرات والإفضاء إلى المنافع، علّم القرآن أهله أن يطالبوا النّاس بالحجة، لأنّه أقامهم على سواء المحجّة، وجدير بصاحب اليقين أن يطالب خصمه به، ويدعوه إليه»[١].

وأهمية الاجتهاد، وطلب البرهان، وإقامة الحقائق على الحجّة واليقين تظهر في القرآن من خلال عدة جوانب نذكر منها أولاً: إنّ القرآن ينظر إلى العقل نظرة احترام وتمجيد، وكان هذا من أهم دعائم الإسلام، فقد حثّ على التفكير والنظر في كل ما أبدع الخالق في الكون، وجعل نفي الإكراه في الدين من أوضح الدلائل على استعلاء مكانة العقل في الإسلام، «لأن الإرادة الإنسانية لا يحركها إلاّ العقل الواعي الذي يميّز بين الأشياء»[٢]، قال العقاد: «لا يذكر القرآن العقل إلاّ في مقام التعظيم، والتنبيه إلى وجوب العمل به، والرجوع إليه، ولا تأتي الإشارة إليه عارضة ولا مقتضبة في سياق الآية، بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة، وتتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي التي يحثّ فيها المؤمن على تحكيم عقله، أو يلام فيها المفكر على إهمال عقله، وقبول الحجر عليه»[٣].

---

(١) محمد رشيد رضا - تفسير المنار - ج ١ - ص ٤٢٥.

(٢) محمد الدسوقي - الاجتهاد والتقليد في الشريعة الإسلامية - ص ٣٥.

(٣) عباس محمود العقاد - التفكير فريضة إسلامية - ضمن المجموعة الكاملة للعقاد - ط ١ دار الكتاب اللبناني: بيروت، ١٩٧٤ - ج ٥ - ص ٢٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانياً: مادام القرآن يدعو إلى التفكير، ويحضّ على النظر، ويوجب الاستدلال، كان هذا الدين دين العلم، ودين الثقافة والحضارة، وقد ذكرنا في موضوع "العلم والجهل" أنّ الآيات القرآنية تفاضل بين العلم والجهل، وتعطي للعلم مكانة عالية وتحذر من الجهل وأسبابه، قال تعالى: ﴿ **قل هَلْ يَسْتَوِي الذِينَ يَعْلَمُونَ والذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾[١]، وطلب العلم يقتضي البحث والنظر والاجتهاد وبذل الوسع في طلب الحقيقة.

ثالثاً: ومادام القرآن الكريم قد عدّ الشريعة التي جاء بها عامةً إلى كلّ الناس، وخاتمةً لكلّ الأديان، وكانت النصوص التي جاء بها متناهية والحوادث غير متناهية، ناسب هذا أن يجعل العقل مناطاً للتكليف، ووسيلة من الوسائل التي تضبط هذه الشريعة، وتجعلها صالحة لكل زمان ومكان، وكان الاجتهاد فريضة محكمة، ووسيلة هامة من الوسائل التي تكشف عن أحكام الله في أفعال عباده[٢] ودليل هذا قوله تعالى: ﴿ **يا أيّها الذِينَ آمَنُوا أطِيعُوا اللّهَ وأطِيعُوا الرَسُول وأولي الأمرِ منكُم فإنْ تنازَعْتُم في شيءٍ فَرُدُّوه إلى اللهِ والرَسُولِ** ﴾[٣].

فإنّ المراد بطاعةِ الله ورسوله «اتباع ما علم من نصوص الكتاب والسنة، أما الردّ إلى الله ورسوله عند التنازع فالمراد منه التحذير من اتباع الهوى، ووجوب الرجوع إلى ما شرع الله ورسوله بالبحث عمّا قد يكون خافياً أو غائباً عن البال من النصوص، أو بتطبيق القواعد العامة بإلحاق الشبيه بشبيهه، أو التوجه إلى تحقيق المقاصد التي اعتبرها الشارع، فكلّ هذا ردّ إلى الله ورسوله»[٤].

رابعاً: وقال تعالى: ﴿ **ولا تقف ما ليسَ لكَ بِهِ عِلْمٌ إنّ السمعَ والبصرَ والفؤادَ كلّ أولئك كانَ عنهُ مَسْئولاً** ﴾[٥].

فقد دعا إلى الاجتهاد لأنّ التقليد ليس بعلم[٦]، وهذه الكلمات القليلة تقيم منهجاً

(١) سورة الزمر / الآية ٩.
(٢) محمد الدسوقي - الاجتهاد والتقليد في الشريعة الإسلامية - ص ٣٦.
(٣) سورة النساء / الآية ٥٩.
(٤) محمد الدسوقي - الاجتهاد والتقليد في الشريعة الإسلامية - ص ٣٧.
(٥) سورة الإسراء / الآية ٣٦.
(٦) ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن ربّ العالمين - ج ٢ - ص ١٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كاملاً للقلب والعقل، يشمل المنهج العلمي الذي عرفته البشرية حديثاً جداً، ويضيف إليه استقامة القلب ومراقبة الله ميزة الإسلام على المناهج العقلية الجافة، فالتثبت من كلّ خبر ومن كل ظاهرة، ومن كل حركة قبل الحكم هو دعوة القرآن الكريم، ومنهج الإسلام الدقيق، ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة، ولم يبق مجال للظنّ والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل، ولم يبق مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية في عالم البحوث والتجارب والعلوم»[١].

ونخلص إلى النتيجة الهامة التالية وهي أنّ القرآن الكريم بدلائله الواضحة يدعو إلى الاجتهاد، وطلب الدليل، ويحبّذ النظر العقلي في جميع المسائل للوصول إلى الحقيقة، ونشير أيضاً إلى قضية أخرى هامة وهي أنّ من يستقرىء تاريخ الاجتهاد في حياة الأمة الإسلامية «يلاحظ أن هناك علاقة عضوية بين ازدهار هذا الاجتهاد وتقدّم الأمة وقوتها، وأنّ ضعف الأمة وتخلفها كان من ورائه تخلف الاجتهاد وضعْفه، وهذا يعني أنّ الاجتهاد مناط القوة والتقدم للأمة الإسلامية، لأنّ مدلوله العام لا ينصرف إلى استنباط الأحكام العملية فحسب، ولكنّه يشمل كلّ مجالات الحياة المختلفة من حيث أنّه قوّة تحرك كلّ الطاقات نحو العمل المتقن في شتّى الميادين»[٢].

ونتحدث الآن عن المقابلة بين الاجتهاد والتقليد في سورة "التوبة" فقد ورد فيها تقابل ضمني بين معاني الإجتهاد وطلبه، وبين معاني التقليد وخطره وذلك في قوله تعالى: ﴿ **وما كانَ المؤمنُونَ لينفِرُوا كافةً فلولا نَفَرَ مِنْ كُلّ فِرْقَةٍ مِنْهُم طائِفَةٌ لِيتَفَقَّهُوا في الدِين ولِيُنْذِرُوا قَوْمَهُم إذَا رَجَعُوا إلَيْهِم لَعَلَّهُم يَحْذَرُونَ** ﴾[٣] فقد فهم المفسرون من هذه الآية أنّها تدعو إلى الاجتهاد، وتنبذ التقليد، قال أبوحيان في البحر المحيط: «والذي يظهر أنّ هذه الآية إنّما جاءت للحض على طلب العلم والتفقه في الدين وأنّه لا يمكن أن يرحل المؤمنون كلّهم في ذلك فتعرى بلادهم منهم ويستولي عليها وعلى ذراريهم أعداؤهم، فهلاّ رحل طائفة منهم للتفقه في الدين ولانذار قومهم»[٤].

---

(١) سعيد حوى - الأساس في التفسير - ج ٦ - ص ٣٠٦٨.
(٢) محمد الدسوقي - الاجتهاد والتقليد في الشريعة الإسلامية - ص ٩.
(٣) سورة التوبة / الآية ١٢٢.
(٤) البحر المحيط - ج ٥ - ص ٥٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهذه الآية لم تسقط الاجتهاد عن الجميع، ولا أمرت به الكافة إنّها نصت على أن ينفر من كل فرقة طائفة لمعرفة أحكام الله ودراستها وفقهها بجدّ، وصيغة "ليتفقهوا" تدل على ذلك، لأنّ صيغة التفعل للتكلف وبذل الجهد[١].

وقال تعالى: ﴿ **وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون. وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون** ﴾[٢].

لقد قابلت هذه الآية بين طبيعتين من البشر، طبيعة أهل الإيمان الذين يقفون من الحقّ موقف المقتنع والمؤيد، وطبيعة أهل النفاق الذين يقفون من الحقّ موقف المعارض والمتردد، ويرجع سبب هذا التباين إلى أن أهل الإيمان هم الساعون دائماً إلى طلب الحقّ بجهد واجتهاد، أما أهل النفاق فلا يقيمون للدليل وزناً، لأنّ نفوسهم مجبولة على التقليد والعصبية والجهل، وقد أقام الله سبحانه هذه المقابلة ليميز أهل الحق من أهل الباطل، وليفضل أهل العلم والاجتهاد، على أهل الجهل والتقليد.

وقد يستفاد التقابل بين الاجتهاد والتقليد في قوله تعالى: ﴿**وإنْ أحَدٌ من المشركين استجارك فأجِرْهُ حتىّ يَسْمَعَ كلامَ اللهِ ثُمَّ أبْلِغْهُ مَأمَنَهُ ذلِكَ بأنَّهُم قومٌ لا يَعْلَمُونَ**﴾[٣].

قال أبوحيان في تفسير الآية: «في هذه الآية دلالة على أنّ النظر في التوحيد أعلى المقامات، إذ عصم دم الكافر المهدر الدم بطلبه النظر والاستدلال، وأوجب على الرسول أن يبلغه مأمنهُ، وفيها دلالة على أن التقليد غير كاف في الدين»[٤].

---

(١) محمد الدسوقي - الاجتهاد والتقليد في الشريعة الإسلامية - ص ٤٠، ٤١.
(٢) سورة التوبة / الآية ١٢٤، ١٢٥.
(٣) سورة التوبة / الآية ٦.
(٤) البحر المحيط - ج ٥ - ص ٣٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل السادس :

المقابلة وخصائص التعبير القرآني :

أ - المقابلة إحدى طرق العرض في القرآن.

ب- المقابلة وأسلوب التصوير.

جـ- المقابلة طريقة في الإقناع.

د - المقابلة وغاياتها الفنية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ - المقابلة إحدى طرق العرض في القرآن الكريم :

إنّ القرآن الكريم هو كتاب اللّه العظيم، وبرهانه المبين، ومعجزته الباقية على مرّ العصور، وهو الكتاب الذي تحدّى جميع البشر على أن يأتوا بمثله، فعجز البشر كلّهم قديماً وحديثاً عن معارضته ومجاراته، وكان عجزهم دليلاً على الاعجاز، يقول السيوطي (- ٩١١ هـ): «أكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم، ولأنّ هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة، خصّت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذوو البصائر»(١).

ولما كان القرآن معجزة عقلية توجّهت إليه همم الدارسين منذ القديم بالحفظ والدراسة، والبحث والتحليل، «فَلِلْفُقَهاء والأصوليين فيه أهداف ولهم إليها طريقة ومنهج، وللفلاسفة والمتكلمين فيه أهداف، ولهم إليها طريقة ومنهج، وللغويين فيه أهداف، ولهم إليها كذلك شرعة ووسيلة، وللبيانيين فيه أهداف، ولهم إليها طريقة ومنهج، ولغير هؤلاء من طلاب العلم والدرس أهداف ومناهج، وعلى كثرة ما كتبه الكاتبون حول القرآن، فإن القرآن معجزة الإسلام، وإعجازه - في المختار - راجع إلى بيانه وأدبه، وبلاغته وفصاحته، وأسلوبه ونظمه، فإن الحاجة في هذا العصر الذي يتّسم بالتّنكر لحقائق الإيمان، والتمرّد على سلطان الدين تصبح ماسة إلى ما يساعد على جلاء تلك المعجزة، وتقريبها إلى الأفهام»(٢).

ولا يختلف اثنان على أن الوجه البلاغي للإعجاز القرآني هو أهمّ ما شغل الدارسين قديماً وحديثاً، وهو الوجه الذي ذهب إليه أكثر علماء النظر، فرأى بعضهم أنه شامل للقرآن بكامله، ويتحقق في الجزء المتحدي به وهو أقصر سورة منه(٣).

وهذا الوجه البلاغي في إعجاز القرآن الكريم هو الذي جعل الأسلوب القرآني لا يَخْلَق على كثرة الردّ، ولا تنفد أسراره مع تعاقب الأزمان يجعل الحقّ الذي لا يشوبه باطل، ويسوق

---

(١) الاتقان في علوم القرآن - ج ٢ - ص ١٤٨، ١٤٩.

(٢) عبدالعظيم المطعني - خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية - ط ١ مكتبة وهبة: القاهرة، سنة ١٩٩٢ - ج ١ - ص ٨.

(٣) محمد بركات أبوعلي - في إعجاز القرآن - ط ١ مؤسسة الخافقين: الرياض، ١٩٨٣م - ص ٢٤.
وينظر عبدالغني بركة - أسلوب الدعوة القرآنية - ط ١ مكتبة وهبة: القاهرة، ١٩٨٣م - ص ٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الهداية التي ليس بعدها هداية، ولقد كان لأسلوبه سلطان على النفوس يشبه السحر(١).

يقول الرافعي: «إن القرآن فيه من اللين والمطاوعة على التقليب، والمرونة في التأويل، بحيث لا يصادم الآراء المتقابلة التي تخرج بها طبائع العصور المختلفة، فهو يُفَسَّرُ في كل عصر بنقص من المعنى، وزيادة فيه، واختلاف وتمحيص، وقد فهمه عرب الجاهلية الذين لم يكن لهم إلاّ الفطرة، وفهمه كذلك من جاء بعدهم من الفلاسفة وأهل العلوم، وفهمه زُعَمَاء الفرق المختلفة على ضروب من التأويل، وأثبتت العلوم الحديثة كثيراً من حقائقه التي كانت مغيّبة... وأكبر السبب في ذلك أن هذا القرآن ليس على طبع إنساني محدود بأحوال نفسية لا يجاوزها، فهو يداور المعاني، ويريغ الأساليب، ويخاطب الروح بمنطقها من ألوان الكلام لا من حروفه، وهو يتألف الناس بهذه الخصوصيّة فيه، حتى ينتهي بهم مما يفهمون إلى ما يجب أن يفهموا، وحتى يقف بهم على نص اليقين ومقطع الحقّ»(٢).

فبلاغة القرآن وبيانه، وأسلوبه ونظمه، ومعانيه وطرق عرضه كلّ ذلك من جملة الخصائص التي دار حولها الاعجاز، وحققّت غايات القرآن في التأثير والإمتاع، والهيمنة والإقناع، يقول الخطّابي (- ٣٨٨ هـ): «اعلم أنّ القرآن الكريم إنّما صار معجزاً لأنّه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، مضمناً أصحّ المعاني، من توحيد له عزّت قدرته، وتنزيه له في صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان بمنهاج عبادته من تحليل وتحريم، وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وزجر عن مساوئها، واضعاً كلّ شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يرى في صورة العقل أمر أليق منه»(٣).

وقد ذكر في السابق أن البلاغة القرآنية هي سرّ الاعجاز وهي أداة التوصيل والتأثير والإقناع، وهي التي أعطت للقرآن الكريم ميزة الحديث الحسن الذي عُدّ في أعلى مستويات فنون القول قال تعالى: ﴿ **اللّه نزّل أحسنَ الحديثِ كِتاباً مُتَشَابِهاً مَثاني تقشعرُّ**

(١) بن عيسى عبدالقادر بطاهر - أساليب الإقناع في القرآن الكريم - ص ١٥.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - ط دار الكتاب العربي: بيروت - ص ٢٠٦، ٢٠٨.

(٣) بيان إعجاز القرآن - ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - تحقيق محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلامه، ط ٢ دار المعارف: القاهرة، ١٩٨٦م - ص ٢٧، ٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مِنْهُ جلـودُ الَّذِيـنَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهـم وقُلُوبُهـم إلى ذِكْرِ الـلَّهِ ﴾(١).

ولمّا كان للبلاغة هذه الوظيفة وجب أن تكون معللّة للنّاس في كلّ عصر ومكان، ووجب أن تنصب حولها الأبحاث لدراسة الخصائص المتميّزة للأسلوب القرآني البليغ، وقد كان من جملة ما توصلت إليه هذه الأبحاث في العصر الحديث ما يلي(٢):

(أ) من خصائص أسلوب القرآن القصد في اللفظ، والوفاء بحقّ المعنى: فهذه ميزة لم تعرف لغير القرآن، لأنّ أبلغ البلغاء من الناس لا يستطيع أن يأتي بكلام لفظه قليل، ومعناه واف، وهو إن اتّفق له في الموضع الواحد والموضعين، فلا يتفق له في جملة الكلام شعراً أو نثراً.

خذ من القرآن مقداراً من الكلام، وقارنه بما يساويه من كلام البلغاء تجد عجباً، ثم انظر أي الكلامين تستطيع أن تتناوله بالتعديل أو التبديل دون أن تخلّ بمعناه، ولو نزعت منه - أي القرآن - لفظة ثم أوردت لسان العرب لتضع موضعها لفظة أحسن منها لم تجد.

(ب) ومن خصائص أسلوب القرآن خطاب العامة، وخطاب الخاصة:

وهاتان غايتان تقصر عنهما همم النّاس، فمن يخاطب منهم الأذكياء بالواضح المكشوف نزل بهم مستوى لا يرضونه، ومن خاطب العامة باللمحة والإشارة حملهم على ما لا يطيقون.

ولا تجد هذه الميزة إلاّ في القرآن الكريم، والنّاس جميعاً لا يستطيعون أن يحسنوا هذا الصنيع لما فيه من عسر ومشقّة، وضرورة معرفة طبائع البشر ونفوسهم.

(جـ) ومن خصائص أسلوب القرآن إقناع العقل وإمتاع العاطفة:

لا يمكن أن تجد بليغاً يفي في كلامه بحاجات النفس العقلية وحاجاتها الوجدانية، لأنّ

---

(١) سورة الزمر / الآية ٢٣.

(٢) ينظر النبأ العظيم - محمد عبدالله دراز - ص ١٠٣ - ١١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حاجة كل واحدة منهما غير حاجة الأخرى، أمّا في القرآن فإنّك تجد ذلك في أجمل صورة، وأوضح بيان.

(د) ومن خصائص أسلوب القرآن أيضاً البيان والإجمال :

وهذه أيضاً من الخصائص التي انفرد بها القرآن الكريم، لأنّ الناس إن عمدوا إلى تحديد أغراض لم تتسع لتأويل، وإذا أجملوها ذهبوا إلى الإبهام والإلباس، أو اللغو الذي لا يفيد، أما القرآن فإنّه يستثمر برفق أقل ما يمكن من الألفاظ في أكثر ما يمكن من المعاني، يستوي في ذلك مواضع إجماله التي يسميها النّاس مقام الإيجاز، ومواضع تفصيله التي يسمونها الإطناب(١).

هذه جملة من الخصائص العامة التي تميّز بها الأسلوب القرآني عن غيره من الأساليب البشرية، ويمكن لنا تدرج تحت هذه الخصائص العامة خصائص أخرى لها علاقة مباشرة بها مثل خاصية التنويع في عرض الأغراض والموضوعات والتي أشرنا إليها في هذه الدراسة، وسوف نتحدث عنها لما لها من صلة مباشرة بالمقابلة وطرق العرض.

إن التنويع في الأساليب ووسائل العرض ظاهرة بارزة في القرآن الكريم، وهو من خصائص القرآن التي تأتي لغايات بيانية تربوية، ونفسية إقناعية، وقد تميّز القرآن بهذا النمط من الأسلوب في جميع آياته وسوره لأنّ طريقة التعامل مع النّفس البشرية بجميع قواها لغايات الإقناع والإمتاع تقتضي التنويع في الأساليب التي لها قدرة على تحريك هذه القوى، لأن الضرب على أوتار النفس المتعددة من شأنه أن يخضع النفس، ويقهر تفوقها في الجدل، كما أن معالجة القلوب بمفاتيح شتّى لابد أن يستسلم القفل عند واحد منها(٢).

ويؤكد علماء النفس والاجتماع على أنّ الفوارق الفردية بين الأفراد في الجماعات الإنسانية أمر طبيعي، وتظهر هذه الفوارق في التفاوت بين الأفراد في المستويات الثقافية، والتباين في القدرات العقلية والاختلاف في الملكات الوجدانية، هذا على غرار ما بين الأفراد

---

(١) النبأ العظيم - محمد عبدالله دراز - ص ١١١.

(٢) محمد الغزالي - نظرات في القرآن - ص ١٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من اختلاف في الاستعداد والتكوين، وأداء العملية الإقناعية في جماعة ما وفق هذه المعطيات يستوجب تنويعاً في الأساليب، وتعبيراً في الوسائل حتى نلبّي حاجات الناس جميعاً[١].

فهذه هي طريقة القرآن الكريم في الخطاب، إنّها تعتمد على تنويع الأساليب، وتلوين الوسائل للسيطرة على النفوس المتباينة في طبائعها، المختلفة في تكوينها النفسي والثقافي، وبهذا حققت غاياتها من الإقناع والتأثير، لكن قد تشذ بعض النفوس عن إدراك حقائق القرآن والإقتناع بمبادئه لما ترسب فيها من آفة الجدل المذموم الذي يجعلها تتمسك بمواقفها وإن كانت باطلاً، وبشبهاتها وإن كانت كذباً[٢].

إنّ تعدد الأساليب البيانية، والتنويع في طرق العرض الفنية هما من الخصائص الأسلوبية في القرآن الكريم، كل ذلك لتحقيق حاجات النفوس جميعها، والوفاء بمتطلباتها، والملاحَظ كذلك أن القرآن يخاطب الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلم بالدعوة إلى الله، ويدعوه إلى تنويع وسائل دعوته حسب مقامات المخاطبين، قال تعالى: ﴿ **ادعُ إلى سبيل ربّك بالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وجَادِلْهُم بالّتي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾[٣].

لقد جمعت هذه الآية القصيرة في خطاب مركّز طرق مخاطبة الجماعات البشرية، وتلوين الوسائل حسب ثقافة كل جماعة واستعدادها الفكري والنفسي[٤].

لقد ناقشنا في فصل سابق قضية المعاني وطرق عرضها، وأيّها مقدم في البلاغة القرآنية، وأيّها كان له الفضل في تحقيق غايات القرآن الإقناعية عبر العصور التي مضت وحتى الآن، ووصلنا إلى نتيجة مفادها أن القرآن الكريم يوازن بين صحة المعنى ودقته، وبين طريقة عرضه المناسبة، وكان الفضل للإثنين معاً، لكن لابدّ من الإشارة إلى أنّ المعاني التي عرض لها القرآن لم تكن كلّها جديدة فقد كانت العرب تعرف بعضها، ومن هنا بقي الفضل

---

(١) بن عيسى عبدالقادر بطاهر - أساليب الإقناع في القرآن الكريم - ص ٢٠.

(٢) نفسه - ص ٢٢.

(٣) سورة النحل / الآية ١٢٥.

(٤) بن عيسى عبدالقادر بطاهر - أساليب الإقناع في القرآ ن الكريم - ص ٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأكبر لطريقة العرض التي يستخدمها القرآن في أداء المعنى، فهي التي أوصلت المعنى في صورة جميلة، وفي قوالب بيانية رائعة، وهي التي بها تميّز الأسلوب القرآني عن غيره من أساليب البشر.

وطرق العرض كثيرة ومتنوعة في القرآن الكريم، ولها علاقة بجميع عناصر البلاغة العربية، لكن المتأمل في القرآن يجد أن هناك طرقاً بارزة يعتمد عليها القرآن كثيراً لما لها من قدرة على مخاطبة جوانب النفس البشرية وتحريك قواها، ومن هذه الطرق نجد أسلوب التصوير وأسلوب التمثيل وأسلوب الجدل وأسلوب الاستفهام وأسلوب التكرار وأسلوب القصص، وغير ذلك من الأساليب البارزة فيه، ومن جملة هذه الطرق نجد أسلوب المقابلة الذي لم يعط حقه من الدراسة على الرغم من أنّه أسلوب بارز في القرآن بل إنّه يشكل ظاهرة أسلوبية متميّزة، فكثيراً ما يعتمد عليه القرآن في عرض قضاياه كما رأينا ذلك في الفصول السابقة.

فالمقابلة إذن هي إحدى طرق العرض القوية في القرآن، وليست جزءاً ضئيلاً من المحسنات المعنوية التي تدرس في نطاق ضيّق جداً هو علم البديع، بل الواجب بعد الآن عدّها من أساليب القرآن البليغة، وطرق عرضه الرائعة، والواجب أيضاً تصنيفها تصنيفاً آخر وإعطاؤها موقعاً جديداً ضمن علم المعاني، وضمن طرق العرض التي يختارها القرآن لعرض قضاياه المختلفة.

وهناك حقيقة لا يمكن أن نغفلها وهي أن المقابلة هي من جملة طرق العرض التي يلجأ إليها القرآن، وهي متكاملة متجانسة مع بقية الأساليب، لأداء الأغراض والقِيَم التي يريدها المنهج القرآني، لكنّها تعد من أبرز الطرق الواضحة في العرض، وفي الأداء البياني الذي يسعى إليه القرآن.

لقد تبيّن لنا في فصول سابقة أنّ القرآن الكريم يلجأ إلى طريقة المقابلة تحقيقاً لقِيَم فكرية ومعنوية كثيرة، فهو يعرض جميع القضايا الكبرى في هذا الوجود بأسلوب التقابل حين يجمع في الطريقة بين الشيء وضده، والمعنى ونقيضه، وحين تعرض الصورة الفنية ويقابلها من

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صورة أخرى تخالفها في الشكل والمضمون، ولابأس الآن أن نقف عند آية قرآنية ليتبين لنا صدق الدعوى التي نقول.

قال تعالى: ﴿ وما يَسْتَوِي الأعْمَى والبَصِيرُ ولاَ الظُّلُمَاتُ ولاَ النُّورُ ولاَ الظِلُّ ولاَ الحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الأحياءُ وَلاَ الأمواتُ إنّ اللّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاء ومَا أنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي القُبُور إنْ أنْتَ إلاّ نَذِير ﴾[١]:

في هذه الآيات عرض لمجموعة من الأشياء المتضادة بطريقة التقابل، وفيها بيان يثبت المفاضلة بين الشيء وضده للوصول إلى القيمة الدينية الكبرى وهي أن الحق والباطل لا يستويان أبداً. كما أنّ الأعمى والبصير لا يستويان هذا أعمى وذاك مبصر، والظلمات والنور لا يستويان كذلك هذه ظلمات وذاك نور، والظل والحرور لا يستويان أيضاً، هذا ظل بارد، وذاك سموم حار، والأحياء والأموات لا يستوون هؤلاء أحياء وأولئك أموات هامدون.

ومراد الآيات هو الإلفات إلى أنّ الأمور ليست على وجه واحد، وإنّما لكل أمر وجهان، وجه وضدٌ لهذا الوجه مثل الوجود والعدم، والحق والباطل، والإيمان والكفر، والنور والظلام، والظل والحر، والعذب والملح وهكذا.. والمطلوب من الخصم أن يعترف به هنا هو أن الشيء الذي يمسك به، ليس هو كل شيء، وإنّما يقابله نقيضه، الذي يجب أن ينظر فيه، ويقابل الوجه الذي معه، على الوجه الآخر الذي لهذا الشيء[٢].

«فإذا كان المشركون يُمسكون بالشرك، ولا يرون أن هناك معتقداً غيره، فليعلموا أنّ هناك وجهاً آخر لابد أن يقابل هذا الشرك، دون التفات إلى أيهما الفاضل وأيهما المفضول.. إن الأمور لا تكون إلاّ على هذا الازدواج الشيء وضده، وليس الشرك الذي بين أيديهم بدعاً من الأشياء.. فليبحثوا عن الوجه الآخر المقابل له.. فإذا فعلوا كانت المرحلة الثانية من مراحل النظر، وهي أن يوازنوا بين ما معهم من شرك، وبين الوجه الآخر المقابل له وهو الإيمان»[٣].

---

(١) سورة فاطر / الآية ١٩ - ٢٣.

(٢) عبدالكريم الخطيب - التفسير القرآني للقرآن - ج ٤ - ص ٨٧٣.

(٣) نفسه - ج ٤ - ص ٨٧٣، ٨٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

✓ إنّ القرآن الكريم من خلال طريقة المقابلة بين هذه المتضادات يدعو إلى تحريك قوى النفس لدى الإنسان، وبخاصة قوة العقل كي تقيم موازنة بين الأشياء المختلفة، وتعلم حقيقة الشيء وما يناقضه ثم تخرج بحكم نهائي وفق منهج النظر السليم، والمفاضلة الدقيقة، لتسير عليه في حياتها على بصيرة ونور.

✓ أمّا الإنسان الذي يعتمد على وجه واحد في تبني منهجه في الحياة دون معرفة تامة بالوجه الآخر الذي يقابله غالباً ما يقوده هذا إلى الخطأ والضلال، وقديماً قال عمر بن الخطاب: «من لم يعرف الشرّ جدير بأن يقع فيه»[١]، أي أن المعرفة بالشيء وما يقابله هي التي تعطي التصور الكامل عن الأشياء، وهي التي تجعل منهج الاختيار مبنياً على قواعد ثابتة ونظرات دقيقة. فمعرفة الحق وحده لا تكفي في أسس الاختيار والتبني دون معرفة الباطل في صوره المتعددة.

✓ ويظهر بوضوح وجلاء من خلال هذه الآيات أنّ المقابلة بين الأشياء في صورتها المتضادة هي أسلوب من أساليب العرض القرآنية وهي من الوسائل التي يلجأ إليها القرآن كثيراً في أداء المعاني، وإقامة الحجّة على النّاس، وتحريك قلوبهم وعقولهم لمعرفة الحق ومقتضياته وتمييزه عن الباطل وأشكاله.

ولا يتسع هذا المقام لعرض نماذج أخرى للدلالة على صدق ما نقول واكتفينا هنا بما عرضناه في فصول سابقة ضمن التطبيق العملي على سورة واحدة فقط هي سورة التوبة، وكانت نتائج الدراسة دليلاً قاطعاً على ما تبنيناه في هذا البحث من أنّ المقابلة هي إحدى طرق العرض البارزة في المنهج القرآني.

---

(١) عبدالكريم الخطيب - التفسير القرآني للقرآن - ج ٣ - ص ٨٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب - المقابلة وأسلوب التصوير :

إنّ أسلوب "التصوير" هو أحد طرق العرض في القرآن الكريم، وهو من الأدوات المفضلة، والقواعد الأساسية في التعبير عن مختلف القضايا. «فهو يعتبر الصورة المحسّة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني، والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسّمة مرئية، فأما الحوادث والمشاهد، والقصص والمناظر، فيردها شاخصة حاضرة، فيها الحياة وفيها الحركة، فإذا أضاف لها الحوار فقد استوت لها كلّ عناصر التخييل»[١].

وأسلوب التصوير يشكّل مع بقية الأساليب وسيلة بيان وايضاح، وأداة تأثير وإقناع، ويتكامله مع عناصر الكمال في خصائص التغيير الأخرى كطريقة الأداء، والدلالة المعنوية للألفاظ والعبارات، والإيقاع الموسيقي للكلمات والعبارات يحقق التأثير المطلوب، ويصل إلى الإقناع الكامل[٢].

وقيمة الأسلوب التصويري تبدو جلية حينما نعبّر عن معنى من المعاني بأسلوب تجريدي ثم نعرضه مرة أخرى في أسلوب تصويري «فإننا نجد أنّ المعنى في الطريقة الأولى يخاطب الذهن والوعي، ويصل إليهما مجرداً من ظلاله الجميلة، وفي الطريقة الثانية يخاطب الحس والوجدان ويصل إلى النفس من منافذ شتّى، من الحواس بالتخييل، ومن الوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء، ويكون الذهن منفذاً واحداً من منافذه الكثيرة إلى النفس لا منفذها الوحيد»[٣].

وأسلوب التصوير هو من الأساليب التي لها قدرة على تحريك الحس والشعور لدى الإنسان من خلال الجمال الفني الذي يضفيه على التعبير، وهو غرار ذلك من عناصر الكمال

---

(١) سيد قطب - التصوير الفني في القرآن - ص ٣٦.
(٢) بن عيسى عبدالقادر بطاهر - أساليب الإقناع في القرآن الكريم - ص ٣٩.
(٣) سيد قطب - التصوير الفني في القرآن - ص ٢٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في التعبير القرآني، وهو أحد أساليب الإقناع والإمتاع البارزة فيه وبخاصة حين يتعاضد مع طرق العرض الأخرى وأبرزها طريقة المقابلة، فنجده يحرص في مواضع كثيرة منه على عرض الصورة وما يناقضها فتكتمل بذلك عناصر التشويق والإثارة، ويؤدي التعبير أغراضه كاملة دون أي خلل أو نقص.

وعرض الصورة الفنية وما يقابلها أمر مقصود في التعبير القرآني لما فيه من قدرة على التأثير والإقناع، لأنّ عرض الصورة في اتجاه واحد، وفي غرض واحد، قد لا يكون له نفس الحظ من الكمال في التعبير مثلما تعرض الصورة ونقيضها في نفس السياق مما يتيح للقارىء والمتأمل فرصة الجمع بين الصورتين في سياق واحد، فيعرف جميع أجزاء الصورتين المتضادتين ويُسهّل عليه هذا عقد المفاضلة والمقارنة بينهما ليأتي الحكم والاختيار بعد المعرفة الكاملة بالصورة وما يقابلها.

وعرض الصور بطريقة التقابل أمر ملاحَظ في القرآن الكريم وبخاصة في قضايا البعث والنشور، ومشاهد القيامة، وسوف نعرض بعض الصور القرآنية المتقابلة للدلالة على تكامل الأسلوبين وتجانسهما في خدمة التعبير القرآني الجميل.

قال تعالى في سورة التوبة: ﴿ **أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَه عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَار بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّم واللَّه لا يَهْدِي القومَ الظَّالِمين** ﴾[1].

ففي هذه الآية الكريمة التي اختارت طريقة التصوير في عرضها لقضية الإيمان والنفاق يلاحَظ أنها رسمت صورتين متقابلتين، الصورة الأولى للإيمان الذي يشبه البناء المتماسك في أساسه القائم على التقوى وعلى العلاقة مع الله، والصورة الثانية مناقضة تماماً للصورة الأولى لأننا نشاهد فيها بناءً مهزوزاً وآيلاً للسقوط في أية لحظة لأنّه يفتقد إلى أساس قوي يحميه من السقوط في نار جهنّم، «فلنقف نتطلع لحظة إلى بناء التقوى الراسي الراسخ المطمئن.. ثم لنتطلع بعد إلى الجانب الآخر لنشهد الحركة السريعة العنيفة في بناء الضرار، إنّه قائم على

(١) سورة التوبة / الآية ١٠٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شفا جرف هار.. قائم على حافة جرف منهار، قائم على تربة مخلخلة مستعدة للانهيار، إننا نبصره اللحظة يتأرجح ويتزحلق وينزلق، إنّه ينهار إنّه ينزلق إنّه يهوي! إنّ الهوة تلتهمه! يا للهول! إنها نار جهنّم»(١).

✓ إن اجتماع الصورتين المتقابلتين في سياق واحد أعطى التعبير رونقاً وجمالاً، وأعطى المتلقي معرفة كاملة بحقائق الأشياء وصفاتها مما ساهم في تحقيق غاية القرآن الكبرى في الفصل بين الإيمان والكفر والتمييز بينهما.

وقال تعالى: ﴿ هَلْ أَتاكَ حديثُ الغَاشيةِ وجوهٌ يَوْمئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى ناراً حامِيةً تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيةٍ لَيْسَ لَهُم طعامٌ إلاّ من ضَرِيعٍ لا يُسْمِنُ ولاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ وجُوهٌ يَوْمَئذٍ ناعِمةٍ لسَعْيِهَا رَاضِيةٌ فِي جنَّةٍ عَالِية لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِية فيهَا عَيْنٌ جَارِيةٌ فيها سررٌ مرفوعةٌ وأكوابٌ موضوعةٌ ونمارقُ مَصْفُوفَةٌ وزرابيُ مَبْثُوثَة ﴾(٢).

فهذه الآيات تصور مشهدين من مشاهد القيامة، وهذان المشهدان متقابلان تقابل تضاد، إذ المشهد الأول يصور العَذاب الأخروي لأهل الشقاء، فترى هناك وجوهاً خاشعة ذليلة متعبة مرهقة، عملت ونصبت فلم تحمد العمل ولم ترض العاقبة، ولم تجد إلاّ الوبال والخسارة، فزادت مضضاً وإرهاقاً وتعباً، وهي تسقى من عين آنية حارة بالغة الحرارة وهي تتغذى بالطعام الذي لا تقوى الإبل على تذوقه، وهو شوك لا نفع فيه ولا غناء، أمّا المشهد الثاني فعلى النقيض تماماً من المشهد الأول ففيه وجوه ناعمة يبدو عليها النعيم، ويفيض منها الرضى، وجوه تنعم بما تجد، وتحمد بما عملت، فوجدت عقباه خيراً، وهي لا تسمع فيها لاغية بل تعيش في جو من السكون والهدوء والسلام والاطمئنان والود والرضى، وهي تنعم بالعين الجارية، والسرر المرفوعة، والنمارق المصفوفة، والزرابي المبثوثة(٣).

✓ وتعتمد هذه الآيات على عرض هاتين الصورتين بطريقة المقابلة التامة بين جميع الأجزاء

---

(١) سيد قطب - في ظلال القرآن - ج ٣ - ص ١٧١١.

(٢) سورة الغاشية / الآية ١ - ١٦.

(٣) سيد قطب - في ظلال القرآن - ج ٦ - ص ٣٨٩٦، ٣٨٩٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيهما، وهذه الطريقة في العرض من شأنها أن تبرز الحقائق الغيبية عن اليوم الآخر، والتي يصعب إدراكها إلاّ باستخدام الوسائل المناسبة في الإقناع والإمتاع.

وعرض مشاهد القيامة بأسلوب التصوير وطريقة المقابلة كثير في القرآن لما في ذلك من فوائد معنوية، وخصائص أسلوبية تعود أساساً إلى الأهمية الخاصة في الجمع بين الصورة وما يقابلها حتى تكتمل جميع المشاهد، وتجمع المعلومات الضرورية والكافية لإقامة المفاضلة وحسن الفهم والاختيار.

وقال تعالى أيضاً: ﴿ **بل كذّبوا بالسّاعَةِ وأعْتَدْنا لِمَنْ كَذّبَ بالسّاعَة سَعِيراً إذَا رَأتْهُم مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تغيُّظاً وزَفِيراً وإذَا ألْقُوا مِنْها مَكَاناً ضيقاً مُقَرنِين دَعَوا هُنَالِكَ ثبُوراً لا تَدْعُوا اليَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً قُلْ أذلك خيرٌ أم جنّةُ الخلدِ التِي وُعِدَ المتّقُونَ كانَت لَهُم جَزَاءً ومَصِيراً لَهُم فِيهَا مَا يَشَاؤُن خالِدِين كَانَ عَلَى ربّك وَعداً مسئولاً** ﴾[1].

تعرض هذه الآيات مشهدين من مشاهد يوم القيامة بأسلوب تصويري، وهذان المشهدان متقابلان تقابل تضاد لأنّ في المشهد الأول صورة حيّة للنار وأهلها، وفي المشهد الثاني صورة ناطقة للجنّة وأهلها.

لقد رسمت الصورة الأولى جهنّم وكأنّها كائن حي يعبّر عن غيضه وغضبه، «فنحن هنا أمام مشهد السعير المستعرة وقد ربّت فيها الحياة، فإذا هي تنظر فترى أولئك المكذبين بالساعة، تراهم من بعيد فإذا هي تتغيظ وتزفر فيسمعون زفيرها وتغيظها، وهي تتحرق عليهم، وتصعد الزفرات غيظاً منهم، وهي تتميّز من النقمة، وهم إليها في الطريق... مشهد رهيب يزلزل الأقدام والقلوب، ثم هاهم أولاء قد وصلوا، فلم يُتركوا لهذا الغول طلقاء، يصارعونها فتصرعهم ويتحامونها فتغلبهم، بل ألقوا إليها القاء، ألقوا مقرنين قد قرنت أيديهم إلي أرجلهم في السلاسل وألقوا في مكان ضيق، يزيدهم كربة وضيقاً، ويعجزهم عن التفلت والتململ.. ثم هاهم أولاء يائسون من الخلاص، مكروبون في السعير، فراحوا يدعون

(١) سورة الفرقان / الآية ١١ - ١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الهلاك أن ينقذهم من هذا البلاء[١].

أما الصورة الثانية فهي صورة الجنّة التي يغلب عليها طابع الهدوء والسلامة، وطابع الاطمئنان والرضى، لأنّها وصفت بجنّة الخلد وأهلها فيها خالدون لهم ما يشاءون من نعيم مقيم، ورضوان، على عكس الصورة الأولى تماماً.

ومن مشاهد القيامة التي يظهر فيها انسجام الأسلوب التصويري مع المقابلة قوله تعالى: ﴿ **وسِيقَ الذينَ كَفَرُوا إِلَى جَهنَّم زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُهَا فُتِحَت أَبْوَابُهَا وقَالَ لَهُم خَزَنَتُهَا ألم يأتِكُم رُسُلٌ مِنْكُم يَتْلُونَ عَلَيْكُم آياتِ ربِّكم ويُنْذِرونَكُم لِقَاءَ يَومِكُم هَذَا قَالُوا بَلَى ولَكِنْ حَقَّت كَلِمَةُ العَذَابِ عَلَى الكَافِرِين قِيل ادْخُلُوا أبوابَ جهنَّم خالِدِين فِيها فبِئس مَثْوَى المُتَكَبِّرين وَسِيق الذِين اتَّقَوا ربَّهم إِلَى الجنّة زُمَراً حتى إذا جاءُوها وفُتِحَت أبوابُها وقالَ لَهُم خَزَنَتُها سلامٌ عليكُم طِبْتُم فادْخُلُوهَا خَالِدِين وقَالُوا الحمدُ لِلّهِ الذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وأَوْرَثنا الأرضَ نَتَبوأُ مِنَ الجنّة حَيثُ نَشاءُ فنِعْمَ أجرُ العَامِلين وتَرَى الملائكة حَافِينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ يُسبِّحُون بِحَمْدِ رَبِّهِم وَقُضِي بَيْنَهم بالحقِّ وقِيل الحمدُ لله ربِّ العالمين** ﴾[٢].

تعرض هذه الآيات لمشهدين متقابلين من مشاهد يوم القيامة، في المشهد الأول صورة حيّة متحركة لجهنّم وأهلها الذين سيقوا إليها سوقاً عنيفاً، حتى إذا وصلوا إليها بعيداً هناك استقبلهم خزنتها بتسجيل استحقاقهم لها، وتذكيرهم بما جاء بهم إليها ﴿ **ألم يَأْتِكُم رُسُلٌ مِنْكُم يَتْلُونَ عَلَيْكُم آياتِ رَبِّهِم ويُنْذِرُونَكُم لِقَاءَ يَوْمِكُم هَذَا قَالُوا بَلَى ولَكِنْ حَقَّتْ كلمةُ العَذَابِ عَلَى الكَافِرِين** ﴾.

أما المشهد الثاني فهو صورة أخرى مناقضة للصورة الأولى، إنّها صورة الجنّة وأهلها الذين توجّهوا إليها حتى إذا وصلوا هناك استقبلهم خزنتها بالسلام والثناء ﴿ **سَلامٌ عَلَيكُم طبتم فادخلوها خالدين** ﴾، وهيمنت أصوات أهل الجنّة بالحمد والدعاء[٣].

(١) سيد قطب – في ظلال القرآن – ج ٥ – ٢٥٥٤، ٢٥٥٥.
(٢) سورة الزمر / الآية ٧١ – ٧٥.
(٣) سيد قطب – مشاهد القيامة في القرآن – ص ١٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنّ قيمة التصوير في عرض الحقائق لا تقف عند حدّ التعبير عن المعاني المجردة، وتقريبها إلى النفوس في قوالب فنية حسية نابضة بالحركة والحياة والحوار فحسب، بل بما يضفيه التصوير من جمال فني على التعبير يناسب غرائز النفوس، ويفي بحاجاتها إلى الإقناع العقلي والتأثير الوجداني(١).

وإن الذي يزيد التعبير قوة في العرض، وجمالاً في الأداء هو اجتماع المقابلة مع التصوير - كما هو الحال في هذه الآيات التي عرضناها - فحينئذ تجتمع الصورة وما يقابلها، والمشهد وما يناقضه فتكتمل جميع الأجزاء في الصورة، وهذا يتيح للمتلقي مجالاً واسعاً للنظر والاستدلال، ويعطيه قدرة على التمييز بين الأشياء في صورها المتقابلة.

وطرق العرض التي يختارها القرآن هي التي ميّزت الأسلوب القرآني عن بقية فنون القول البشرية، وجعلت منه نموذجاً فريداً للبلاغة في أعلى مستوياتها.

---

(١) بن عيسى عبدالقادر بطاهر - أساليب الاقناع في القرآن الكريم - ص ١٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(جـ) المقابلة طريقة في الإقناع :

الإقناع هو حمل النفوس على فعل شيء أو اعتقاده أو التخلي عن فعله واعتقاده[١]، وهو بالمعنى الواسع أن «يحمل الكلام إنساناً ما أو جماعة على اعتقاد رأي للعمل به. أو التخلي عن إعتقاده، وشرطه ألاّ تستعمل فيه طرق الإكراه والقسر، أما حين تستعمل هذه الطرق- كالتعذيب مثلاً- لاذعان النفس على الإيمان بعقيدة أو التخلي عنها- كما يحدث في بعض الديانات الباطلة والمحرّفة- فليس هذا إقناعاً ما دام أنه حدث بغير رضا النفس، ومن هنا فالإقناع هو رضا النفس بكامل جوانبها بالشيء المعتقد بعيداً عن أي عامل خارجي»[٢].

والمقصود بالإقناع القرآني أنّه العملية التي بها يؤثر الخطاب الإلهي في النفس البشرية على اختلاف مشاربها، وتفاوت طبائعها وتعاقب أجيالها، ويحملها على الرضا والعمل بأصول الدين وتعاليمه .

وعملية الإقناع ليست بالعملية السهلة لأنها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بقوى النفس البشرية، وارضاء هذه القوى يحتاج أولاً إلى معرفة كاملة بالنفس وطبائعها ومشكلاتها، وثانياً إلى معرفة بالوسائل المناسبة والأساليب المؤثرة لإرضاء النفس من كامل جوانبها، وتحقيق الإقناع المطلوب الذي سيتبعه بالضرورة العمل بمقتضى الشيء المقتنع به .

وبما أن عملية الإقناع تتجه إلى إرضاء قوى النفس البشرية جميعها فإنه لا يمكن أن نفصل في هذه العملية بين العقل والعاطفة، لأن إرضاء أحدهما لا يعني بالضرورة رضا الآخر، فقد يميل العقل إلى حجة أو برهان، في حين تجد العاطفة مضطربة وغير مطمئنة لذلك الموقف.

ومثال هذا التكامل بين العقل والعاطفة في عملية الإقناع ذلك الإنسان الذي يُطلب منه أن ينام في بيت فيه ميت، فتجد أن قوة الإرادة عنده ترفض النوم على الرغم من أنّ عقله

---

(١) حازم القرطاجنّي - منهاج البلغاء وسراج الأدباء - ص ٢٠.

(٢) بن عيسى عبدالقادر بطاهر - أساليب الإقناع في القرآن الكريم - ص ١٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يدرك تماماً أن هذا الميت لا يضره بشيء، فقوة العاطفة التي سجلت إحساسها بالخوف هي التي لم تحصل علي نصيبها من الإقناع، ومن هنا كانت العملية ناقصة في إحدى جوانبها الضرورية، وكذلك الحال بالنسبة للإنسان الذي قد يتصرف تصرفاً خاطئاً في غياب قوته العقلية كأن يضرب أو يقتل إنساناً ما، وفي مثل هذه الحالة تجد أن القوة العاملة هي العاطفة التي سجلت إحساسها بالغضب أو الألم في حين عُطلت قوة العقل [١].

وكذلك الحال في الإنسان المدخن الذي تجده مقتنعاً بعقله على ضرر التدخين، ومع ذلك لا يستطيع تركه والإقلاع عنه لسيطرة قوى العاطفة عليه بتسجيلها الإحساس باللذة أو الشهوة، وهي لم تشبع الإشباع الكافي، ولهذا كانت عملية الإقناع ناقصة في جانب من جوانبها الهامة .

إن الغاية التي جاء من أجلها القرآن الكريم هي بيان وترسيخ الأسس الرئيسية التي يقوم عليها بناء العقيدة الصحيحة، وأقرب الطرق للوصول إلى هذه الغاية هي الوفاء بحاجات النفس الإنسانية، وإشباع قواها العقلية والوجدانية، ليكون الإقناع ثمرة متبعثة من العقل والعاطفة معا[٢].

وعن الإقناع القرآني والتلازم فيه بين العقل والعاطفة في خطاب النفس البشرية يقول محمد عبدالله دراز :«أمّا ما يبدو فوق طاقة البشر حقاً في الأسلوب القرآني، فهو أنه لا يخضع للقوانين النفسية التي بمقتضاها ترى العقل والعاطفة لا يعملان إلاّ بالتبادل، وبنسب عكسية بحيث يؤدي ظهور إحدى القوتين إلى اختفاء الأخرى، ففي القرآن لا ترى إلاّ تعاوناً دائماً في جميع الموضوعات التي يتناولها بين هاتين المتنافرتين»[٣].

فالطرق والمناهج التي اتبعها القرآن في العرض والاستدلال والتقرير هي التي كان لها الفضل في الوصول إلى غايته من التأثير والإقناع فإذا كان القرآن- بعيداً عن أي عامل خارجي- قد أثر بصفة دائمة على عقول جدّ مختلفة فلا بُدّ أن يكون ذلك راجعاً إلى ما فيه من

(١) بن عيسى عبدالقادر بطاهر - أساليب الإقناع في القرآن - ص ٥.
(٢) محمد حسن آل ياسين - في رحاب القرآن - ط ١ دار المعارف: بغداد، ١٣٨٨ هـ - ص ٦١.
(٣) مدخل إلى القرآن الكريم - ص ١١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جاذبيه خاصة بتوافقه الكامل مع أسلوب الناس الفطري في التفكير والشعور وباستجابته لماتتطلع إليه نفوسهم في شؤون العقيدة والسلوك، وبوصفه الحلول الناجعه للمشكلات الكبري التي تقلق بالهم وبمعنى آخر لا بدّ أنّه ينطوي على ما يشبع حاجتهم إلى الحقّ والخير والجمال بما يجمع من صفات العمل الديني والأخلاقي والأدبي في آن واحد(١).

فطريقة القرآن في الخطاب- كما ذكرنا ذلك مراراً- تعتمد على تنويع الأساليب، وتلوين الوسائل للسيطرة على النفوس المتباينة في طبائعها، المختلفة في تكوينها النفسي والثقافي والإجتماعي، ومن بين هذه الأساليب التي يفضلها القرآن أسلوب المقابلة لما له من قدرة على تحريك النفوس، ولكونه من أساليب العرض المتميزة في المنهج القرآني.

✓ يقول محمد أبو زهرة :« إنّ المقابلة بين شيئين أو أمرين أو شخصين تكون ليعرف أيهما المؤثر في عمل معين، وإذا ثبت أنّ التأثير لواحد منهما كان له فضل التقدم على غيره، وقد كان ذلك النوع من ينابيع الاستدلال كثيراً في القرآن الكريم، لأنّ المشركين كانوا يعبدون أحجاراً يصنعونها أو مخلوقات لله تعالى خلقها، وكانوا يعتقدون أنّ لها تأثيراً في الإيجاد،أو في الشرّ يمنع، أو الخير يجلب، فكانت المقابلة بين الذات العلية وبين ما ابتدعوا من عبادة الأوثان ينبوعاً للإستدلال على بطلان ما زعموا، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **أَفَمَنْ يَخلقُ كَمَنْ لا يَخْلُق أفَلا تَذَكَّرُون وإِنْ تَعُدُّوا نعمةَ اللهِ لا تُحْصُوها إنّ الله لَغَفُورٌ رحيم** ﴾ (٢).

هذا النص الكريم فيه مقابلة بين المعبود بحق، وهو الله سبحانه وتعالى خالق السموات وبين ما ابتدعوا من أصنام ومعبودات ... فالقرآن من هذه المقابلة يأتي بدليل يلزمهم ويفحمهم أو يقنعهم إن استقامت القلوب، وإن الدليل بالتقابل يصح أن يكون عندما ادعيت الألوهية للخالق جلّت قدرته مع المخلوق المصنوع بأيدي العباد. وبالمقابلة بينهما نجد الخالق يحتاج إليه كل ما في الوجود، والمصنوع بأيدي العباد لا ينفع ولا يضر. فالله وحده هو الإله الحق الذي لا يُعبد سواه»(٣).

---

(١) مدخل إلى القرآن الكريم – ص ٧٠.
(٢) سورة النحل / الآية ١٧، ١٨.
(٣) المعجزة الكبرى القرآن – ص ٣٥٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالمقابلة هي من طرق الاستدلال والبرهنة في قضايا العقيدة الثلاث وهي الوحدانية والرسالة واليوم الاخر ، وفي غيرها من القضايا ، فكثيراً ما تأتي في سياق البرهنة على الحقائق الكبرى التي تشغل بال الإنسان رغبه في إقناعه والوصول به إلى غايات الدعوة والتربية.

وسنذكر بعض النماذج القرآنية التي تبين هذه الحقيقة، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ **قُلْ مَنْ رَبُّ السَمَواتِ والأرضِ قُل اللّهُ قُل أفاتَّخذتُم مِنْ دُونِهِ أولياءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأنفُسِهم نفعاً ولا ضَراً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأعْمَى والبَصِير أمْ هَلْ تَسْتَوِي الظلماتُ والنُور أم جعلُوا لِلهِ شُركاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فتشَابهَ الخلقُ عَلَيْهِم قُل اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شيءٍ وَهُو الوَاحِدُ القَهَارُ** ﴾[1].

فهذا الإستدلال قائم على المقابلة، فكانت المقابلة بين من لا يملك لنفسه نفعاً وضراً وهو ما اتخذه البشر إلهاً من دون الله، وبين الله القهار القادر على كلّ شيء، وهو الواحد الأحد الذي لا يشبهه شيء، وكأن المقابلة بين الأعمى والبصير، ويشمل الأعمى من لا يدرك الحقائق والبصير من يدركها ، وبين الظلمة التي تعتم النفس، والنور الذي يشرق به القلب، ومن يخلق ومن لا يخلق، وهذه المقابلات ينابيع الإدراك الموجه ... وإنها تصلح دليلاً مثبتاً في عدة دعاوى، ويكون في المقابلات الحكم الفصل الهادي المرشد. »[2].

فبواسطة هذه المقابلات يستطيع المتلقي أن يستدل على الحقائق، ويعرف الحقّ من الباطل، ويدرك طبيعة الأشياء المتناقضة، وعرض الشيء وما يقابله له كبير الأثر في التمييز بين الأشياء، ومعرفة الصواب من الخطأ، والحسن من القبيح، كما أنّ المقابلة تفتح أمام العقل البشري آفاقاً واسعة للتفكير في طبائع الأشياء المتناقضة، وتعطيه مجالاً رحباً للموازنة الهادئة المبنية على الأدلة والبراهين، وتأتي بعد هذه الخطوات فرص الإقناع بما هو حقّ، ودحض ما هو باطل .

وقال تعالى في الإستدلال على صدق الرسالة : ﴿ **وقال الذين كَفَرُوا إنْ هَذَا إلاّ**

(١) سورة الرعد / الآية ١٦.

(٢) محمد أبوزهرة - المعجزة الكبرى القرآن - ص ٣٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾(١).

في هذه الآيات مقابلة بين الشبهات التي ساقها الكفار في إبطال المصدر الرباني للرسالة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم، وبين الأدلة البديهية التي ساقها القرآن في الرد عليهم، وفي الإستدلال على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلى ربانية المصدر القرآني .

لقد قال الكفار عن القرآن الكريم إنه كذب وإفك، وإنه أساطير قديمة افتراها مدعي النبوة ثم نسبها إلى الله، وإنه تلقى الإعانة ممن لهم علم بالكتب السماوية السابقة، ويسوق القرآن جوابه بإيجاز بليغ، دون أن يجادل أو يناقش بعنف، إنّ أقاويلهم هذه كلها ظلم وزور، وإن القرآن الكريم يمليه على محمد صلى الله عليه وسلم الذي يعلم الأسرار جميعاً **﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾**.

يقول الفخر الرازي (- ٦٠٦ هـ): «إنّ هذا القدر يَكفِي جواباً عَنِ الشبهة المذكورة، لأنّه قد علم كلّ عاقل أنّه عليه السلام تحداهم بالقرآن، وهم النهاية في الفصاحة، وقد بلغوا في الحرص على إبطال أمره كلّ غاية... ولو استعان محمد - عليه السلام - في ذلك بغيره لأمكنهم أيضاً أن يستعينوا بغيرهم»(٢)..

فالمقابلة في هذه الآيات أتت في سياق الجدل القرآني حول مصدرية القرآن، وقد ساهمت في عملية الإقناع التي يسعى إليها القرآن بالرد على المنكرين، وبسط الأدلة المناسبة أمامهم، فقوله تعالى: **﴿ فَقَدْ جَاؤُا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾** وقوله **﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رحيمًا ﴾** دليلان واضحان من غير تعقيد كلامي أو جدل عقلي، وهما أقرب إلى البداهة منها إلى العقل، لأنّ الخطاب موّجه إلى كلّ منافذ النفس كي تأخذ نصيبها من الإقناع والتأثير، فللعقل نصيبه مادام أنّ الكفار أنفسهم يعرفون الله بصفاته، ويعرفون محمداً صلّى الله عليه وسلم بخصاله، ويعرفون القرآن بسحره وإعجازه، ومن

---

(١) سورة الفرقان / الآية ٤ - ٦.

(٢) تفسير الفخر الرازي - ج ٢٤ - ص ٥٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هنا ناسب خطاب العقل بأن يُردَّ الظلم العقائدي على أهله، وأن يقرر تنزيل القرآن الكريم من الله العليم، أما جانب خطاب الوجدان فيتجلى في جمال التعبير الذي يحرك العواطف ويستميل القلوب(١).

وتأتي المقابلة أيضاً في سياق البرهنة على اليوم الآخر، رغبة من القرآن في إقناع المنكرين، وإفحام الجاحدين بفكرة البعث والجزاء، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿**أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ القِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُم إِنَّه بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِير**﴾(٢).

يلاحَظ في هذه الآية أنّها تعتمد على أسلوبين واضحين في الإقناع بحتمية اليوم الآخر، فأول الأسلوبين الاستفهام التقريري الذي يُعد من أقوى الأساليب في الإقناع بما له من قدرة على تحريك قوى النفس وإلزامها بالحجّة، والأسلوب الثاني هو أسلوب المقابلة بين الجنّة وأهلها، والنار وأهلها، ومصير كل فريق يوم القيامة فقوله: ﴿ **أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ القِيَامَةِ** ﴾ «هو تعريض بهم، وبما ينتظرهم من الإلقاء في النار والخوف والفزع، بالمقابلة إلى مجيء المؤمنين آمنين»(٣).

وفي الآية محسن الاحتباك، إذ حذف مقابل ﴿**مَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ**﴾ وهو من يدخل الجنة، وحذف مقابل ﴿ **مَنْ يَأْتِي آمِناً** ﴾، وهو من يأتي خائفاً وهم أهل النّار(٤).

وأسلوب العرض بالتقابل في هذه الآية يساهم مساهمة فعّالة في عملية الإقناع، إذ يعطي للنفس البشرية مجالاً للتفكير في الشيئين المتقابلين، ليأتيّ بعد ذلك الحكم على أيهّما أحق بالاتباع، وعلى أيهما أولى بالاختيار.

فبعد عرض هذه النماذج القرآنية القليلة يمكن أن نستنتج أنّ المقابلة هي إحدى وسائل الإقناع في القرآن، وهي تؤدي وظيفة كبيرة في تحريك قوى النفس بما تمنحه للمعاني من قوة وحسن، وللتعبير من تناسق وجمال.

---

(١) بن عيسى عبدالقادر بطاهر - أساليب الإقناع في القرآن الكريم - ص ١٠٧.

(٢) سورة فصلت / الآية ٤٠.

(٣) سيد قطب - في ظلال القرآن - ج ٥ - ص ٣١٢٦.

(٤) محمد الطاهر بن عاشور - تفسير التحرير والتنوير - ج ٢٤ - ص ٣٠٤، ٣٠٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

د - المقابلة وغاياتها الفنية :

تؤدي المقابلة دوراً كبيراً في الأسلوب القرآني، فهي من الأساليب القادرة على مخاطبة قوى النفس جميعها، وذلك بتحريك قوة العقل، وتنشيط قوة الشعور، وتفعيل غريزة حبّ الاستطلاع، وذلك لتلبية حاجات النفس المتطلعة دائماً إلى المتعة الوجدانية، والنكتة العقلية، والراغبة في الأسلوب الجميل، والمعنى العميق.

والمقابلة بانسجامها مع بقية الأساليب - وبخاصة أسلوب التصوير - تضفي جمالاً فنياً خاصاً على التعبير، ومنشأ هذا الجمال وجود الصور المتقابلة، والألوان المتباينة، والنماذج البشرية المختلفة، والحقائق الدينية المتناقضة، وغير ذلك من الأشياء المتضادة في طبائعها وأشكالها.

ولا يتأتى هذا الجمال الفني في التعبير القرآني من مجرد الجمع بين الأشياء المتقابلة، فذلك أمر ميسور في أساليب البشر، بل إنّه يتأتى من انسجام كامل بين الصورة وما يقابلها، وتناسق جميع الأجزاء بعضها مع بعض، حتى إذا حاولت أن تعرض جانباً واحداً من الصورة فقد الجانب الآخر رونقه وحسنه، وهذا الجمال الفني الذي تفيده المقابلة عبّر عنه أحد الشعراء قديماً فقال:

الوجهُ مثلُ الصُبْحِ مُبيضُ   والشَعْر مثلُ اللَّيْل مُسْوَدُ
ضدان لما استجمعا حَسُنَا   والضدُ يُظهِرُ حُسْنَه الضِدُ

فالضد يظهر حسنه الضد، وبضدها تتميّز الأشياء، هذا في مستويات العرض البسيطة المألوفة لدى البشر، أما حين يكون العرض في قمة الكمال المعنوي والأدبي كما هو الحال في القرآن الكريم، فذلك هو عين الجمال الفني الذي يعجز عنه البشر في كلامهم.

وهذا الجمال الذي أبدعه الله في الكون ومشاهده، والذي يدركه ويتذوقه أي إنسان سليم في طبعه، متأتاه الجمع بين الأشياء ونظائرها، والحقائق وأضدادها ولذلك قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1].

---

(١) سورة الذاريات / الآية ٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالذي يعطي للنهار جمالاً وأهمية وجود الليل، والذي يعطي للحياة قيمة وطعماً وجود الموت، والذي يعطي للإيمان قيمة وجمالاً وجود الكفر وهكذا في جميع الأشياء المحسوسة وغير المحسوسة.

فالجمال سمة ظاهرة في القرآن الصامت وهو الكون، وسمة بارزة في القرآن الناطق، وقد كان للمقابلة وغيرها من الأساليب فضل المساهمة في إضفاء صفة الجمال على الأسلوب القرآني، وإذا أخذنا مثالاً من القرآن فنجد فيه صدق ما نقول، فمن ذلك مثلاً قوله تعالى: **﴿يوم تبيَضُّ وجوهٌ وتسودُّ وجوهٌ فأمَّا الذينَ اسودَّت وُجُوههم أكَفرتم بَعْدَ إيمَانِكم فذُوقُوا العذابَ بما كُنْتُم تَكْفُرون، وأمَّا الذين ابْيَضَت وُجُوههم ففِي رَحْمَة الله هُمْ فِيهَا خالدون﴾**[1].

إنّ مصدر الجمال الفني في هذه الآيات هو في الجمع بين مشهدين متقابلين من مشاهد يوم القيامة، «فنحن في مشهد هول، هول لا يتمثل في ألفاظ ولا في أوصاف، ولكن يتمثل في آدميين أحياء، في وجوه وسمات، هذه وجوه قد أشرقت بالنور، وفاضت بالبشر، فابيضت من البشر والبشاشة، وهذه وجوه كمدت من الحزن، واغبرت من الغمّ، واسودّت من الكآبة»[2].

ولو عرضنا مشهداً منفرداً من هذين المشهدين لما كان له هذا الرونق والحسن، ولما كان له هذا الشدُّ والجذب الذي أفاده جمال التعبير، ودقة التصوير.

ومن الغايات الفنية التي تسعى إليها المقابلة في القرآن الكريم توفير التناسق الفني بين أجزاء التعبير، والتناسق هو نوع من الانسجام التام، والارتباط الوثيق بين الألفاظ والعبارات والصور، بحيث يبدو التعبير مثل الصورة المكتملة في أجزائها، المتناسقة في ألوانها، وكالشيء الجميل التي تترابط جميع عناصره لتكون في النهاية منظراً رائعاً مؤثراً تتملاه العيون، وتتجاذبه النفوس.

---

(١) سورة آل عمران / الآية ١٠٦، ١٠٧.

(٢) سيد قطب - في ظلال القرآن - ج ١ - ص ٤٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتعبير القرآني يعتمد على الألفاظ وحدها في أداء المعاني، ورسم الصور، وقد بلغ الذروة من الكمال في توفير التناسق الكامل بين جميع الأجزاء المعروضة، وهذا سرٌ من أسرار الإعجاز فيه لا مثيل له في كلام البشر.

ويلاحَظ أنّه يكثر من استخدام المقابلة في تنسيق صوره التي يرسمها بالألفاظ على نحو دقيق[١]، وهذا الاستخدام هو الذي منح التعبير قوة في الأداء، وجمالاً في التصوير، وبراعة في النظم، فالمقابلة من الأساليب القليلة التي بإمكانها توفير التناسق الفني في التعبير، فلا عجب أن يكثر القرآن من استخدامها.

والتناسق الفني بطريق التقابل له شكلان أولهما: «التقابل بين صورتين إحداهما حاضرة الآن، والأخرى ماضية في الزمان، حيث يعمل الخيال في استحضار هذه الصورة الأخيرة ليقابلها بالصورة المنظورة، من ذلك قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مبين ﴾[٢].

فالصورة الحاضرة هنا هي صورة الإنسان "الخصم المبين" والصورة الماضية هي صورة النطفة الحقيرة، وبين الصورتين مسافة بعيدة يراد إبرازها لبيان هذه المفارقة في تصرف الإنسان، ولهذا جعل الصورتين متقابلتين، وأغفل المراحل بينهما، لتؤدي المفارقة الواضحة هذا الغرض الخاص»[٣].

ومثال آخر لهذا التناسق في قوله تعالى: ﴿وأَصْحَابُ الشِمَالِ ما أَصْحَابُ الشِمَالِ في سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ لاَ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ إِنَّهم كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾[٤].

"فالسموم والحميم" والظل الذي ليس له من الظل إلاّ اسمه، لأنّه من "يحموم" "لا بارد ولا كريم"، صورة هذا الشطف تقابل صورة الترف: "إنهم كانوا قبل ذلك مترفين"، وهؤلاء

(١) سيد قطب - التصوير الفني في القرآن - ص ٩٦.
(٢) سورة النحل / الآية ٤.
(٣) سيد قطب - التصوير الفني في القرآن - ص ٩٨، ٩٩.
(٤) سورة الواقعة / الآية ٤١ - ٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المتحدث عنهم يعيشون في الدنيا الحاضرة، وصورة الترف في هذه الصورة القريبة أمّا ما ينتظرهم من السموم والحميم والشظف فهو الصورة البعيدة، ولكن التصوير هنا لفرط حيويته يخيّل للقارىء أنّ الدنيا قد طويت؛ وأنّهم الآن هناك، وأن صورة الترف قد طويت كذلك، وصورة الشظف قد عرضت، وأنّهم الآن يذكّرون في وسط السموم والحميم، بأنهم "كانوا قبل ذلك مترفين" وذلك من عجائب التخييل. ولكنّه النسق المتّبع غالباً في القرآن، والذي يلبّي طلبة الفن والدين في آن: يلبي طلبة الفن في قوة الإحياء، حتى لينسى المُشاهد أنّ هذا مثل يضرب، ويحس أنّه حاضر يشهد، ويلبي طلبة الدين، لأنّ الإحساس بالمغيّب حاضراً مما يلمس الوجدان، ويهيء لدعوة الإيمان»[١].

فالتناسق الفني الذي نلمحه في هذه الآيات مبعثه طريقة المقابلة بين الصورة البعيدة وما يقابلها من صورة قريبة، مما أعطى لأجزاء الصورتين انسجاماً رائعاً لا خلل ولا اضطراب فيه.

أما الشكل الثاني للتناسق الفني بطريق التقابل فهو: المقابلة بين صورتين حاضرتين، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ **أفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَان فَاسِقاً لا يَسْتَوُون أمّا الذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَالِحَات فَلَهُم جَنّاتُ المَأوَى نُزلاً بِما كَانُوا يَعْمَلُون وأمّا الذين فَسَقُوا فمأواهُم النّار كُلّما أرَادُوا أنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أعِيدُوا فِيها وقِيلَ لَهُم ذُوقُوا عَذَاب النّارِ الذِي كُنْتُم بِهِ تُكَذِبُونَ** ﴾[٢].

فهذا السياق يعتمد على المقابلة في تفريق بين حقيقتين، وتمييز إحداهما عن الأخرى ﴿**أفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَان فَاسِقاً لا يَسْتَوُون**﴾ لأن حقيقة الإيمان تختلف اختلافاً جوهرياً عن حقيقة الكفر، وهذا الذي يريد السياق أن يقرره، ثم بنى على هذه التمايز بين الكفر والإيمان العذاب الحسي الذي ينتظر الكافرين، والنعيم المادي الذي ينتظر المؤمنين، ورسم لذلك صورتين كأنهما حاضرتين.

فهنا تقابل في جو العذاب وجوّ النعيم، وفي كل جزئية من الجزئيات هنا وهناك، ومثل هذا كثير في القرآن الكريم.

---

(١) سيد قطب – التصوير الفني في القرآن – ص ١٠٠.

(٢) سورة السجدة / الآية ١٨ – ٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمة :

وبعد : فهذه خلاصة مجملة لأهم النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث :

(أ) المقابلة محسن بديعي في مذاهب القدماء، وتدخل في المحسنات المعنوية للكلام، وقد تناولها دارسو الإعجاز في بدائع القرآن، غير أنّ المتأمل في دلالاتها واستخداماتها الكثيرة يرى أن لها أغراضاً أبعد من ذلك، فهي فن بلاغي، وطريقة في أداء المعنى لها آثارها وقيَمها البعيدة، كما أنّها تساهم في إبراز المعنى بما فيها من ثنائية وتضاد، هذا من حيث الدلالة أمّا من حيث الاستخدام فقد لوحظ أنّ الأدب العربي بشِعره ونثره قد تميّز بها، وبخاصة الشعر الجاهلي، أمّا وجودها في القرآن فيكاد يشكل ظاهرة واسعة جداً، وقد لا نحتاج أبداً إلى الإحصاء كي نثبت ذلك، بل إن مجرّد قراءة عادية في النصوص القرآنية تجعلنا نقف أمام أسلوب في العرض فريد، وطريقة في الأداء رائعة.

(ب) إن قضية "الوحدانية والتعدد" هي من القضايا التي تنوّع عرضها في القرآن بأساليب كثيرة، وطرق متنوعة تحقيقاً لغايات التربية والإقناع، وقد كان هذا "التنويع" أمراً مقصوداً في طرق الأداء، فهو تنويع يشبه التنويع الذي نستطعمه لمذاق السكر في الفواكه المختلفة، والمقابلة هي إحدى طرق العرض المتميّزة بين هذه الطرق، فقد جاءت لغاية الفصل بين المعبود بحقّ، وبين الآلهة التي اتخذها البشر أنداداً وشركاء له.

(جـ) وإنّ الوجود الإنساني كلّه مبني على التقابل بين الأشياء بدليل البداهة، وبدليل القرآن الكريم، فما من شيء إلاّ وله ما يقابله وينافيه في أوصافه إذا كانا تحت جنس واحد، والعقل البشري مجبول في أصل خلقته على أن يقابل بين المتضادات، فهو ينزع دائماً إلى المزاوجة بين الأشياء التي تعرض له، وتدور في محيط تفكيره، وقد أقام الله هذا التقابل لمصلحة يراها هو تحقيقاً لضرورة سير الحياة.

(د) سورة "التوبة" من السور القرآنية القائمة على قضية مركزية هي الصراع بين الحق والباطل، والتمييز بينهما، وهي من السور التي تُنوّع في طرق أدائها، وقد كان حظ "المقابلة" من ذلك كبيراً، إذ حوت مجموعة من المقابلات الكبرى التي ركزنا عليها في هذا البحث.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(هـ) اقتضى منهج البحث أن يكون التركيز على المقابلات الكبرى في القرآن الكريم، وفي سورة "التوبة" خاصة، وقد خلص البحث إلى أن المقابلة طريقة رائعة في العرض، وقد حقق هذا العرض قِيَماً فكرية ودينية وأخلاقية وسياسية واقتصادية كثيرة، وكانت غاية المقابلة في الجمع بين المتضادات هي عرض الصور كاملة غير ناقصة في جانب من جوانبها لتعرف النفس البشرية حقائق الأشياء، سواء أكانت خيراً أو شراً، ضرراً أو منفعة، ثم لتعرف كيف تختار بين هذا وذاك.

(و) إن المقابلة هي إحدى طرق العرض القوية في القرآن، وليست محسناً معنوياً بسيطاً يدرس في حيّز ضيق هو علم البديع، فالواجب بعد الآن عدّها من أساليب القرآن البليغة، وطرق عرضه الرائعة، والواجب كذلك تصنيفها تصنيفاً آخر، وإعطاؤها موقعاً جديداً في علم البلاغة.

(ز) والمقابلة تتكامل مع أسلوب التصوير حيث أن عرض الصورة وما يقابلها أمر مقصود في التعبير القرآني لما فيه من قدرة على التأثير والإقناع، ولأنّ عرض الصورة في اتجاه واحد، قد لا يكون له نفس الحظ من الكمال في التعبير مثلما تعرض الصورة وما يقابلها في السياق نفسه، وهذا يسهل عملية عقد المقارنة والمفاضلة بينهما ليأتي الحكم النهائي مناسباً للمعرفة التامة.

(ك) والمقابلة هي إحدى طرق القرآن في الإقناع، وقد اعتمد عليها القرآن في الاستدلال والبرهنة في قضايا العقيدة الثلاث وهي الوحدانية والرسالة واليوم الآخر، لأنّها من الأساليب التي لها قدرة على تحريك النفوس بما تمنحُهُ للمعاني من قوة وحسن، وللتعبير من تناسق وجمال.

(م) وإنّ المقابلة بانسجامها مع بقية الأساليب، وبخاصة أسلوب التصوير. تضفي جمالاً فنياً خاصاً على التعبير، وتناسقاً فنياً رائعاً ومنشأ هذا الجمال وهذا التناسق وجود الصور المتقابلة، والألوان المتباينة، والنماذج البشرية المختلفة، والحقائق الدينية المتناقضة، وغير ذلك من الأشياء المتضادة في طبائعها وأشكالها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس المصادر والمراجع :

- القرآن الكريم
- أبوبكر جابر الجزائري : **العلم والعلماء** - ط ١١ مطبعة الكتب السلفية: القاهرة.
- أبوحيان الأندلسي (- ٧٥٤ هـ):
أ - **البحر المحيط** - ط دار الفكر : بيروت.
ب- **النهر الماد من البحر المحيط** - تقديم وضبط بوران الضناوي، ط ١ دار الجنان، ١٩٨٧م.
- أبوالسعود، محمد بن محمد الطحاوي : **ارشاد العقل السليم (تفسير أبي السعود)** - ط دار احياء التراث العربي : بيروت.
- ابن أبي الإصبع المصري (- ٦٥٤ هـ) : **بديع القرآن** - تحقيق حفني شرف - ط ٢ دار نهضة مصر : القاهرة.
- ابن الأثير، ضياء الدين (- ٦٣٨ هـ) : **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر** - تحقيق أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، ط ١ مكتبة نهضة مصر، ١٩٦٢م.
- أحمد بدوي : **من بلاغة القرآن** - ط ٣ مكتبة نهضة مصر : القاهرة.
- أحمد بن حنبل (- ٢٤١ هـ) : **المسند** - تحقيق أحمد شاكر - الطبعة الرابعة.
- أحمد شلبي : **الجهاد والنظم العسكرية في التفكير الإسلامي** - ط ٢ مكتبة النهضة المصرية : القاهرة، ١٩٧٤م.
- أحمد عبدالمولى مناعي : **الولاء والبراء في القرآن الكريم دراسة موضوعية** - (رسالة ماجستير) - الجامعة الأردنية، ١٩٩٣م.
- أحمد عزالدين البيانوني : **الحق والباطل** - ط ٢ دار السلام : القاهرة، ١٩٨٦م.
- أحمد محمد عساف : **الحلال والحرام في الإسلام** - ط ٢ دار إحياء العلوم : بيروت، ١٩٨٢م.
- أرسطو : **فن الشعر** - تحقيق شكري عيّاد - ط ١ دار الكتاب العربي للطباعة، ١٩٦٧م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الألوسي، أبوالفضل شهاب الدين (- ١٢٧٠ هـ) : **روح المعاني (تفسير الألوسي)** - ط دار إحياء التراث العربي : بيروت.

- الباقلاني، أبوبكر محمد بن الطيّب (- ٤٠٣ هـ) - **إعجاز القرآن** - تحقيق محمد عبدالمنعم خفاجي - ط دار الجيل : بيروت، ١٩٩١ م.

- البغدادي، محمد بن حيدر (- ٥١٧ هـ) - **قانون البلاغة في نقد النثر والشعر** - تحقيق محمد عياض عجيل، ط مؤسسة الرسالة: بيروت.

- البغوي، الحسين بن مسعود (- ٥١٦ هـ) - **معالم التنزيل (تفسير البغوي)** - تحقيق خالد عبدالرحمن العك، ومروان سوّار، ط ١ دار المعرفة : بيروت - ١٩٨٦م.

- التهانوي، محمد أعلى : **كشاف اصطلاحات الفنون** - ط خياط : بيروت.

- ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم (- ٧٢٨ هـ) :

أ - **الاحتجاج بالقدر** - ط المكتب الإسلامي - بيروت، ١٩٧٣.

ب- **درء تعارض العقل والنقل** - تحقيق محمد رشاد سالم - ط دار الكنوز الأدبية.

جـ- **العبودية** - ط دار الكتب العلمية، بغداد.

د - **الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان** - تحقيق زهير الشاويش - ط ٤ المكتب الإسلامي : بيروت، ١٩٨٨م.

هـ- **مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية** - جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد العاصمي.

و- **منهاج السنّة النبوية** - تحقيق محمد رشاد سالم، ط ٢ مكتبة ابن تيمية : القاهرة، ١٩٨٩م.

- الجاحظ، عمرو بن بحر (- ٢٥٥ هـ) : **الحيوان** - تحقيق عبدالسلام هارون - ط ٣ دار إحياء التراث العربي : بيروت، ١٩٦٩م.

- جعفر السبحاني : **معالم التوحيد في القرآن الكريم** - ط ٢ دار الأضواء : بيروت، ١٩٨٤م.

- جوستاف لوبون : **حضارة العرب** - ترجمة عادل زعيتر - ط ٥ مطبعة عيسى البابي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحلبي : القاهرة، ١٩٦٩م.

- حازم القرطاجنّي (- ٦٨٤ هـ) : **منهاج البلغاء وسراج الأدباء** - تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة - ط ١ الشركة الوطنية للنشر : تونس، ١٩٦٦م.

- حامد قنيبي : **المشاهد في القرآن الكريم** - ط ١ مكتبة المنار: الزرقاء، ١٩٨٤م.

- حسن البنا : **نظرات في القرآن** - ط مكتبة الاعتصام : القاهرة، ١٩٧٩م.

- حسين عبدالحميد رشوان : **العلم والبحث العلمي، دراسة في مناهج العلوم** - ط ٣ المكتب الجامعي الحديث : الاسكندرية، ١٩٨٧م.

- ابن حجر العسقلاني (- ٨٥٢ هـ) : **فتح الباري بشرح صحيح البخاري** - تحقيق عبدالعزيز بن باز - ط دار المعرفة : بيروت.

- ابن حزم، علي بن أحمد (- ٤٥٦ هـ) :

أ - **رسائل ابن حزم** - تحقيق إحسان عباس - ط ١ المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١م.

ب- **الفصل في الملل والأهواء والنحل** - تحقيق محمد إبراهيم نصر، وعبدالرحمن عميرة - ط دار الجيل : بيروت، ١٩٨٥م.

- الخازن، علي بن محمد البغدادي (- ٧٢٥ هـ) : **لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن)** - ط المكتبة التجارية الكبرى : مصر.

- الخطّابي، حمد بن محمد (- ٣٨٨ هـ) : **بيان إعجاز القرآن** - ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - تحقيق محمد خلق الله، ومحمد زغلول سلام - ط ٢ دار المعارف: القاهرة، ١٩٦٨م.

- ابن خلدون، عبدالرحمن (- ٨٠٨ هـ) : **المقدمة** - ط دار إحياء التراث العربي : بيروت.

- الرازي، الفخر محمد بن عمر (- ٦٠٦ هـ) :

أ - **مفاتيح الغيب (تفسير الفخر الرازي)** - ط دار إحياء التراث العربي : بيروت.

ب- **نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز** - ط القاهرة، ١٣١٧ هـ.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الراغب الأصفهاني (- ٤٢٥ هـ) : **مفردات ألفاظ القرآن** - تحقيق صفوان عدنان داوودي - ط ١ دار القلم : دمشق، ١٩٩٢م.
- ابن رشد، أبوالوليد (- ٥٩٥ هـ) : **تلخيص كتاب المقولات** - تحقيق محمود قاسم - ط دار الشؤون الثقافية العامة : بغداد، ١٩٩١م.
- ابن رشيق القيرواني (- ٤٥٦ هـ) : **العمدة** - تحقيق محي الدين عبدالحميد - ط ٣ دار السعادة : مصر، ١٩٦٤م.
- زاهر عواض الألمعي : **مناهج الجدل في القرآن الكريم** - ط ٣ مطابع الفرزدق التجارية : الرياض، ١٤٠٤ هـ.
- الزركشي، بدرالدين محمد بن عبدالله (- ٧٩٤ هـ) :
أ - **البرهان في علوم القرآن** - تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم - ط ٢ دار المعرفة : بيروت.
ب- **معنى "لا إله إلاّ الله"** - تحقيق علي محي الدين علي - ط ٣ دار البشائر الإسلامية : بيروت، ١٩٨٦م.
- زكريا المصري : **وحدة الأمة الإسلامية** - ط ١ مؤسسة الرسالة : بيروت، ١٩٩٢م.
- الزمخشري، محمود بن عمر (- ٥٣٨ هـ) : **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل** - ط دار الريان للتراث.
- سعد أبوالرضا : **في البنية والدلالة** - ط منشأة المعارف : الاسكندرية.
- سعيد حوى : **الأساس في التفسير** - ط ١ دار السلام للطباعة، ١٩٨٥م.
- السكاكي، يعقوب بن أبي بكر (- ٦٢٦ هـ) : **مفتاح العلوم** - ط مصطفى البابي الحلبي : القاهرة، ١٩٣٧م.
- سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب : **تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد** - ط ٣ المكتب الإسلامي : بيروت، ١٣٩٧ هـ.
- ابن سنان الخفاجي (- ٤٦٦ هـ) : **سرّ الفصاحة** - ط ١ دار الكتب العلمية : بيروت.
- سيد قطب :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ - **التصوير الفني في القرآن** - ط ٧ دار الشروق : بيروت، ١٩٨٢م.

ب- **خصائص التصور الإسلامي** - ط ٣ الإتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية : الكويت.

جـ- **العدالة الإجتماعية في الإسلام** - ط ٦ مطبعة عيسى البابي الحلبي : القاهرة، ١٩٦٤م.

د - **في ظلال القرآن** - ط ١١ دار الشروق : بيروت، ١٩٨٥م.

هـ- **مشاهد القيامة في القرآن** - ط دار المعارف : مصر.

و- **معالم في الطريق** - ط ١٠ دار الشروق : بيروت، ١٩٨٣م.

ك- **مقومات التصور الإسلامي** - ط دار الشروق، ١٩٨٦م.

- السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر (- ٩١١ هـ) :

أ - **الإتقان في علوم القرآن** - ط دار المعرفة : بيروت.

ب- **الدر المنثور في التفسير المأثور** - ط ١ دار الفكر : بيروت، ١٩٨٣م.

- الشاطبي، إبراهيم بن موسى (- ٧٩٠ هـ) : **الموافقات في أصول الشريعة** - تحقيق عبدالله دراز - ط المطبعة التجارية : مصر.

- الشوكاني، محمد بن علي (- ١٢٥٥ هـ) : **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير** - تحقيق سيد إبراهيم - ط ١ دار الحديث : القاهرة، ١٩٩٣م. (٥٤٠٤)

- صلاح الدين بسيوني رسلان : **القرآن الحكيم رؤية منهجية جديدة** - ط مكتبة نهضة الشرق : القاهرة، ١٩٨٥م.

- الصنعاني، عباس بن علي (- القرن ٦ هـ) : **الرسالة العسجدية في المعاني المؤيدية** - تحقيق عبدالمجيد الشرفي- ط الدار العربية للكتاب ليبيا تونس ١٩٧٦م.

- طاش كبرى زاده - **شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان** - ط مطبعة مصطفى البابي الحلبي : القاهرة، ١٩٣٩م.

- الطبري، أبوجعفر محمد بن جرير (- ٣١٠ هـ) : **جامع البيان (تفسير الطبري)** - ط دار الفكر : بيروت.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الطوسي، محمد بن الحسن (- ٤٦٠ هـ) : **تفسير التبيان** - تعليق أحمد حبيب قصير وأحمد شوقي الأمين - ط المطبعة العلمية في النجف، ١٩٥٧م.

- عباس محمود العقاد :

أ - **التفكير فريضة إسلامية**، ضمن المجموعة الكاملة للعقاد، المجلد ٥ - ط ١ دار الكتاب اللبناني : بيروت، ١٩٧٤م.

ب- **الله** - ط ٣ دار المعارف : مصر، ١٩٦٠م.

- عبدالحقّ الشكيري : **التنمية الاقتصادية في المنهج الإسلامي** - ط ١ رئاسة المحاكم الشرعية : قطر، ١٩٨٨م.

- عبدالحميد طهماز : **الحلال والحرام في سورة المائدة** - ط ١ دار القلم : دمشق، ١٩٨٧م.

- عبدالحميد كشك : **في رحاب التفسير** - ط المكتب المصري الحديث : القاهرة.

- عبدالرحمن بن ناصر السعدي : **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان** - تحقيق محمد زهدي النجار - ط ٢ عالم الكتب : بيروت، ١٩٩٣م.

- عبدالعظيم المطعني : **خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية** - ط ١ مكتبة وهبة : القاهرة، ١٩٩٢م.

- عبدالغني سعد بركة : **أسلوب الدعوة القرآنية** - ط ١ دار غريب للطباعة : القاهرة، ١٩٨٣م.

- عبدالكريم الخطيب :

أ - **التفسير القرآني للقرآن** - ط دار الفكر العربي : القاهرة.

ب- **الشيطان والإنسان** - ط دار الفكر العربي : القاهرة، ١٩٧٩م.

- عبدالله بن أحمد القادري : **الجهاد في سبيل الله، حقيقته، وغايته** - ط ١ دار المنارة : جدة، ١٩٨٥م.

- عبدالله شحادتة : **أهداف كلّ سورة ومقاصدها في القرآن الكريم** - ط ٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م.

- عبدالله الطيّب : **المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها** - ط دار الفكر :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بيروت والدار السودانية للنشر.

- عبدالمجيد صبح : **العلم والإيمان** - ط ١ دار الوفاء للطباعة : المنصورة، ١٩٨٤م.

- العسكري، أبوهلال (- ٣٩٥ هـ) : **كتاب الصناعتين** - تحقيق مفيد قميحة - ط دار الكتب العلمية : بيروت.

- ابن عطية الأندلسي، أبومحمد عبدالحق (- ٥٤٢ هـ) : **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** - تحقيق عبدالله الأنصاري، وعبدالعال إبراهيم - ط ١ مؤسسة دار العلوم : قطر، ١٩٨٧م.

- العلوي، يحيى بن حمزة (- ٧٤٩ هـ) : **الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة** - ط مطبعة المقتطف : مصر، ١٩١٤م.

- علي بن معصوم المدني (- ١١٢٠ هـ) : **أنواع الربيع في ألوان البديع** - تحقيق شاكر هادي شكر - ط ١ مطبعة النعمان : النجف، ١٩٦٨م.

- عماد الدين خليل : **العدل الاجتماعي** - ط مؤسسة الرسالة : بيروت.

- بن عيسى عبدالقادر بطاهر - **أساليب الإقناع في القرآن الكريم** (رسالة ماجستير) الجامعة الأردنية ١٩٩٠م.

- الغزالي، أبوحامد (- ٥٠٥ هـ) :

أ - **إحياء علوم الدين** - تحقيق سيد إبراهيم - ط ١ دار الحديث : القاهرة، ١٩٩٢م.

ب- **الحلال والحرام** - تحقيق محمد مصطفى أبوالعلا - ط ١ مكتبة الجندي الحديثة: القاهرة، ١٩٧٤م.

جـ- **المنقذ في الضلال** - تحقيق عبدالحليم محمود - ط دار النصر : القاهرة.

- فاروق دسوقي : **الإنسان والشيطان** - ط دار الدعوة للنشر : الاسكندرية.

- فتحي الدريني : **دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر** - ط ١ دار قتيبة : بيروت، ١٩٨٨م.

- فضل حسن عباس : **قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية** - ط ١ دار البشير: عمان، ١٩٨٨م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الفيروزآبادي - محمد بن يعقوب (- ٨١٧ هـ) : **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز** - تحقيق محمد علي النجار - ط المكتبة العلمية : بيروت.

- قدامة بن جعفر (- ٣٣٧ هـ) : **نقد الشعر** - تحقيق كمال مصطفى - ط ٣ مكتبة الخانجي : القاهرة.

- القرطبي، محمد بن أحمد (- ٦٧١ هـ) : **الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)** - ط مؤسسة مناهل العرفان : بيروت.

- القزويني، محمد بن عبدالرحمن (- ٧٣٩ هـ) : **الإيضاح في علوم البلاغة** - تحقيق محمد عبدالمنعم خفاجي - ط دار الكتاب اللبناني : بيروت.

- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (- ٧٥١ هـ) :

أ - **إعلام الموقعين عن ربّ العالمين** - تحقيق عبدالرؤوف جابر، ط دار الجيل : بيروت.

ب- **الروح** - ط دار الكتب العلمية : بيروت، ١٩٧٩م.

جـ- **زاد المعاد في هدي خير العباد** - تحقيق شعيب الأرنؤوط - ط ١ مؤسسة الرسالة : بيروت، ١٣٩٩ هـ.

د - **الطرق الحكمية في السياسة الشرعية** - ط مطبعة الآداب : القاهرة، ١٨٩٩م.

هـ- **طريق الهجرتين** - تحقيق عبدالله بن إبراهيم الأنصاري - ط إدارة الشؤون الدينية : قطر، ١٩٧٧م.

و- **الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن** - تحقيق لجنة تحقيق التراث - ط مكتبة الهلال : بيروت.

ز- **مدارج السالكين** - تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد - ط السنة المحمدية : الرياض، ١٩٥٦م.

- ابن كثير، عماد الدين (- ٧٧٤ هـ) : **تفسير القرآن العظيم** - ط ١ الدار المصرية اللبنانية : القاهرة، ١٩٨٨م.

- كراتشكوفسكي إ.ج. : **علم البديع والبلاغة عند العرب** - ط ١ دار الحكمة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للنشر : بيروت، ١٩٨١م.

- لويس شيخو : **علم الأدب** - ط مطبعة الآباء اليسوعيين : بيروت، ١٨٩٠م.

- الماوردي، علي بن محمد (- ٤٥٠ هـ) : **النكت والعيون (تفسير الماوردي)** - تحقيق عبدالمقصود بن عبدالرحيم - ط ١ دار الكتب العلمية : بيروت، ١٩٩٢م.

- مالك بن نبي : **الظاهرة القرآنية** - ترجمة عبدالصبور شاهين - ط دار الفكر : دمشق، ١٩٨٥م.

- ابن مالك الأندلسي (- ٦٨٦ هـ) : **كتاب المصباح في علم المعاني والبيان والبديع** - ط ١ المكتبة الخيرية، إدارة السيد عمر الخشاب.

- مجموعة من المؤلفين :

أ - **العلم والإيمان في الإسلام** - ط وزارة الشؤون الثقافية : تونس، ١٩٧٦م.

ب- **فصول في البلاغة والنقد الأدبي** - ط ١ مطبعة الفلاح : الكويت، ١٩٨٣م.

جـ- **الوحدة الإسلامية أو التقريب بين المذاهب السبعة** - جمع وترتيب عبدالكريم الشيرازي - ط ١ مؤسسة الأعلى للمطبوعات : بيروت، ١٩٧٥م.

- محمد أبوزهرة : **المعجزة الكبرى القرآن** - ط دار غريب للطباعة : القاهرة.

- محمد أحمد عبدالقادر : **عقيدة البعث والآخرة في الفكر الإسلامي** - ط دار المعرفة الجامعة : الاسكندرية، ١٩٨٥م.

- محمد أحمد كنعان : **مختصر تفسير المنار** - ط ١ المكتب الإسلامي : بيروت، ١٩٨٤م.

- محمد بركات أبوعلي :

أ - **في الأدب والبيان** - ط ١ دار الفكر : عمان - ١٩٨٤م.

ب- **في إعجاز القرآن** - ط ١ مؤسسة الخافقين : الرياض، ١٩٨٣م.

جـ- **البلاغة العربية في ضوء منهج متكامل** - ط ١ دار البشير : عمان، ١٩٩٢م.

- محمد بن سعيد القحطاني : **الولاء والبراء في الإسلام** - ط ٢ مكتبة طيبة : الرياض، ١٤٠٤ هـ.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- محمد حسن آل ياسين : **في رحاب القرآن** - ط ١ دار المعارف : بغداد، ١٣٨٨ هـ.
- محمد جمال الدين القاسمي : **محاسن التأويل (تفسير القاسمي)** - ط ١ مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٥٨م:
- محمد الدسوقي : **الاجتهاد والتقليد في الشريعة الإسلامية** - ط ١ دار الثقافة : قطر، ١٩٨٧م.
- محمد رشيد رضا :
أ - **تفسير المنار** - ط ٢ دار المعرفة : بيروت، ١٩٧٣م.
ب- **الوحدة الإسلامية والأخوة الدينية** - ط ٣ دار المنار : القاهرة، ١٣٦٧ هـ.
- محمد سلطاني : **البلاغة في فنونها** - ط مطبعة زيد بن ثابت، ١٩٨٠م.
- محمد الطاهر بن عاشور - **تفسير التحرير والتنوير** - ط ١ الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.
- محمد عبدالله دراز :
أ - **مدخل إلى القرآن الكريم** - ترجمة محمد عبدالعظيم - ط ٣ دار القلم : الكويت، ١٩٨١م.
ب- **النبأ العظيم** - ط ٣ دار القلم : الكويت، ١٩٧٧م.
- محمد عزة دروزة : **الجهاد في سبيل الله في القرآن والحديث** - ط دار اليقظة العربية : دمشق، ١٩٧٥م.
- محمد الغروي : **الفقراء في ظل الرأسمالية والماركسية والإسلام** - ط دار التعارف : بيروت.
- محمد الغزالي :
أ - **عقيدة المسلم** - ط دار القلم : دمشق، ١٩٨٩م.
ب- **المحاور الخمسة في القرآن الكريم** - ط ١ دار الوفاء : القاهرة، ١٩٨٩م.
جـ- **نظرات في القرآن** - ط ٦ دار الشهاب : الجزائر.
- محمد فؤاد عبدالباقي : **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** - ط مؤسسة مناهل العرفان : بيروت.
- محمد قطب : **دراسات قرآنية** - ط ٢ دار الشروق : بيروت، ١٩٨٠م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- محمد نعيم ياسين : **الإيمان** - ط ٢ جمعية عمال المطابع التعاونية : عمان، ١٩٧٩م.

- مسلم بن الحجاج، أبوالحسين (- ٢٦١ هـ) - **صحيح مسلم** - تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي - ط ١ دار الحديث : القاهرة، ١٩٩١م.

- مصطفى صادق الرافعي : **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية** - ط دار الكتاب العربي : بيروت.

- ابن منظور (- ٧١١ هـ) : **لسان العرب المحيط** - ط دار صادر : بيروت.

- المودودي، أبوالأعلى :

أ - **العدالة الإجتماعية، حقيقتها وسبيل تحقيقها** - ط مكتبة دار البيان : الكويت.

ب- **المصطلحات الأربعة في القرآن** - ترجمة محمد كاظم سباق - ط الدار الكويتية : الكويت.

- نادية العمري : **الاجتهاد في الإسلام** - ط ٣ مؤسسة الرسالة : بيروت، ١٩٨٥م.

- ناصر الدين الألباني : **صحيح سنن الترمذي** - ط ١ مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٩٨٨م.

- النووي، يحي بن شرف (- ٦٧٦ هـ) : **صحيح مسلم بشرح النووي** - ط ٣ دار إحياء التراث العربي : بيروت، ١٩٨٤م.

- النيسابوري، الحسن بن محمد (- ٧٢٨ هـ) : **غرائب القرآن ورغائب الفرقان** - تحقيق إبراهيم عطوة عوض - ط ١ مطبعة مصطفى البابي الحلبي : القاهرة، ١٩٧٠م.

- ابن الوزير، محمد بن إبراهيم (- ٨٤٠ هـ) : **إيثار الحقّ على الخلق** - ط ١ دار الكتب العلمية : بيروت، ١٩٨٣م.

- ابن وهب الكاتب، أبوالحسين إسحاق (- مجهول الوفاة) : **البرهان في وجوه البيان** - تحقيق حفني محمد شرف - ط مكتبة الشباب : القاهرة.

- يوسف القرضاوي : **مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام** - ط دار العربية للطباعة : بيروت.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

Abstract

- Antithesis in the Holy Qur'an -

prepared by : BENISSA BETTAHAR

supervised by : pro. Dr / MOHAMED BARAKAT ABU ALI

The purpose of this research paper is to look at the Antithesis in the Holy Qur'an. Antithesis is one of the main methods of presentation in the Holy Qur'an. This subject is chosen due to many reasons, the foremost is that the earlier studies looked at the subject within the framework of rhetoric. Moreover, the recent studies do not pay much attention to this theme. There are general views of this subject in some books as well as in some Qur'anic commentaries. The other reason is that the Antithesis is related to the inimitable method of Qur'an.

This research paper is new in its ideas methods, and results. The researcher depends on the Qur'anic texts in order to come up with results. He also adopts the statistical and analytical approaches in order to get the accourate results.

The researcher has come up with many results. The foremost is that Antithesis is one of the main methods in the Holy Qur'an and it is used to present Qur'anic facts. So it is not only a rhetoric aspect as it considered by the earlier researchers.

Antithesis is considered as one method of persuasion in the Holy Qur'an.

Furthermore, it is used for giving prooves and deductions. Moreover, it is used in controversial issues. The Antithesis is considered as one of the aesthetical value in the Holy Qur'an.

The research paper examines the main Antithesis in the Holy Qur'an. Some of these Antithesis related moral and religions issues such as oneness and polytheism, and good and evil. Some Antithesis related to economic and political issues such as justice and injustic as well as richness and poverty.

The other Antithesis related to intellectual issues such as ignorance and knowledge, annovation and imitation ...etc.

The researcher sees that it is necessary to give the Antithesis a new classification as well as pay much attention to this method within the frame work of Qur'anic approaches.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit